غلاف: إيمان محمد
البغدادلي
حنان الشيمي
دار البشير
للثقافة والعلوم

البغدادلي

حنان الشيمي

الطبعة الأولى
1441 هـ
2020 م

اسم الكتاب: البغدادلي
التأليف: حنان الشيمي
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 427 صفحة
عدد الملازم: 26.5 ملازم
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2020 / 28514
الترقيم الدولي: 7 - 805 - 278 - 977 - 978

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714
جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

البغدادلي

حنان الشيمي

دار البشير للثقافة والعلوم

إهــداء

«الكلمات لا يخلدها سوى حبر وأوراق ودفتي كتاب،

وإلا سقطت في جب النسيان»

د.منى سلامة

كل صباح يتحلق الصغار أريكة الجدة «آمنة»، أو جدة «يامنة» كما يناديها الجميع.

الجدة التي أفنت حياتها في الدار ترعى الجميع، تعتني بالصغير قبل الكبير، تُحسِن وِفادةُ الضيوف وتستقبلهم بحفاوةٍ، انحنى ظهرُها ووهن عظمُها واشتعل شيباً رأسُها.

ربّط الله على قلبها بعدما فقدت ولديها واحدا تلو الآخر! فسلّمت الأمر لبارئها ، وصبرت على مُصيبتها واستعصمت بخالقها؛ فكان العوض في الحفيد البار بها وبجده يخبرها كل صباح: ألا تخافي ولا تحزني وأبشري.

كان ليحيى موقعاً بليغاً في قلبها، يأسرها بحنانه وحبه.

في بهو متسع سقفه شديد الإرتفاع تتوسطه ثريا عملاقة، أمام بوابة حديدية ضخمة وأشجار عملاقة كقلعة حصينة تقص عليهم حكاية كل يوم ...قصة البغدادلي..وتقول:

«جدكم البغدادي الكبير بنى البيت دا بعرقه ودمه، راجل ولا كل الرجال، أسد بيصون أرضه وعرضه ما يرضاش أبداً مخلوق يتطلع على أهل بيته، عشان اكده عمل كل الفراندات والشبابيك والبلكونات بالبغدادلي، دا غير السور الكبير العالي حوالين البيت، وزرع الشجر الكبير دا عشان محدش يجرح أهل بيته.

تنهدت وهي تلتفت إلى السياج المحيط بحديقة المنزل وندت من عينيها عبرة حزن وأكملت:

-عشان اكده سموه «البغدادلي» ،،،هاا،،،عرفتوا؟»

فتناثرت الهمسات والهمهمات هنا وهناك وردد الجميع:

- أيوا عرفنا يا جدة.

وكأن كل مَن بالبغدادلى عروس مختبئة في خدرها لا تطالها الأعين ولا تطالعها الأبصار.

لا تصدق كل ما تراه ولا تثق بكل ما تسمعه، صحيح أن الحقيقة ساطعة كالشمس راسخة كأوتاد الجبال وأن أصدقها على الإطلاق أحاديث القلوب؛ لكنّ الواقع أثبت أن الزيف يملأ بعضها، يصيبها بالعطب، ويتخفّى خلف سحابات الطيبة، ليهدم ما بُني في عُقود ويُبعثر ما لِملم في قرون، فتميدُ الأرضُ وتخِر الجبالُ وتفيضُ البحارُ والأنهار.

تروي الحكايا ما بين طيّات التاريخ،وتعيد صياغتها ما بين ثنايا الأحداث، ننتظر النبتة لتنمو، والمُزن ليُغاثُ الناس فلربما كان صيباً نافعاً، لكنّه كان طوفانا أغرقنا ودمّر الحصاد!

تتابعه بعينيها الواسعة أينما ذهب بلا كلمة واحدة، ليس فقط لأنها خرساء؛ بل أيضاً لأنها لا تُدرِك مما حولها سواه.

تدور خلفه أينما حل في المنزل

تعرف ما يريده قبل أن ينطقه، تشعر بوجعه قبل أن يبوح به!

علاقة غريبة لا يعرف أحد كنهها.. حتى هو.

كل ما يدركه أنه كبر ووجدها دائماً معه، دائما حوله، دائما بجانبه.

اثنان ثالثهما الغموض وخلال رحلتهما لم تُجب سؤالاً ولم تفصح تبيانًا لأي شيء.

ليطول السكوت فيمتزج بالحيرة، وما بين السكون والضجيج تمر الحياة.

لم يُحاول أن يستشف ما وراء عينيها بعدما تعب وأضناه التفكير، فوجودها أصبح أمر مُسلّم به. أنزلت نفسها منزلة الأم الرؤوم مُتخذة مِن احتياجه سبباً، ومِن قُربه سُلّماً، ومِن قلبه سِتراً يحميها.

راعية له مهتمة بشئونه ساهرة على راحته، لا تلتفت عنه حيناً، ولا تفارقه سبيلاً ولو كانت... خادمة!

اقشعر بدنه واضطربت ملامحه من وقع الكلمة،ثم استطرد عقله مُهتدياً لكلمة أفضل، إنها مربيته..

"سُنْدُس"

في العِقد الرابع من عمرها، نحيفة القوام، بيضاء البَشَرة مكتسية بحمرة شابها بعض اصفرار مما يوحي لمن يراها كم عانت وتعاني، إضافة إلى تلك العينين البنيتين اللتين أحاطتهما بعض الهالات السوداء.

وبنظرة سريعة تدرك أنها سيدة من عائلة محترمة؛ مشيتها، حركتها، ردة فعلها.

حتى ما ترتديه من ثياب يخبرك أنها نشاذ الواحة التي حاولت أن تتناغم معها قدر المستطاع ففشلت.

ما تعجز عن تفسيره هو صمتها الرهيب! فحتّى مَن أُصيب بخرس يتحدّث لغة الإشارة، أما «سندس» فعاكفة عن الكلام أصلاً! مما يجعل الحيرةً تعيث فسادًا في رأسه ليخفي بعضاً مما يدور بذهنه ويكشف عن بعض.

ابتسم لمرآها.

تحولت «سندس» إلى كائن صغير نحيل يبعثرها المرض فوق الأرض المبللة بدموع قهرها وعجزها.

كان يخاف منها في البداية، يخاف من نظراتها، يرتاب من نواياها، حتى أثبتت له الأيام حُبّها العظيم وقلبها الكبير.

انتزعته مِن شروده وهي تُقدم له فنجان قهوته وتربت على كتفه كعادتها كل صباح، تتبعها بنظرة مغلفة بالدُعاء، تضع القهوة، وتُعيد منشفته وإزاره الملقيين على الفراش إلى مشجبهما. يستوقفها «يحيى» سائلاً إياها بابتسمة مُداعِبة: (جدي صحي ولا لسه يا سندسة؟)

هكذا يناديها دوماً مُنذُ صِغره، لم يرَ بوجهها طِوال حياته نظرة تأفف أو غضب،كل ما يراه؛ صمت في باطنه حب كبير!

أو هكذا يتغامز الجميع عليهما بسخرية، وأحيانًا بصفاقة.

أشارت إليه «سندسته» بالإيجاب.

طول قامته وصرامته وجديته أضفوا عليه وسامة على وسامته، بينما التقطيبة لا تفارق جبينه، حاجباه متعاقدان دوماً. إلا إن تحدث مع جده أو جدته أو سندسته.

دلف إلى حجرة جده ليلقي عليه تحية الصباح، قبّل يده لينال بعض الدعوات الممتزجة بالحب والحنان.

استشارات سريعة على عُجالة لبعض ما يتطلبه العمل، فبالرغم من كِبر سن الجد وأمراض الشيخوخة التي أقعدته؛ إلا أن ذهنه حاضراً وعقله لا يزال متقداً.

مجرد ذكر اسمه بين أهل الواحة كفيل بجعل الفرائص ترتعد والقلوب ترتجف!

رحل سريعاً إلى عمله في مخازن الغِلال التي تمتلكها عائلة «البغدادي».. هو مَن يُدير كل شيء بعد رحيل والده منذ عِدة أعوام.

صعيديون أقحاح من قاع الصعيد،يتاجرون في الغلال التي يزرعونها بأراضيهم الشاسعة.

يتذكر ذلك اليوم جيداً؛ حين جاءه خبر وفاة والده بينما كان في المدرسة الثانوية.

لم يسمح له جدّه يومها بالبكاء، معنفًا إياه:

«الرِجال ما يبكوا يا وِلْد، قوم شِد عودك وارفع راسك، بقيت كبير البغدادية يا حزين.».

قالها الجد مُخفياً سيل الدموع الذي انهمر على وجنتيه، مُحترقاً قلبه على ولده، مُلتاعاً فؤاده برحيل الأحبة.

فبعد وفاة حسن، يلحق به حسين!

يتمتم الجد بعبارات اللوعة والحسرة على ولديه، وأنّى له الصبر على دفنهما بيده!؟ فيسأل الله الثبات ليتخذ من صبره سلاحاً ومن عزيمته ويقينه درعاً وسيفاً.

تنطق الأعين بدمعات حارقات يخفيها «يحيى» لمّا بدا كف الجد مرتعشاً يمدها ليكفكف دموع غالبها فغلبته، ويخفي فم أكثر ارتعاشاً.

قلبان تعانقا واتحدا ليعودا محمّلان بالحُزن والأسى.

ابن فقد أبوه، وأب رحل ولده.

لكنّ لُطف الله الخفي حاضر، إذ ما منع إلا ومنح، وما أخذ إلا وأعطى.

ولّى وجهه شطر السماء متبتلًا ذاكراً، يسأل الله العوض في حفيد على عتبة الشباب.

أصبح «يحيى» هو الحفيد الذكر الوحيد لعائلة «البغدادي».

تخطّى عامه العشرين منذ أشهر قليلة.

ابتلع غُصته ووصل لمقر المخازن وبدأ في المرور عليها ومتابعة سير العمل فيها.

وما إن دلف إلى مكتبه؛ حتيّى دخل عليه غاضباً مزمجرًا صائحًا كبركان يقذف حُمماً، إنه «عاصم»، زوج عمته «حُسْنة» والخَصم العنيد ليحيى دوماً

لعدة أسباب أهمها؛ استحوازه على كل سُلطات العائلة وتجاوز وجوده لتُسدى كل الأدوار ل»غرير شقي» كما ينعته دائماً في خاطره وجلساته الخاصة.

تزوج حُسْنة طامعا ليحوز ما بين الجبلين فما وجد إلا فُتات بين شِقين، صاح فيه:

- «كيف يعني يا واد عمي تمضوا عقود بيع الشحنة الكابيرة من غير علمي؟»

استدار ليكون في مواجهته مباشرة ووجه حديثه بكل غل:

- «أني مايلدش عليا الحديت ديه ولا أني بقيت طرطور ولا ايه يا يحيى!؟»

تبادلا نظرات نارية في عناد، يعلم «يحيى» جيداً حقد «عاصم» وكراهيته له ويتحاشى الصدام معه فيتجنبه ويحاول مهادنته واتقاء شره مؤقتاً، فهدأه بنبرة مطمئنة:

- «ياراجل هو في حاجة بتّم إلا بمشورتك؟ دا أنت رأيك قبل الكل يا جوز عمتي.. وبعدين يا وادابوي دي عقود ابتدائية، ربط كلام يعني، وأنت عارف يا ريس الأسعار كل يوم بحال والمكان مايساعش إن الشحنة تتركن أكتر من اكده ولا أنت ليك رأي تاني؟».

همهمات وتمتمات لم يفهم منها «يحيى» شيئاً، لكنه يعرف جيداً دهاء «عاصم» ومكره وتربصه ويحتاط منه كما حذره جدّه تماماً. حدجه بنظرة قاسية مهادنة ثم قام بسرعة ليحتوي البقية الباقية من ثورته متأبطاً ذراعه مداعبًا له وهو يهم بالرحيل معه ويمنحه إجابة مقتضبة تقضم هذا الحوار وتبتره بترًا:

– «يلّا يا عاصم نلحقو الفتة بتاعت عمتي حُسنة قبل ماتُبرُد وتطين عيشتنا.»

رغم بعض الهدوء الذي ارتسم على سحنته ورآها «يحيى» بعينيه إلا إنه لا يطمئن له مطلقاً.

يبتسم باستخفاف مستجيبًا له وهو يردد:

– «على قولك يا أخوي».

***

الحد الفاصل بين الموت والحياة، بين الوجود والعدم، بين الجنة والنار؛ هو الشعرة الفارقة، و ذاك الخيط الرفيع الذي نتأرجح حوله.

ندور ونثور بأقدام تُحلق في الفضاء ولا تطأ الأرض أبداً أو حتى تلامسها.

***

شمس الشتاء خجولة، تطل باستحياء على الواحة فتُشرق الأرض بنور ربها وتزهو النخلات فرحاً وتيهاً لتُعانق السماء.

أما النجوم؛ فقد كانت على العهد، ببريقها الأخاذ تضيء سماوات الواحة العامرة بسلاسل نورها الغامرة.

هكذا الحياة، ليل يعقبه نهار، ظلام يتبعه نور، بأمر الواحد القهار.

الحصى يفترش أرض الواحة بألوانه المتعددة.

أنت هنا على أرض الطُهر والنّقاء، فاخلع نعليك وامض في سلام.

المساكن متشابهة، بُنيت من الطوب اللبني، وغطّى سقفها عروش من جريد النخل وجذوع الأشجار، بينما تركت فتحات تنفذ منها أشعة الشمس الذهبية ونسيم الهواء العليل.

تناثرت قرى الواحة، لكن سكانها متشابهون.

كانت الواحة منقسمة الى جزءين؛ جزء لأهل الواحة الأصليين، ـوهم يميلون إلى البدو، لهم زي تقليدي عبارة عن: سروال فضفاض ينتهي بحلقة ضيقة عند القدم، وقميص أبيض خفيف، ودراعة من الكتان مزركشة الألوان، أمّا الجزء الآخر؛ فكان لأهل الصعيد وجلهم من الجنوب.

شمس الشتاء خجولة لكنها باقية على العهد، تُشرق فينا لتنير قلوبنا وتبتسم أرواحنا، السعادة مكفولة للجميع اختياراً إن أصبح الحب بين العباد متفق عليه.

دنت منه بخطوات وئيدة، تخشى إصدار صوت يزعجه.

لمحته مستيقظاً فاحتلت المقعد المقابل لفراشه ليعتدل متبرماً:

- اصباح الخير يا أبوي كيف ما أصبحت؟

ابتسمت في وجهه والحقد يملأ قلبها!

مال أبيها وعائلتها لن يخرج من تحت يدها، ربما حان وقت تدخلها لإنهاء تلك اللعبة السخيفة. كعادتها فكرت وخططت وقررت التنفيذ.

-نحمدوه يابتي.

-أني شايفة اكديه انك ما واخدش بالك من صحتك ومن اللي حواليك.

-كيف يابتي هو أني ليا حد غيركم أفكر فيه؟ بس الصحة بقى خلاص يا بتي يالله حسن الختام. هناخدوا زمننا وزمن غيرنا؟

كانت تلك هي القاصمة، حين عرضت «حُسنة» على والدها صفقة بطعم زيجة.

صمتٌ رهيب ابتلعها حتى أنها عضت أصابعها ندماً وضيقت عيوناً كحّلها الأرق، ولكن لم يعد هناك مجال للتراجع، ألقت جملتها بسرعة وكأنها تخشى ردة فعله:

-يحيى كبر يابوي، وبده مرة تراعيه ونكبّر سلسال البغدادي.

غمغمت قليلاً ثم استدارت لتخفي عيونها التي تمتلئ غلظة وقسوة عنه وأكملت:

– «جميلة» بتي يابويا هتبقى لايقة عليه ومن وأمه.

واجهته «حُسنة» لترى تجاعيد الزمن المحفورة على تقاسيم وجهه وطياته التي أحاطت بعنقه وطوقته.

تابعت قائلة:

– «يابوي المال مش هيخرج برا البغدادية، دلقيتي مفيش غير يحيى اسم الله عليه واني مخلفتش غير جميلة و......».

توقفت الكلمات على لسانها، فقد تذكرت بنات أخوها وزوجته.

زجر أبوها غاضباً وقال باندفاع محموم:

– وبنات أخوكي نسيتيهم يا واكلة ناسك؟

اختفت ابتسامة صغيرة على شفتيها وتلبستها نشوة الانتصار، فهذا هو الوقت الملائم الذي تطرق فيه على الحديد وهو ساخن، لتراوغ أباها قليلاً وتستدرجه إلى ما تريد ولو بتلميح مبطن عن سر «البغدادي»

فقالت بنيرة ماكرة:

– أيوة يابوي ربي يحميهم بس دول إخوات يحيى مينفعش يتجوز واحدة منيهم، ولا أنت ناسي يا بوي؟

نظرة من طرف عينها بخبث ومكر، أدركت أنها أصابت الهدف فأردفت بسرعة:

- ولا جميلة مش لادة على يحيى.

أشاح والدها بيده لتنهي هذا الحِوار معقباً:

- طب طبي ساكتة والله انتي حديتك كله ماسخ

دخلت الحاجة «آمنة» تجر أقدامها متكئة على عصاها، وما إن رأتها «حُسْنة»، حتّى أسرعت تسندها وتأخذ بيدها.

جلست بعد أن أخذت نفساً عميقاً، وقالت لابنتها بلوم، فهي تعرفها جيداً:

- جرى ايه يا حُسنة ما تسيبي أبوكي يرتاح يا بتي وبلاش تنكشي في دماغه ولا ما هنخلوش من اللت والعجن ديه، قومي يا بتي الله يرضى عليكي شوفي الوكل زمان جوزك وواد أخوكي راجعين جعانين.

همّت «حُسنة» بالانصراف مُتململِة وحانت منها التفاتة ونظرة دهاء مبطنة أنها لن تتوانى ولن تتراجع عما تخطط له.

***

الصعيدي لا يتزوج إلا من صعيدية مثله، ولا يُصاهر إلا العائلات الصعيدية العريقة، فلا يعطوا بناتهن لمن لا يعرفون حسبهم ونسبهم، ولا يعلمون شيئاً عن ماضيهم وتاريخهم.

هذا ما عرفه الأجداد فأورثوه للأبناء وغرسوه في الأحفاد، حتيّى صار عُرفاً وعادة لا تفريط فيها، لا مفر من زواج «يحيى» بـ«جميلة» حتى يهدأ الجميع وتسكن ثورة «حُسنة» و«عاصم» ويرتاح «يحيى».

دعاه إلى غرفته ليتحدث إليه خُلسة بعيداً عن الأنظار، الجد هو الآمر الناهي، لا يجرؤ أحد على مراجعته ولا تُرد له كلمة، يُقرر مصائر االعائلة بلا نقاش أو جدال، رجل قوي رغم كبر سنه إلا أنه يحمل قلباً يفيض بالحنان،حنان لا تسمع به ولا تراه؛ بل تستشعره من تصرفاته وأفعاله، وهكذا قرر «البغدادي» أن يتزوج «يحيى» بـ«جميلة».

وقف في غرفته يطالع صور أولاده التي يعلقها على الجدار، «حسين» الابن الأكبر، ذراعه اليمنى ومستودع أسراره.

مسح عبرة تساقطت بشجن وهو يحادث الصورة بهدوء واتزان:

-ماتقلقش يا ولدي بناتك أمانة في رقبتي وسرك محفوظ في حشايا هاحافظ عليه وأحفظه لآخر يوم من عمري وأتطمن عليه محفوظ بعد موتي.

حانت منه التفاتة إلى الصورة المجاورة، إنه «حسن» ولده الحبيب الأقرب إلى قلبه، لم تكتحل عيناه برؤيته قُبيل موته، ترك الواحة وذهب للدراسة بالعاصمة، التحق بكلية التجارة وأحب زميلته وهنا انقلبت حياتهم رأسا على عقب.

هو ذلك الخوف الذي يكمن في التفاصيل حتى يصل إلى أعمقها «الضمير».

طرقات حذرة على باب غرفته أخرجته من شروده وأعادته إلى أرض الواقع، دعاه للدخول والجلوس بجواره، يفترسه القلق وتعصف به الظنون.

- كيف حالك يا ولدي؟

قبّل «يحيى» يد جده بحب واحترام مجيباً:

-الحمد لله يا جدي زين والله وكله تمام.

ربت على كتفه واقترب منه هامسًا:

-عايز اطمن عليك يا يحيى قبل ما أموت وافرح بيك يا ولدي.

ابتسم «يحيى» وسارع:

-العمر الطويل ليك يا جدي ...لسه بدري على موضوع الجواز ده، أني مابفكرش في حاجة غير الشغل ومصالحنا وأخواتي.

- لا يا يحيى انت دلقيتي كبير العيلة والكبير لازمن تصرفاته تكون كبيرة زيه، آن الآوان يا ولدي تتجوز، وأنا اخترتلك عروستك، جميلة بت عمتك.

اتسعت حدقتا «يحيى» مستنكرًا! فهي آخر فتاة تصلح له، يكفي فقط أنها ابنة عاصم وحسنة.

أطرق برأسه مبتلعاً غصته، فهو لا يستطيع رد أمر لجده وأجاب مرغماً:

- اللي تشوفه يا جد.

مُتفهمًا أجابه جده:

- بكديه يا ولدي هتريح قلبي وأموت وأنا متطمن وراضي، بكديه يا «يحيى» الكل هيرتاح يا ولدي وماهكونش قلقان عليكم بعد ما اموت.

- ربنا يخليك لينا يا جدي.

قالها وهو يغادر غرفة جده.

***

جلست على حافّة الفراش تضم ساقيها إلى صدرها وتطوقهما بذراعيها دافنة وجهها بينهما بينما خُصلات شعرها الأسود الفاحم تتناثر متمردة على كل شيء، مثلها تماماً.

دموع تجمعت في ععينيه تؤازر إحساس العجز والخوف الذي تملكها.

دخلت أمها «حُسنة» عليها تتفقدها، فمنذ بلغها الخبر تحبس نفسها في غرفتها.

أشاحت جميلة بوجهها بعيداً تخفي مدامعها الحمراء ورماً وبكاءً وقهراً، تُساق إلى خِطبة من دون رأي، يكفي إخبارها بالأمر فقط!

تُعاني الوحدة رغم كثرة الناس حولها، ترتجف من البرد رغم دفء العائلة وكبر حجمها عدداً ومالًا ونفوذًا.

لم تحظَ «جميلة» باهتمام والدها رغم كونها وحيدته؛ فهو دائماً مشغول بالأرض والمال والتجارة، وأم لا تعرف مِن الحياة إلا أن تكون أكثر سيطرة على الجميع.

فاجتمع اثنان على حب الدنيا ليحوّلا حياة وحيدتهم إلى جحيم!

كل منهما كصندوق مغلق به الكثير والكثير من الأسرار التي لا يعرف أحداً عنها أي شيء.

جميلة ابنة السبعة عشر عاماً، روحها لا زالت تبحث عنها ولم تهتدِ إليها بعد.

بادرتها أمها باستنكار:

-مالك يا جميلة؟

تنحت «جميلة» جانباً وهمّت بالقيام من فراشها بخفة لينسدل شعرها خلف ظهرها حتى يبلغ نصف قامتها، ففي الواحة زينة المرأة رأسها، وشعرها أبرز مفاتنها، طوله دليل على أنوثتها فلا تفريط فيه، ولا أحد يسمح بذلك اللهم إلا تهذيبه وتشذيب أطرافه.

التقطت طوقًا لتُلملم خُصلات شعرها وتعقصه لتحكم بالطوق وِثاقه زافرة في حنقٍ وأسىٍ:

-ولاشي ... ولاشي بقرة وبيجوزوها هتنطق وتقول لأ؟ بهيمة وبيسوقوها للجزار مهما تصرخ وتقول جاي حد هيسمعها؟

ليظهر فجأة «عاصم» والدها أمامها.

لم تنبس بكلمة، بل ابتلعت لسانها قبل كلامها.

صرخ بوجهها ممرراً غضبه وثورته:

- في ايه يا بت، صوتك عالي ليه يا واكلة ناسك معاجبكيش العريس ولا معاجبكيش الجوازة؟ عايزة تفضحيني يابت حُسنة!

هتفت بفزع:

-أبوي، لا يا أبوي...

لم يدعها تُكمل جملتها ليصب على مسامعها وابلًا من اللوم والتقريع:

- عايزة تمرمطي راسنا ف الوحل ولا عايزة تفجري يا ست االبنات؟

استجمعت شجاعتها وتمتمت باستكانة:

- ما عشت ولا كنت يا ابوي، أنا جاهزة لأوامركم كولاتها.

لوت الأم شفتها وهمّت بتقريعها لولا طرقات خافتات على باب الحجرة، لتمد «هاجر» ابنة خالها رأسها من فتحة الباب موجهة عبارة مقتضبة إلى «جميلة»:

- جدك عايزك في المقعد يا جميلة.

مادت بها الأرض للحظات وهي تقف أمام جدها فقد كانت مضغوطة ومتوترة، حاولت أن تستجمع شتات نفسها وهي تختلس نظرة إلى أمها التي رافقتها حيث مجلس الجد.

حاولت يائسة التشبث بأمها لينتزعها صوت الجد العميق من هُوتها السحيقة:

-عايزها لحالها يا حُسنة، روحي اعمليلي فنجان بن يا بتي.

استجابت حُسنة مجبرة لتفلت يد ابنتها المتعرقة والتي استمسكت بها حتى آخر خُطوة داخل الغرفة.

ران عليهما صمتٌ مطبق ليتنحنح الجد ويتبع نحنحته بسعال شديد أثار قلق «جميلة» خوفًا عليه، فبالرغم من صرامته وحزمه إلا إنه أحن عليها من أبويها.

دار حوار طويل بينهما شهدت عليه الجدران، حوار كان به من الذكريات الكثير، ومن المستقبل الأكثر.

الجد الذي حافظ على العائلة طوال حياته حاميًا راعياً قبل أن يكون مسيطرًا مهيمنًا، الجد الذي يريد لاسم العائلة أن يبقي عزيزاً غالياً، ولسيرتها أن تظل طيّبة عاطرة، ولأفرادها أن يكونوا سُعداء وفي أحسن حال.

لكنّ لم يعرف إنسان ما دار بينهما من حديث.

توسّم فيها الجد خيراً وهكذا كانت، نِعم الحفيدة، حفظت السر وصانت العهد، ووفّت بالوعد؛لتنال حب الجد، ومن قبله احترامه.

لتُدفن كلمات الجد في أعماق حفيدته، ووعد بالتزام الأوامر حرفياً وفقط بلا جدال.

***

جمعهما لقاء لترتيب مراسم الزفاف، كان الجو مشحوناً، الكلمات مترددة، الشفاه مرتعشة، نظراته تحمل تهديد خفي، تُرى أجبروه على الزواج مثلي؟

تُرى في حياته فتاة أخرى؟ ما هذا السد المنيع بيني وبينه؟

ظلت تُحدّث نفسها شاردة في أفكارها.

دار بينهما حوار مقتضب لم يتعد السؤال عن أحوال كل منهما.

***

ليلة الحناء حيث الاستعداد للزفاف وإقامة الأفراح، الزغاريد في كل مكان، «جميلة» كانت ترتدي ثوباً حريرياً بلون البنفسج الذي تعشقه، وشقيقات «يحيى» كل منهن بثوب غاية في الجمال والرقة.

في المساء قدِمت النساء إلى بيت «البغدادلي» للتهنئة ومشاركة الفرحة، واجتمع الرجال أمام الدار في صِوان كبير أُعِدّ لتلك المناسبة خصيصاً.

تعالت عبارات التهاني للعروسين والدعاء لهما من الجميع.

كانت صواني الطعام الممتلئة بالثريد وقطع اللحم والمرقة تتتالى على القاعات،ومعها أطباق السلطة الخضراء، وصحون جانبية بها صلصة حمراء، وبعض الهريسة.

كانت زينة «جميلة» خفيفة هادئة وقد تركت شعرها الأسود الغجري الطويل وراء ظهرها فزادها فتنة على فتنتها.

كانت «وِصال» تحث الجميع على أكل الطعام وتقدم العصائر والمياه وما تفتأ تقرأ في سرها الرقية والمعوذتين مخافة عيون النساء.

توافدت الجموع على بيت «البغدادلي»، ما يكاد البيت يفرغ حتى يمتلأ مرة أخرى، وبدأت طقوس الحناء؛ أسبتة من الخوص مغلفة بقماش الساتان والحرير المطرز تمتلئ بعُلب الحلوى والشيكولاتة والمكسرات، توزع على الجميع.

ثم توقد الشموع وتُغرز في وعاء الحناء المعجونة بماء الورد، الفتيات يتهافتن لتخضيب أيدي العروس وأيديهن بالحناء، وعلى الجانب الآخر تقوم سيدة نوبية بنقش الحناء على كفوف الفتيات الراغبات في ذلك.

كانت رائحة الحناء زكية، والليلة كلها كانت ممتعة بلا تكلف.

***

زفافٌ أسطوري يليق بعائلة «البغدادي» امتلأت الساحات في أنحاء الواحة بالزينة وعناقيد الأنوار ورُصّت الموائد العامرة لأهل الواحة في كل مكان.

غطت المصابيح الملونة الصغيرة واجهة المنزل وتكاثفت الأنوار أمام الشرفات وفي المداخل،الفتيات اجتمعن في ساحة المنزل يرقصن ويغنين أهازيج الأفراح.

سُرادق كبير تلألأت فيه الأنوار وصدحت الأغاني عبر مكبرات الصوت، الأطفال والشباب يتراقصون على أنغام الموسيقى الشعبية.

الزغاريد تعلو وتملأ جنبات المكان، الجدة «يامنة» تردد الأهازيج الصعيدية التقليدية، لتردد ورائها فتيات العائلة ومعهن «حُسْنة» و«وِصال».

تقدّمت «هاجر» -أخت العريس- لتشد وِشاح «حُسنة» وتعقده على خصرها فتتمايل على نغمات الطبلة ودق الكفوف.

«ياولد ياولد تو طبلك ماضرب

ايواااااااا

ياولد ياولد الغز بانوا على العرب

ايوااااااا

والفرحة بيحيى تطلب

والعزة جاية ياعرب

ورجال الواحة ماتضرب

ايواااااااا

ايوااااااا

ايوااااااا

والله لاغنيلك يا يحيى يا غالي

والله لأغنيلك يا العريس ياغالي

وعالي عالي عالي

وعريسنا ف العلالي

عالي عالي عالي

وجميلة قمر الليالي

القصب يالقصب والقصب عايزماية يا واد»

استمرت الاحتفالات حتى ساعات الصباح الأولى.

مراسم الزفاف تسير بكل دقة، حفل ضخم حضره عِلية القوم من المسئولين وكبار رجال الأعمال، كان وحده في وادٍ غير واديهم، خطوات تفصلهما، ولكنه يشعر أن المسافة بينهما آلاف الأميال!

كيف سيعيش بقية عمره مع هذا الكائن!؟ بالكاد يتذكر ملامحها، ثم كيف بِنتاج مشترك لعاصم وحسنة؟

تعالت أصوات الزغاريد أكثر وأكثر وتقدم المباركون تباعاً يهنئون ويحتفلون.

«العروسة وصلت»

صاحت بها «حُسنة» في فخر وتيه بابنتها التي بدت كملاك صغير.

لم يرها سوى مرّات قليلة ولم يحادثها إلا مرّات أقل، كانت رقيقة جميلة، الدم يضرج وجنتيها احمراراً وخجلاً، جمال سخي يبرزه ثوب زفاف رائع.

يتلقى التهنئة من الجميع.

لم ترفع عينيها ليرى لونهما، ولكنه بُهِر ببجمالها وبساطتها! توترها مشروع كعروس في ليلة زفافها، تخشى الحياة الجديدة وتهابها، أضف إلى ذلك ما صاحب الزيجة من غموض وعلامات استفهام كثيرة.

تقدمت في خجل تقبّل يد الجد والجدة وأتبعتهم بعناق طويل لوالدتها ووالدها، ودّعتهم بسيل من الدموع الغزيرة.

توالت الدعوات والمباركات وتمنيات بالسعادة والهناء.

بسط يده إليها فتقدّمت على استحياء واضعة كفها في كفه الممدودة، ثوبها الأبيض الضيق عند خصرها يبرز مفاتنها ثم ينساب واسعاً منفوشاً في روعة وجمال.

تعلقت بذراعه وكأنما استغنت به عن العالم كله.

كلاهما يحمل مشاعر مختلفة، خُطوات مرتبكة، طمأنه صوت جده ونظرات جدته ودعوات عمته «وِصال».

القلق في عيون «سندس» امتزج بالفرحة والسعادة، فأقبل نحوها أمسك يدها فضمّت كفه بكلتا يديها.

ربّتت على كتفه بحنان، وتنهدت وهي تطبع قبلة عميقة على جبينه.

لم يعش طفولته ولم يستمتع بصباه، وهاهو شبابه يُسلب منه سلباً.

شعر أنه شاخ قبل الأوان، لا سبيل للخلاص من أوامر «البغدادي» فهي نافذة قهراً.

قاطعت أفكاره وهي تهمس:

- مالك؟

أشاح بوجهه بعيدًا وهو يُفكر بحياته معها، نظراتها القلقة أشعلت حنيناً وأحيت أملا مفقوداً، ربما يستطيعا التواصل يوماً ما !

تقدمها قليلاً وهو يرى ترددها، دخلت فأغلق الباب.

لم يجد كلاماً يتلفظ به فتصنع الانشغال بهاتفه النقال، قطعت حبل الصمت الممتد لتهمس بخجل وبنبرة ودودة:

- هتتعشى دلوقتي؟

كسر حدة التوتر بمرح مصطنع

- بسرعة أنا جعان جداً.

تحركت بخفة، وتحرك بدوره تجاه النافذة، لتعود به الذكريات وحديث جده قبل الزفاف، لم يستطع يومها رد طلبه وهو الذي عاش عمره كله يطيع أوامره، فكيف وهو في آخر عمره؟

***

الصقر رمز العزة والشموخ؛ الصقر من الطيور الجارحة التي تتغذى على لحوم ودماء فريستها، وعادة ما يعيش في المناطق البعيدة عن البشر، كالغابات والمناطق الجبلية،

والصقور من الطيور القوية تُطعِم صغارها الضعفاء لصغارها الأقوياء، وهذا لأنها لا تعترف بالضعف ولا تريد مواليد ضعفاء، يقولون: - وربما ادعاء لا صحة له - الصقر؛ عندما يبلغ الأربعين تُصبح مخالبه واهنة، ومنقاره ضعيف، وتُصبح أجنحته أثقل من وزن جسده؛ وهذا ما يجعله غير قادرعلى الإمساك بفريسته، وفي هذه الفترة يكون للصقر إختيارين فقط؛ إما أن يستسلم وينتظر الموت شيئًا فشيئًا، أو يجدد نفسه ويصبح شابًا من جديد ويعيش لمدة أربعين سنة أأخر، وفي هذه الحالة يلجأ الصقر إلى عشه أعلى

الجبل ويقوم بكسر منقاره في الصخور ويكسر مخالبه أيضًا، كما أنه يقوم بنتف ريشه كله وينتظر حتى ينمو من جديد وتنمو مخالبه ومنقاره، ويبقى الصقر في هذه المعاناة لمدة ١٥٠ يومًا؛ أي ما يقرب من خمسة أشهر، وبعد ذلك إما أن ينجو أو يموت.

فغر «يحيى» فاه وهو يتلقى تلك المعلومات محدثاً نفسه، «ربما هرطقة من مروجي علوم التنمية البشرية».

اقترب منه وهمس في أذنه:

– ولو ياولد احنا البغدادية صقور الصعيد.

عاد من ذكرياته مع جده على صوت ساحر ووجه بشوش، ابتسامتها الرائعة اخترقت قلبه.

رفعت عينيها لتواجهه نظراتها ثم أخفضتهما وقد تلونت خدودها بحُمرة الخجل.

فركت يديها بقوة تستمد ثباتاً ضائعاً، لاحظ اضطرابها فأراد تهدئتها قليلاً طالبها بثبات وحنو ممرراً رجاء حارًا:

– اتوضي عشان نصلي ركعتين.

خلعت نعليها واستجابت لطلبه بسرعة وامتنان.

***

تتسارع أحداث حياتنا أو تتباطأ، تنازع هسيس الليل وضجيج الصباح، بعض الأحلام شرارات تحثنا على استكمال المسير، تُضيء لنا عتمة الطريق، تخطفنا من الواقع المحتدم، تربت على أوجاعنا، تستر عورات روحنا، حين ارتدينا تلك الأقنعة لنواجه العالم وكنا نكابر؛ لأننا رغم صمودنا كنا أكثر هشاشة من أي وقت مضى.

ثمة جِراح نظن أننا تعافينا منها تماماً، نسيناها وتناسيناها، نُحدث أنفسنا دائماً أننا اجتزناها وبقوة، وأنها لم تعد تؤلمنا كذي قبل.

نظن أننا ألقينا بها في المحيط، أو رميناها في غيابات الجُب، أو تركناها على قارعة الطريق، حتى إذا اصطدمنا بجرح جديد؛ نكأ علينا كل جراحاتنا السابقة، ووضعنا أمام الحقيقة التي طالما أنكرناها بل ونفيناها تماماً، فعاودت كل الجِراح استصراخنا وإيلامنا بقسوة وشراسة لتنزف من جديد.

***

كانت تمسك المصحف بعد الصلاة، تتلو آياته بعيونها فقط فتزداد عيونها وهجاً، ويُشرق وجهها بنور الإيمان. «سندسته الطيبة».

تذكرت حين قرأ عليها ذات مرة « حسن» بعض خواطره:

ثم إنك لا تعرف ما يعنيه أن يحب

الرجل الصعيدي؟؟

الصعيدي

لا يعرف الحب ..لا يعرف البكاء..لا يعرف الخضوع والاستسلام.

الصعيدي جبهته مرفوعه ..كلمته مسموعة ..أفعاله موزونة.

الصعيدي لا يسلم قلبه لامرأة ولا يعطي عقله لها ولا ينساق خلف أنثى فتقوده للهاوية.

لكن الحقيقة التي أخفاها ..واليقين الذي طواه في جعبته جعله ينكر ما تفصح عنه الشمس بوضوح، هو يحب وهو يدرك ذلك جيدًا.

...

وهو يعلم أن الرجل الصعيدي حين يُحب، يقتلع قلبه من صدره ويضعه في حجر محبوبته ويمضي بين الناس قاسياً بلا قلب.. كحجر صِوان لا يلين. كقطعة حديد لا تنصهر، يبدو متحجراً لا يعرف الحنان، لا يتنازَل عن رأيه ولا يقبل المقايضة عليه، لا يرضخ لأحد ولا يرجع في كلمته فهي سيف على رقبته.

الصعيدي رجل غير كل الرجال حين يحب. حين يعود مساءً إلى امرأته يسترد نبضه، ويستريح بين ضلوعها ، كرضيع أُلقم ثدي أمه بعد ساعات جوع وصراخ.. كجندي عاد من أرض المعركة لأحضان عائلته بعد أن ذهب بلا وداع.

الصعيدي بشر، لكن طبيعته مختلفة.

اتسعت ابتسامة «سندس» وزوجها يحادثها عن جذوره وأصوله الصعيدية.

***

حُزمة نور هزيلة تتسلل عبر مصباح في غرفته الباردة فتلقي ظلالها على مكتبه الخشبي المتهالك، فنجان قهوته المهمل وكوب الماء البارد، يبتلعه كتاب ذو ورقات صفراء لا يكاد يرفع عينيه عنه.

الصبر أنّى له به؟

الطاعنون في الصبر يدركون معنى اليقين.

الطاعنون في الغدر لا يعرفون طعم الراحة، متعبون هم دائماً بغلهم، مرهقون بحقدهم، أما الطاعنون في الهزيمة؛ فلا أمل منهم، ذرهم وتوكل على الله، فسينبت الله من يأسهم نصرًا قريباً.

كانت تلك المقدمة.

طواها «إبراهيم» ووضع الكتاب جانباً. شبّك يديه خلف رأسه وأسندها ملقيًا بجذعه للخلف قليلًا.

عاد إلى الوراء وذكريات الواحة، وكيف كانت أيام طفولته وصباه وشبابه هناك.

فهو الابن الأوسط للشيخ «شيخون» الشقيق الأصغر لـ«عبد اللطيف»، ذكريات الماضي القريب تتسلل عبر نبضات قلبه، تذكر كيف غرس فيهم أبوهم الذي كان يُعد من كبار رجالات الواحة؛ حب الخير وخدمة الناس ونشر الدعوة إلى الله بأخلاقهم وتعاملاتهم، حتى صار بيت "الشيخ شيخون" قِبلة الضال ومأوى الحيران.

كان اليد البيضاء الطاهرة التي يُقسم بها أهل الواحة لطهرها وسخائها على الجميع، يلجأ إليه كل مكروب أو صاحب مشكلة أعيته السبل فيجد لديه من الحكمة والعقل والمنطق الكثير، ومن العطاء ما هو أكثر بكثير. ترتسم على قسماته الهيبة والوقار.

بخطوات واثبة أسرع إبراهيم داخل المسجد حيث موعد حلقة الأربعاء الإسبوعية عقب صلاة العشاء، للرقائق التي يلقيها «الشيخ شيخون».

مرتبكاً تقدم ببطء من والده الذي رمقه بطرف خفي وأكمل حديثه عن مراتب الإيمان قائلًا:

كما عرفنا إذا مراتب الإيمان:

الإسلام.

الإيمان.

الإحسان.

أما أركان الإيمان فهي:

١-الإيمان بالله

٢-وملائكته

٣-وكتبه

٤-ورسله

٥-واليوم الآخر

٦-وبالقدر خيره وشره

وأعلى مراتب الإيمان: هو الإحسان.

الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

واختتم حديثه بالسلام.

عاد من ذكرياته ليُقبل على والده مقبّلًا يده، بينما لاحظ الأخير ارتباكه فبادره:

- خير يا ولدي؟

أجاب متلعثماً:

- واحد زميلي اتصل عليا وقاللي انهم سألوا على «فارس».

أمسك بذراعه وقبضه قبضة شديدة:

- وفارس وين عاد ياولدي؟

أسرع مطمئنا:

- ماتخافش يابوي فارس في إسكندرية مع زملاته بيرتبوا للمعرض بتاعهم.

تنهد بعمق وأمره محذرًا:

- اتصل عليه يجي على هنا ومايعاودش على الجامعة اليومين دول لحد مانشوف أخرتها معاهم.

- هز رأسه، حاضر يابوي.

انصرف إبراهيم تاركاً والده يغوص في بحر من الخوف والقلق.

وعلى مائدة الطعام تحلق الجميع الطاولة حول الفطير الشهي الذي صنعته «وصال» الابنة الكبري للشيخ شيخون رمز العفة والطهارة والعقل، تزوجت ابن عمها «حسين عبداللطيف البغدادي» لم تنجب منه ولكنها كانت الأم الحقيقية لكل أبنائه بل وأبناء البغدادية.

الشيخ شيخون سارحًا، لم يمد يده إلى الطعام، لاحظته «وصال» فنادته مشفقة عليه:

- سيبها على الله يابوي ما ضاقت إلا وفرجت.

لفهم الصمت للحظات.

أليس التاريخ يُكتب في الكتب وتقرؤه الأجيال عبر الصور؟ لا، تلك معلومات خاطئة وأفكار مغلوطة، التاريخ الحقيقي هو الوعي الإنساني بأبعاد قضاياه المختلفة، فما هو مرسوم بحروف في صفحات الكتب لا يعدو كونه حروف مبهمة تحتمل آلاف المعاني، بل قد يصاحبها شك في كاتبها ومدى صدقه ومصداقيته لذا وجب علينا أن نورث أبنائنا تاريخ الآباء والأجداد.

***

«هاجر حسين عبداللطيف البغدادي»

طالبة بكلية العلوم.

الحالة الاجتماعية: آنسة.

كشف عن نواجذه الصفراء بابتسامة ساخرة مردداً وهو يقذف ببطاقة هويتها لتفترش التراب كصاحبتها، قائلا بصوت أجش:

- أشهد يابوي أشهد.

شد بنطاله رافعًا السحّاب ليغلقه كما أغلق جريمته البشعة للتو.

فتّش محتويات حقيبتها ليجد حُزمة من الأوراق المالية التي أثارت لعابه فدسها في جيبه وقذف بالحقيبة بعيدًا ليعود أدراجه ويقفز في سيارته ويبتعد عن المكان، بل عن البلدة تماماً.

مرت ساعات وهي فاقدة الوعي تماماً، حتى سمعت صوت أقدام تقترب منها، ووجوه تمعن النظر إليها.

اتسعت أحداقهما وقد هالهما ما رأيا! أربعة أقدام؛ لشاب ورجل امتدت سواعدهما لها يغطيان ما انكشف من عورتها ويعيدان حجاب رأسها إلى مكانه.

آلمتهم الجراح النازفة في ذراعيها ووجهها، فكا وثاق يديها وقدميها ونزعا رباط فمها الموثق بإحكام.

خلع الرجل عباءته الصوفية ليدثرها بها وامتدت يد الشاب القوية تحملها، ورنا إليها أصوات هامسة قادمة من بعيد:

-اجري بسرعة يا «أيمن» ياولدي نادم على محمود ولد أبواسماعين ننقل البنية بعربيته المستشفي.

استجاب «أيمن» بإشارة متفهمة ووضع جسدها الغائب عن الوعي بين يدي عمه «حسان» وجمع متعلقاتها ليقع نظره على بطاقة الهُوية المُلقاة، قرأ الاسم سريعًا، لكن المفاجأة ألجمت لسانه. ركض نحو القرية بينما الرجل يحملها بين ذراعيه ويسير بها في نفس الاتجاه على أمل التلاقِ عند أقرب نقطة.

دقائق معدودة ووصلت السيارة ليركب الثلاثة؛ الرجل يحملها، والشاب يحمل متعلقاتها، والسائق مذهول وقد أفقدته المفاجأة النطق فلم يعقب سوى بتمتمات حوقلة واستغفار.

***

خيالات كوابيس مرعبة تمر في عقلها المشوش سريعاً لحادثة بشعة، فتقفز في فراشها تصرخ وتصرخ ولا يسكتها سوى مصل مهدئ لتنام وتتعاقب الصور أمامها من جديد.

امتحان آخر مادة عقبه اختبار عملي، وكانت تجربتها طويلة ومعقدة لم تتمكن من إنهائها إلا بعد عدة ساعات.

لتفاجئ أن جميع صديقاتها قد رحلن حتى السيارة التي يستأجرونها لم تجدها ربما ملوا الانتظار وغادروا، وربما ظنوا أنها عادت إلى قريتها مع أخيها؛ فدائماً يأتي ليقلها بسيارته.

اليوم فقط تخلى عنها الجميع، دب الرعب في أوصالها وهي ترى الجامعة خاوية على عروشها إلا من بعض العاملين فيها.

سارت بخطوات وجلة بجوار سور الجامعة أخرجت هاتفها النقال وضغطت لتطلب «يحيى».

رن الهاتف ليجيب بسرعة عليها وقد استبد به القلق.

-هاجر انتِ فين اتأخرتي ليه؟

-أيوه يا اخوي أنا لسه مخلصة الامتحان حالا وخرجت من الجامعة وهاركب....

ولم تكد تكمل كلمتها حتى فرغت بطارية الهاتف، لتكتمل خيوط المأساة.

لعنت الهاتف والبطارية وألقت به في حقيبتها بعد أن حاولت إعادة تشغيله أكثر من مرة وفشلت،نظرت حولها فلم تجد أحد تعرفه.

وجدت حافلة قادمة أشارت لها بسرعة وكأنها طوق نجاة تتعلق به توقفت لتركب، فانزعجت لأنها وجدتها فارغة تماماً، كانت تركب وحدها.

حاولت العودة مشيرة للسائق أن توقف، فلم يستجب وانطلق بأقصى سرعة.

***

-٢-

المسارات عديدة، والوجهات مختلفة، فهل سيكون لزاماً علينا سبر الأغوار وفهم الأسرار؟

وإلى متى سنظل نحاول فك الطلاسم وحل الأحاجي؟

والبحث عن طريقنا وقد تشابهت الدروب وتشابكت علامات السير، فمتى سنستمسك بعُرى الوثاق ونسمح لقلوبنا بكشف الأستار وخرق الحجب وعبور الحدود؟

القلب الذي عاش عمره ممسكاً بتلابيب الحنين لم يفلته.

فلتطمئن ما دمت أحسنت السُكنى والرفقة والضيافة، ستجد من يحملك على محجة الحب ويدثرك برداء الأمان.

طال وجومها وامتد حبل الصمت طويلًا فما حدث لم يتوقعه أحد ولو في أسوأ الكوابيس،

لتتنهد «وصال» مُتمتمة بكلمات هادئة ربما تسكن ثورة قلبها وجنون عقلها:

- لعله خير قدر الله وما شاء فعل.

لكن المرارة احتلت شفتيها، ففي مثل هذا الوقت من كل عام ومع هلال العيد تذكرت «وصال» كيف كان يستعد كل من بالدار للعيد، وتبدأ الفتيات في تزيين دار «البغدادلي» بينما بنات حسين كن دائماً يملأن الدار بهجة وأنساً.

«هاجر» الإبنة الكبرى.

«رقية»

«فاطمة»

«كلثوم»

تعد «وصال» مع «حُسْنة» «الفايش الصعيدي» والكعك بعد أن خبزوا «العيش الشمسي» - وهو خبز صعيدي يعجن ويكون سميكًا ويُترك مصفوفًا في الشمس فترة حتى يختمر-.

المنزل يتكون من ثلاثة طوابق وملحق إضافي للضيوف وحديقة واسعة، الطابق الأرضي؛ للخدم والمطبخ الكبير وبهو كبير ثم عدة غرف على جانبي ردهة طويلة غرفة الجد بجوارها غرفة الجدة وغرفة "يحيى" بجوارهما وحجرة كبيرة للأعمال المكتبية الخاصة بالعمل .

الطابق الأول لبنات حسين وقد رحل الأب وتبعته الأم بعدها بشهور قليلة.

الطابق الثاني لحسنة وعاصم.

الطابق الثالث تم تجهيزه ليحيى وعروسه.

وبنيت عدة طوابق أخرى لباقي العائلة.

فأبناء البغدادي لا يخرجون من داره ولا يحيدون عن مساره.

بنات حسين سيتزوجن ويعشن في كنفه وتحت رعايته، هذه أوامر «البغدادي» وهي واجبة النفاذ.

«رقية» طالبة بكلية الآداب متمردة على الواحة وقبلها على قوانين «البغدادي».

«فاطمة» تدرس بكلية الطب.

«كلثوم» طالبة في الثانوية العامة.

لا تستندوا على الدنيا فهي آيلة للسقوط، ولا تتورطوا فيها فهي سيئة السمعة، كونوا على حرف لتستقم.

***

سرعة متهورة قاد بها سيارته التي كانت تلتهم الطريق ليضغط بعنف على دواسة البنزين ممررًا غضبه وحنقه. كان قد بلغ أوج ثورته.

الزمن يمر ببطء والصمت كارثة بينها الكلام وصمة عار.

كانت بين موت وموت، سرير منفرد في حجرة واسعة أرضيتها باردة تحتلها إضاءة ضعيفة

فراش يضم جسد معزول عن الحياة.

أنفاس هادئة ووعي شبه مغيب بفعل مهدئ.

«وصال» تجلس عند رأسها، دخل الطبيب ليقطع الصمت الذي احتل المكان أشار بطرف عينيه للمرضة لتخبرهم أن موعد الكشف الدوري قد حان آوانه.

تحركت «وصال» بتردد لتبتعد قليلاً فأحست بها هاجر، فقد فقدت دفئها، فتحت عينيها ببطء تجاهد لتفرق جفنيها الملتصقين بإحكام.

صرخت حين رأت الطبيب وبكت بكاء هستيرياً، عادت على الفور وصال لتضمها إلى صدرها محاولة تهدئتها وأخذت تربت على ظهرها وتمسد رأسها، تتلو عليها الرقية وآيات القرآن.

خرج الطبيب وقد أشار إلى الممرضة بإعطائها حقنة مهدئة.

سحب يحيى من ذراعه ليهمس له بقلق:

- هي في صدمة نفسية وانهيار عصبي حاد كتبت لها مهدئ هتنام فترة طويلة، لكن لازم نعرضها على طبيب أمراض نفسية وعصبية.

تابع الطبيب بحزم :

- وبسرعة .

لم يمتلك ردًا سوى انصياع باستجابة وهزة رأس موافقة.

وضياع في عينين عرفت مبكراً معنى القهر، النيران تأكل صدره فهي أخته شرفه وعرضه،الدماء الصعيدية تغلي في عروقه، جريمة شرف تستحق القتل.

المصائب تتوالى عليه تباعاً كل واحدة أقسى من أختها، انقبض قلبه وظل يضرب الجدار بقوة ضربات متتاليات.

لم يدر بنفسه إلا وكف تلتقط كفه تمسكها بقوة تمنعها عن الضرب وتكفها عن العذاب والألم، إنها جميلة، همست:

- بكفياك يا يحيى بكفياك، الصبر ياخوي ماتحملش نفسك فوق طاقتها.

التقت عيونهما لتفاجئ بالدموع تملأ عينيه، كانت تراقب بحسرة الألم المغروس فيهما، أشاح بوجهه بعيداً فابتلعت غُصتها وحسرتها.

يود لو يمحي ذاكرته ويتخلص منها تماماً، فيلقها في محيط لكنها كانت تركض خلفه، تهاجمه طوال الوقت ليقول بكبرياء خادع:

- جدي صاحي؟

هزت رأسها بالإيجاب.

خطوات ثقيلة لا تكاد تمر، توجه نحو باب حجرته. طرقات خفيفة ليلج نحوه ويفاجأ به.

لم يكد ينطق حتى هاله انكساره وحسرته وهو الرجل الذي اعتاد الصعاب وتعود الاتزان والثبات مهما استفحلت المشكلات، إلا تلك كانت القاصمة لظهره.

ضغط على نواجذه وقد امتلأت عينيه بنظرات غل وحقد وكأنما يستعد للانتقام العنيف.

بالأمس حين داهمهم الخبر كان جده كليث مذبوح، غاضب ثائر.

واجه «يحيى» بعينين مستعرتين وهو يخبط رأسه بكفه:

- يا فضيحتنا وسط البلد كيف حصل دا وميتى ومين واكل ناسه اللي اتجرأ علينا.

هدأه يحيى بوعد صادق:

- والله ما هيبات في فرشته الليلة ياجد.

أمسك الجد بذراعه متمنياً تحقيق رجاءه:

- عرفتوا هو مين ياولدي؟.

كان «يحيى» فورعلمه بما حدث قد أرسل بعض الرجال لتحري الأمر ومعرفة سائقي «الميكروباص» وإحضار أسماؤهم وعناوينهم.

- أنا مستني الرجالة يا جد وهتحرك على طول.

نظر جده نظرة طويلة في عينيه ليأمره بثبات وحزم:

- عايزه اهنيه واوعاك تقتله قبل ما أشوفه.

مر الليل ليكشف الصباح عن عجز ووهن أصاب القلوب والعقول، العقول التي تأبى التحرر وتستسلم للقيود في احتيال بذيء على العواطف والأحاسيس، ليلحق العار بالأنثى أياً كان الخطأ وأياً كان المخطئ وأياً كانت الظروف والملابسات، وفي كل الأحوال هي من تدفع الثمن وهي من تتحمل كلفة الأمر، ولو كان الثمن حياتها!

فهي ميتة بكل الأحوال، بنظر المجتمع والأعراف والتقاليد هي خاطئة.

***

انشقت السماء برعد يزلزل جنبات الأرض وبرق يكاد يخطف الأبصار وانهمرت الأمطار، زخات متعاقبة حتى رزحت الواحة في موجة صقيع قاسية فصارت الأراضي موحلة رطبة.

كل شيء صامت بالبيت؛ الجدران، الأواني، اللوحات ،إلا أنفاسه المتقطعة .أما هي فقد تحولت إلى قطعة من قطع الأثاث.

تضم ثيابه إلى صدرها بحنان، تجمع ملابسه وتمسدها بلطف وإن كانت خالية منه، عاجزة هي عن منحه حنانها، مجبرة على الوقوف بعيدًا وعدم الاقتراب.

شعرت بخطواته تقترب منها وأنفاسه تكاد تلفح وجهها، تلعثمت بارتباك، تركها وغادر بلا كلمة، تكومت في الفراش تنشج ببكاء مكتوم.

الأنثى التي احتار فيها الشعراء والفلاسفة؛ رقة جمالاً، عذوبة ودلالاً، التي تأسرك بضعف فطري، أو تجعلك تلهث خلفها لقوتها، أو التي تسحرك بغنجها ودلالها.

فركت جبينها بأسى ويأس.

أرجفتها الفكرة فحاولت الهروب منها إلى النوم لكن صوت عمتها «وصال» أيقظها وهي تنادي:

– جميلة.

هبت من فراشها وقامت تفتح لها الباب.

- مرحب بيكي يا عمة طمنيني عليها كيفها وكيف صحتها؟

ردت بجمود يداري مشاعرها:

-الحمد لله يابتي قدّر ولطف.

***

انتظرها حتى تنهي صلاتها ثم اقترب منها ليجلس جوارها على الأرض ويهمس بود:

- تقبل الله يا جدة.

أجابته بصوت حنون:

- منا ومنكم يا ولدي.

أمسك كفها يقبلها بحنان:

- طمنيني على صحتك يا غالية.

هزت رأسها برضا وحمدت ربها ثم لمحت بها يقض مضجعها:

- هي عاملة ايه يا ولدي؟

تأملت شروده بقلق وأمسكت كفه وهي تطلب منه في رجاء:

- بدي أشوفها يا وليدي بدي أطمن عليها.

هتف بعطف :

- حاضر يا جدتي حاضر على عيني.

تأوهت وهي تهتف بألم:

-الله ينتقم منه اللي كان السبب.

قلبها يكاد ينفطر عليها وكل المخاوف تحتل رأسها.

***

وحين تشرق الشمس إشراقة صيف جريئة، أو لمسة شتاء محتشمة، أرواح تغيب، نفوس ترحل أعمال ترفع، وأعمار تقبض، نوايا تتجدد، آمال تحيا، همم تشحذ، وعطايا تتدفق، ونعيش عمرًا فى خوف على اشياء نملكها.. خوفًا أن تضيع وأشياء لا نملكها.. خوفًا أن لا تأتى..

ما أبشع الخوف فى الحالتين!

***

تهبط الدرج بوجوم لتقابله في وجهها إنه «إبراهيم ابن الشيخ شيخون».

ابتسم يحييها:

-كيف حالك يا رقية؟

ازدردت ريقها بصعوبة لتجيبه بوهن:

-الحمد لله بخير.

«رُقية» التي تعرفها الواحة بجمالها وحُسنها ملكة متوجة في قلب «إبراهيم».

لمح دمعة في عيونها حاولت مداراتها فاحترق صدره.

لا يملك ما يواسيها به، فالكلمات هنا لا محل لها ولا معنى.

أشارت إليه ليمر سائلا عن عمه فدعته للدخول، وقد طوت في نفسها خزي وهوان باديًا للعيان.

-جدي بالقاعة اتفضل.

تنحنح قبل أن يتوجه لمجلس عمه ليلقي على سمعها عبارات الشكر والامتنان، لطالما أحبها في صمت، يرتجف قلبه حين يُذكر اسمها أمامه، أما حين تمر فيشعر بدوار حتى صار مادة للتندر من قبل شقيقاتها اللاتي لاحظن ما يعتريه؛ كلماته المتلعثمة، ارتجافة أصابعه وهو يتناول منها أي شيء، حتى بسمته المترددة بين شغف وحياء. كل ما فيه يحبها، كل ما فيه يعشقها بصمت.

لكنه ذات مرة لمّح لوالده برغبته في الارتباط بها، فما كان منه سوى الترحيب مع بعض النصح بالتريث حتى تنتهي الامتحانات ويتقدم لخطبتها في عطلة الصيف.

أما هي؛ ففي وادٍ آخر، تفر من كل ما يربطها بالعائلة، تكره قوانين الواحة، تمقت تقاليدها لكنها مضطرة للتعايش حتى يحدث الله أمراً.

أقبل نحوها ليهمس بلهفة ممتزجة بحنان وخوف:

- خليكي قوية زي ما عرفتك دايماً يا رُقية.

التفتت نحوه بملامح مضطربة وقبل أن تفتح باب القاعة بأصابع مرتجفة تحولت نظراتها إلى جزع لتجيب بألم:

-الله المستعان.

نقل بصره بتوتر إلى داخل القاعة بينما تقف هي جامدة وكأنما فقدت حواسها.

***

ندرك أن ما يمر بنا وينغص حياتنا هو بعض أعمالنا ردت إلينا.. وأننا ندفع الثمن. حتى ذاك الحنين، ما هو إلا كفارة لحظات سعيدة عشناها، وجاء وقت دفع حسابها. وتُخبرنا الأيام أن الجروح قصاص، وان الحياة دوّارة.. تقف عندك لتمارس معك ما مارسته مع غيرك...فلا تثق بها.

***

«دكتور رائف» طبيب الأسنان الذي قضى عمره كله متنقلًا بين البلدان العربية وخاصة الخليج يلهث وراء المال، يجمعه، يكنزه، يرسله إلى زوجته تضعه في حسابات بنكية متضخمة بكافة العملات. ناهيك عن العقارات والأراضي. زوجته «دلال» لم تنجب له الذكر ومنّ الله عليهما بأربعة فتيات.

الكبرى «علا» مريضة بضمور العضلات والتأخر العقلي فالجسد يكبر ببطء، أما العقل؛ فتوقف عند السنة السادسة من عمرها، حتى بعد كل المراجعات الطبية والسفر للخارج لم تفلح تلك المحاولات بتقدم ملموس.

«أمل» الإبنة الثانية لدكتور «رائف» أتمت دراستها الجامعية بكلية «لألسن» وتزوجت من جارٍ لهم.

«أماني» خريجة كلية «التجارة»، ورثت عن أبيها شهوة جمع المال، تزوجت من أحدهم زواجاً تقليدياً، حرصت فيه على جمع أكبر قدر من المكاسب.

الأخيرة «سندس»؛ الرقيقة الطيبة التي تزوجت زميل دراستها «حسن».

رغم معارضة أمها وتهديدات والدها لورود أنباء عن عائلة حسن وجبروتها وقسوتها وعلمهم عدم رضاهم عن تلك الزيجة.

قاطعها الجميع، حتى والدتها كانت تطمئن عليها من بعيد عن طريق بعض صديقاتها، لتختفي فجأة بعد موت زوجها بعامين.

مددت «دلال» قدميها المجهدتين على كرسي صغير أمامها بعد أن فردت ظهرها وأسندت رأسها إلى الخلف مغمضة عينيها لتتداعى الذكريات في عقلها.

وكيف أصر د.رائف أن يكتب ثروته لبناته بعد قدومه من السفر وانهاء تعاقداته هناك.

عارضته «دلال» بشدة محذرة له من سخط الله عليهم وعقوبة محاربة شريعته، لكنه رفض الإنصات لها قائلاً بحنق:

- والله ما هخلي اخواتي يورثوا مني قرش أحمر.

تنهدت «دلال» بحسرة وأمسكت بجوالها تطلب محاميها ليجد لها مخرجاً من المأزق الذي وضعتها فيه ابنتها «أماني» وبمعاونة «أمل» أيضاً.

رد المحامي بأدب جمّ:

- مرحباً دلال هانم تحت أمر حضرتك يافندم.

سارعت «دلال» تقص عليه ما حدث:

- شوف يا أستاذ أحمد أمل وأماني اتفقوا يحطوا اختهم علا في مصحة ويرموني في دار مسنين عشان يبيعوا الشقة والأرض ومزرعة الشرقية.

تنهدت لتداري تهدج صوتها فقد أوشكت على الانهيار والبكاء، لكنها تماسكت وأكملت:

- هما صارحوني برغبتهم والحجة المزعومة إنهم خايفين عليا أنا وعلا من الشغالين ومن الناس، طبعاً أنا متأكدة من سوء نيتهم ورفضت بشدة وطردتهم امبارح بس خايفة يتهوروا ويعملوا أي تصرف مُشين، فأيه رأي حضرتك أتصرف ازاي معاهم.

رد «أحمد» باستياء:

- لا حول ولا قوة إلا بالله ربنا يهديهم، أنا هرتب ميعاد معاهم عشان نتفاهم وأحاول بعد إذن حضرتك نراضيهم بأي مبلغ.

ردت دلال مستنكرة:

- أنت بتقول إيه يا أستاذ أحمد، دول خدوا نصيبهم وزيادة غير فلوس أختهم سندس اللي قسموهم على بعض غير البلاوي اللي لطشوها من ورايا، دول مايملاش عينهم إلا التراب.

محاولاً اقناعها والتأثير عليها بكلمات قليلة متزنة:

- مفيش حل تاني وإلا هيفضلوا يقرفوا فيكم وممكن يتصرفوا بغباء ويرفعوا عليكِ قضية حجر.

فزعت «دلال» وهتفت صارخة:

- حجر؟ دي أخرتها بعد العمر والشقا دا كله.

وانخرطت في بكاء مرير منهية حديثها معه بجملة واحدة.

- اللي تشوفه صح اعمله، حسبي الله ونعم الوكيل،عليك العوض ومنك العوض يا رب.

وضع الهاتف وعلامات الانتصار والفرحة على محياه فهو من دبر وخطط لكل هذا بطلب من الأختين ووعد بمكافأة مالية كبيرة إن نجح في مهمته.

***

-٣-

يقولون النسيان نعمة وبقدر ما هو مؤلم إلا أننا نحاول الوصول إليه، لا بمحو الذكريات فهو أمر مستحيل، بل حين نجعل الأمر اعتياديًا لا نتوقف عنده ولا نبالغ في تفصيله وتحليله.

لا نبكي عليه، لا نتحدث عنه، ندعه يمر ولا نبالي، حين تمر بدرب اخترته بكامل إرادتك، أول خطوة عبور فيه، ثم تابعت السير بصمود، وتدرك أخيراً أنه فرض عليك وأن الجميع احتال عليك، وأنك لم تختر شيئاً، لكنك مجبر على استكمال المسير.

حتى أصبح الأمر قسرياً كقدر لا فِكاك منه، مضطراً أن تكمله كما رُسم لك.

جلس منهاراً على كرسيه يفكر ما الذي حدث لعائلة «البغدادي» وكيف آل حالها لهذا المصير!؟

مضت يضع دقائق وقد جلس «إبراهيم» بجواره صامتاً

ضم قيضته بقوة ثم أغلق عينيه في ألم.

همس بخفوت: -كيفك يا عمي؟

ظل «البغدادي» صامتاً، صمت يسبق هبوب العاصفة التي تنذر بالكوارث، وبعينيه غضب مكتوم ثم قال بصرامة:

- العار ركبنا يا إبراهيم هنبقوا معيرة وسط البلد.

ثم تابع بجزع ووهن:

- يا فضيحة البغدادية.

هتف «إبراهيم» مستنكرًا:

-ماتقولش اكده يا عم ربنا مايجيبش فضايح قدر ولطف.

سأله عمه مستفهماً علّه يجد لديه ما يشفي غليله ويبرد نار صدره:

- ماقابلتش يحيى يا ولدي وعرفت عمل إيه؟

تردد قليلاً وأجاب بحذر:

- اطمن يا عمي، يحيى اتصل بيا وقاللي انهم عرفوا الكلب اللي عمل اكديه

جز على أسنانه وأكمل:

وقاللي إن الرجالة جابوه وحبسوه في المخزن.

وقف الحاج «عبداللطيف البغدادي» وانتصبت قامته فها هو على بُعد خطوات من رد اعتباره والثأر لشرفه وعرض حفيدته.

أشار لابن أخيه ليتحرك معه تجاه المخازن، لكن إبراهيم استوقفه ليقول:

_اصبر شوية يا عم، أبوي ويحيى زمانهم جايين هما على وصول.

وقف لا يبرح مكانه وكله عزم وإصرار على إنهاء الأمر.

تململ وهو يأمر «إبراهيم» بالاتصال بهما كي يحضرا سريعاً، أمسك إبراهيم بجواله ليضغط أزراره باسم والده ليترامى لسمعهما صوت نغمة هاتفه، ويدخل من باب الحجرة محيياً الجميع، إنه الشيخ شيخون.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ترددت الهمهمات بإجابة السلام لتضم صوت يحيى الذي وصل للتو.

نظرة واحدة تدرك سر العلاقة المضطربة بينهما.

لطالما كانا على خلاف، فهما الشيء ونقيضه، كل منهما يسبح في اتجاه عكس الآخر.

شيخون بطيبته وورعه وزهده، الحافظ لكتاب الله، المقيم لشعائره، العامل على نشر دينه،لا مطامع لديه في ثروة أو سلطة أو نفوذ، كل ما يسعى إليه رضا ربه وفقط.

على العكس تماماً ..

عبداللطيف القاسي المتسلط الصلب،لا تهمه المشاعر، فقط يطمح في النفوذ والسلطة والسيطرة على الجميع.

تفقد شيخون أخاه بكلمات مطمئنّاً عليه، ونظرة حانية حملت نبرة مواسية:

-كيف حالك يا اخوي قلبي عندك يا واد أبوي، ماتحملش هم أنا وولادي تحت رجليك واللي تأمر بيه هننفذوه طوّالي المهم اهدى واستعن

بالله ولا تجزع، إنما الصبر عند الصدمة الأولى، وماتنساش قوله تعالى:﴿ ولا تيأسوا من روح الله﴾أهم حاجة يا خوي نتصرف بعقل وحكمة بلاش تهور.

تنهد بحسرة وكأنما مسّ كلامه جراحاً نازفة ليضيف:

- وكفيانا نخالفوا شرع الله ف كل أزمة نقابلوها.

ازدرد ريقه بصعوبة، ذلك الواقف بعيداً كتمثال قُدّ من حجر صوان.

ليبتر حديثًا ليس على هواه ويقول بلهجة صارمة:

- بالله عليك تنقطنا بسكاتك يا عم الشيخ بزيادة علينا البلاوي اللي حدانا ماناقصاكش عاد يا شيخون.

تدخل يحبى ملطفاً الأجواء بينهما فقد بلغت الأمور حداً بعيداً من التوتر ليقول بلهجة قاطعة:

- المهم نعرفوا دلوقتي الحيوان دا وراه حد ولا عمل عملته السودة دي لحاله.

وافقه إبراهيم الرأي مضيفًا:

- معاك حق يا يحبى لازمن نعرفوا مين وراه؟

غادر الجميع نحو مخازن العائلة؛ ليكشفوا سر ما حدث ويزيلوا غموض تلك الحادثة، مضوا في طريقهم وجميعهم يحملون مشاعر غضب كبير وحقد عظيم،لكن كل منهم كان يحمل ضميراً مختلفاً وطريقة مخالفة للخروج من تلك الأزمة.

مكبلاً بالقيود على كرسي خشبي جبينه يتفصد عرقاً، زاغت نظراته

محتجز في زاوية غرفة ملحقة بمكان مُعد لتخزين الغلال، ظل يصرخ، يبكي، ويهذي.

كان «يحيى» عاقداً حاجبيه توجه نحوه بخطى ثابتة وقد التمع الغضب في عينيه هادرًا.

ابتعد عنه رجلان كانا يحاولان معرفة خبيئته وقد سقطت من أحدهما مدية كان يُلوّح بها في وجهه ليزداد هلعًا ورعبًا .

تقدّم أيضًا إبراهيم وبصحبته والده الذي أصرّ على التواجد علّه يكون صوت العقل وضمير الحاضر فلا تُرتَكب حماقة، أو تقع جريمة قتل تحت مظلة رد الشرف والثأر للعرض.

فقد قال شيخون كلمته، وأدلى برأيه الذى استشفه من الشرع.

وتلك جريمة يُعاقِب عليها القانون، فبتسليم المجرم للشرطة يُصبح الأمر مستساغاً أما إن أخذ كل واحد ثأره بيده فسنُصبح في غابة.

تقدّم «عبداللطيف البغدادي» من الرجل المُحْكم وِثاقه، نظر إليه نظرة طويلة متفحصة ليواجه عينيه بقسوة محاولاً ضبط غضبه ليلكزه بعصاه بقوة:

- اسمك ايه يا واد؟

ارتجف مِن هيبة مَن سأله، فقد لاحظ توقير الجميع له وطاعته إذ ابتعدوا جميعًا بإشارة من يده لتكون المواجهة ثنائية ولتتم في غاية السرية.

ما بين الحاضر والذكريات عدة تفاصيل صغيرة، أحداث وددنا لو بترناها.

بين الأمس واليوم أفكار تراودنا، تحرّرت من قيودها لتقع في قيود أشدُّ قسوة، قيود لم نتوقعها، ولم نتخيلها أبداً، إنها قيود الحنين.

***

آثر «الشيخ شيخون» البقاء مع أخيه هذه الليلة، فهو لن يتركه يتخذ قراراً قد يندم عليه بقية عمره.

وحين أدركنا سر قوتنا؛ كان انتصاراً رائعاً، أن نفعل ما نريد فلا يُملي أحدٌ علينا اختياراتنا، أن ننسحب قبل أن تُغلق الأبواب في وجوهنا، أن نصمت قبل أن تصدمنا ثورة كلامهم، أن نُدرك ما سيُقال قبل أن يُنطق.

مرّ إبراهيم بالبهو الكبير في طريقه للخارج واجتاز الباب ليجدها في ركن الحديقة، تجلس شاردة تنظر في الفراغ ثم تعود فتدفن وجهها بين كفيها.

المفترقات كثيرة في الحب، مئات الاختيارات، وفي كل مرة نختار الطريق الخطأ! فقط؛ لأنه يجمعنا معاً.

ونقبل بنهاية غامضة مبهمة، فقط لأنها تحمل ظلالنا معاً.

ونسكن أرضاً غير أرضنا، فقط لأنها حملت يوماً خطواتنا معاً.

ثم نقف أخيراً على حافة الانهيار.

توقف للحظات يراقبها بعينين ملتاعتين، يتمزق قلبه حسرة عليها، جلس جوارها وهو يهمس بتفهم:

- رُقية.

انتبهت لوجوده، فرأى في عينيها خوفاً وحزناً،ارتبكت ثم همست بخفوت وخشونة:

- عايز حاجة يا إبراهيم؟

جلس على الأريكة المقابلة لها ليتحدث بخفوت:

- أنا عارف إن الوقت مش مناسب لأي حديت، بس صدقيني يا رقية أنا عايز أكون جنبك، عايز أكون أمانك وحمايتك.

وأكمل بحنان يذيب الحجر:

- وقلبي هيكون حضنك ودفاكي دا إذا وافقتي بعد ما تعدي الأزمة دي على خير.

احتل الفراغ بينهما صمتٌ كبير، لكن عيناها غامتا، وتأرجحت مشاعرها بين خوفٍ وشغف، فذلك الحب الذي سيربطها بالواحة يبعث على الخوف.

تصلّبت نظراتها، فهي بين شقي رحى، لكن ليس أمامها سوى هروب أو استسلام.

ترددت لكنه أصرّ،دون وعي شبكت أصابعها، فتلك عادة مصاحبة لها حال توترها.

تابع إبراهيم بأريحية ناعمة وكأنما أزاح ثقلاً عن صدره:

-ماتخافيش مني يا رقية، عمري ما هأذيكي ولا هجبرك على شيء انتي رافضاه.

تخلل صوتها حنين وشغف لترد بنعومة طاغية:

- بلاش يا إبراهيم نخوض التجربة دي، أنا مش قدها وكلنا متوترين وبصراحة دلوقتي أنا مش مستعدة خالص.

كانت عفويتها البريئة بمثابة شرارة أشعلت فؤاده ليبتر هواجسها تماماً.

- ماقلناش دلوقتي يا رقية، ولا هحدد أي ميعاد إلا لما يكون برضاكي وموافقتك.

تلعثمت مرة أخرى، فهي غير قادرة على مراوغته وهي التي تجيد هذا الأمر وتتفنن فيه، لكنها تلجلجت في حروفها لتخرج الكلمات مبهمة:

- بلاش...بلاش يا إبراهيم تض.. تخلي.. تخلين.. تخليني .....

توترت لهجته وجنحت إلى الغضب ليرد بانفعال محموم وقد جرحت كبرياؤه تواً:

- أنا مقادرش أفهم في ايه؟

وبمزيد من ثورة ععشقه وجرح فؤاده يتابع:

- في حد تاني ؟

ردّت بسرعة مستنكرة سؤاله لتبتر الفكرة من أساسها:

- لأ طبعاً، بس أنا مش هقدر...

تعثّرت الكلمات على لسانها لكنها أضافت بابتسامة:

- ممكن نأجل الكلام في الموضوع دا شوية؟

هزّ رأسه موافقاً.

سكتت وفي السكوت إبهام وإيهام يحمل في طيّاته كل شيء، وتركها ليمضي، لكن جرحاً بكبريائه أحدثه رفضها ظل ينزف بلا هوادة ولا رحمة.

***

في تَرِكة الحب؛ أعطِ كل ذي حقٍ حقه، وتفضل.

أمّا حصاد الكره؛ فيحرق الأخضر واليابس، دعها فإنها مُهلكة.

وحيداً في غرفة مكتبه يقضي الساعات، أطفأ الأنوار بينما تسلل ضوء القمر عبر النافذة، جالساً على كرسيه الدّوار، يدور به يميناً ويساراً والأفكار تعيث في رأسه، لا يستطيع الفِكاك منها كدوامة ابتلعته ولا سبيل للفرار.

تعلّق قلبها به حدّ العشق، عشق جارف لا تستطيع السيطرة عليه.

بينما هو يتجاهلها تمامًا، بل إنها تشعر أنه لا يكاد يراها، وقفت تراقبه، تتطلع إليه غير ذات بعيد، مبهورة به، مشفقة عليه، متيّمة به، طوقته بنظرة حنونة.

خفق قلبها بشدة وهي تشعر برغبة عارمة في أن تضمه إلى صدرها، تهدهده كطفل صغير، رجفة سرت في خلاياها، مزيج هائل من المشاعر يجتاحها لا تعرف كنهه!

عشق:

لأول رجل في حياتها وأول حب عرفته، بل أول خفقة بين ضلوعها تخرج عن السياق كانت له.

شفقة:

على رجل تحمّل ما لا يطيقه بشر، مسئولية عائلة وتجارة وسُلطة، ثم فضيحة وخسارات متتالية.

ذنب:

لأن والديها لهما ضلع كبير في مأساته وما آلت اليه الأمور.

قلق:

تُدرك هي بمشاعر الأنثى أن حياتها معه على شفا انهيار إن لم يكن غداً فبعد غدٍ.

قطع شرودها بصوت متعثّر في بقايا ألمه ليرتسم على شفتيه تعبير مرير بتره على الفور بنظرة قاتمة ونبرة جامدة:

- فوتيني لحالي يا جميلة.

ترددت قليلًا لكنها استجابت له لتبتعد خُطوات قليلة وقبل أن تُغلق باب الحجرة، يترامى لها صوت نشيجه الباكي.

لمحته يخبط رأسه في الجدار بقوة؛ ليوقف عبث الأفكار في رأسه فتنبثق منها الدماء!

كان يهذي، يصرخ، ينتفض، ثم انفجر.

فأغلقت الباب بسرعة احتراماً لهيبته وخصوصية اللحظة التي تأبى أن يراه مخلوق بهذا الوضع وان كانت زوجته. وكيف ينكشف أمامها وتتعرى روحه وقد سقط في ضعفه واحتياجه فلم يملك سوى الهروب؟

فكيف ينظر الرجل في عيني امرأة شاهدت سقوطه، وكيف يضمها صدر رأت لوعته؟

وهل ينتصب أمامها شامخًا مَن بات حسيراً منكسراً!؟

وكيف لمن كان في عنفوانه وقوته أن يواجه امرأته وقد بكى أمام نناظريها، وسقطت دموعه حارقة لفؤادها؟

***

ليس كل ما يمر بنا نتذكره، وليس كل ما يحدث لنا نعلن عنه ونتفوه به، ولا كل ما يوجعنا ويؤلمنا نستطيع البوح به.

تبقى بعض الأشياء طي الكتمان.

فتلك القلوب الممتلئة بالعتب، والكلمات المؤجلة، والمشاعر المتأرجحة، وما كنا نود البوح به وعجزنا؛ أدركنا أنها غير ذات معنى، وقد فات أوانها فابتلعناها وغرقنا في صمتٍ طويل.

بدأت ملامحها تعود لسابق عهدها، وقد بدأت الكدمات تزول ويخف تورمها، كما بدأت الجروح تلتئم، إلا جرح الروح فلا دواء له.

عيناها زائغتان، لا تعبير فيهما، لا تنظر إلى أحد، بل إلى الفراغ شاردة.

حين استفاقت في صبيحة هذا اليوم دخلت في نشيج باكٍ لا يتوقف.

سمعها «يحيى» فزفر زفرة محمومة وضمّ قبضته بغضب مكتوم، عاجز هو عن كل شيء.

زفرة يائسة في وجه الطبيب ليواجهه «يحيى» بنفاذ صبر:

- هي ليه معايزاش تنطق؟؟

حاول الطبيب تهدئته:

- دي حالة مؤقتة.

صوتها محبوس، تحبسه بإرادتها، فحولها الكون باهت فارغ لا شيء فيه يستحق الحياة.

زاغ بصرها مجدداً في لا وعي مبهم قبل أن يحقنها الطبيب بحقنة أخرى مهدئة كفصل راحة مؤقت.

سأله يحيى بجزع:

- وأخرتها ايه يا دكتور؟

فأجابه الطبيب بروتينية وتفهم:

- الاكتئاب اللي عندها أدى إلى رفض الكلام، هي تقدر تتكلم، بس هي بترفض تتكلم، لأنها بترفض كل شيء حصل، بترفض تعترف باللي حصل، فعادة المريض بيلجأ للسكوت أو الخرس بإرادته عشان يهرب من الواقع اللي مش قادر يقوله أو يتكلم عنه، وبالتالي هي بترفض الكلام والأكل والشرب، ثم تابع بحزم.. وبترفض الحياة.

هتف «يحيى» بغضب:

- أومال ايه لازمة الدكتورة النفسية وبتعمل ايه عاد لما هيا وصلت للمرحلة دي؟

كان يحيى ثائراً على كل شيء وأولهم الضحية «هاجر».

كان يتمنى أن تستفيق وتعود لطبيعتها حتى يتمكن من سحق رأسها، هدأ قليلاً بعد أن رأى الطبيب متفهماً لثورته، مطمئناً له، مراعياً لظروفه وملابسات الموقف.

- يا يحيى اهدى من فضلك، أختك ماهاش ذنب في اللي حصل، واللي بيحصلها دلوقتي ملهاش إرادة فيه دا رد فعل لانهيار عصبي حاد واكتئاب، أرجوك تقدر الموقف.

نظراته اللائمة لها على الرغم من انفصالها عن العالم شيء لمسه الجميع.

مضى الطبيب، ليتقدم شاب منه يسأله عن «هاجر».

صُعِق «يحيى»،ومنَ يكون هذا أيضًا؟

بنبرة خافتة أجابه عن سؤال ألمح به بنظرة عينه ولم يفصح به لسانه بعد:

_ أنا «أيمن»، من جيرانكم في بيت أبو اسماعين، اللي.. اللي.. اللي...

وتوقفت الكلمات ليبترها يحيى برد صلد يحمل بين طياته نزق محموم:

- أهلاً وسهلًا يا أستاذ أيمن، إحنا متشكرين قوي لشهامتك.

ثم أردف بلهجة باردة:

- وما كانلوش داعي تيجي وتعطل مصالحك يا بوي.

فتحت «وصال» الباب وقد سمعت الحوار فحاولت تهدئة الأمور بنظرة لائمة معاتبة ليحيى، هتفت:

- جرى ايه يا يحيى أستاذ أيمن ضيفنا يا ولدي، وكتر خيره على عمله وشهامته فوق راسنا، ومجيته كبيرة قوي عندينا.

ابتسم أيمن خجلاً بعد أن تمنى منذ قليل أن تنشق الأرض وتبتلعه، لكن كلمات وصال أعادت الدماء لعروقه بعد أن هربت من صلف يحيي وجموده.

ردّ أيمن ممتناً شاكراً:

- لا شكر على واجب يا عمة، ربنا يطمنكم عليها وتقوم بالسلامة إن شاء الله.

شعر يحيى بتأنيب ضمير إزاء مشاعر نبيلة من شاب يبدو على خُلق، لكنه لا يريد أي شيء يذكّره بعاره بل يريد وأد الأمر كله، ولو استطاع لوأدها ووأده معها.

عاد إلى رشده بعد حماقة أفكاره، ليشكر الشاب مرة أخرى ولكن هذه المرة من القلب، بودٍ وامتنان.

دار حديث بين ثلاثتهم؛ يحيى وأيمن ووِصال، ليكتشفوا كما اكتشف أيمن أثناء الحادثة أن «هاجر» زميلته في الجامعة، وأنه يعرفها بأدبها وحيائها والتزامها، كما يعرفها الجميع.

دارت حوارات كثيرة بينهم حول الجامعة والواحة وكل شيء عدا الحادثة، فهو أمر يهرب الجميع منه. ويفرون منه فرارًا.

ارتاح يحيى للشاب وانشرح صدره بالحديث معه، وتبادلا أرقام الهواتف على وعد باتصال يعقبه لقاء آخر.

رحل أيمن تاركاً يحيى يغوص في تخميناته وتحليلاته، ليُفاجأ بضابط شرطة يتقدم منه يسأله عن حالتها، وهل سيتمكن من عرض بعض صور المشتبه بهم عليها؟

لكنّ يحيى لم يدع له مجالاً لأي رد، إذ بتر طلبه برد صلف جامد:

- هي فاقدة الوعي، بتفوق دقايق وترجع تغيب عن الدنيا.

رد الضابط:

- طب ممكن لما تفوق توريها الصور دي؟

ثار يحيى في وجهه مستنكراً طلبه:

- محدناش بنات بتتعرف على صور مجرمين يا باشا.

جز الضابط على أسنانه ليجيبه بنبرة مُتفهمة:

- أنا فاهم حساسية الموقف، بس صدقني دا في صالحكم وصالحنا، عشان المجرم مايفلتش من العقاب.

وكأنما فتح جرحًا حاول مراراً مداراته ليجيب بصورة قاطعة.

- هي ماتعرفش حد يا باشا.

تنهد بأسى وأسف، وقبل أن يرحل ترك الصور له ومضى.

بَرُأت جروح جسدها، أما جِراح روحها فلم تبرأ بعد..

صرّح لهم الطبيب باستكمال العلاج في المنزل، بعد إصرار مِن يحيى أن يرحلوا، وقد كتب إقراراً على نفسه بتحمُل المسئولية.

سخِر مِن محتوى ما يوقع عليه؛ فهو دائمًا وأبداً مَن يتحمل المسئولية، ومَن غيره يستطيع تحمُّلِها؟

لكل تضحية ثمن، وهو قد دفع الثمن مقدمًا مِن عمره.

الجد كان في قمة غضبه، وقد أقسم أنها لن ترى النور مرة أخرى، فرض عليها جدران غرفة ومنع عنها كل شيء!

الهاتف، الكُتُب، التلفاز، لا شيء في الحجرة سوى فِراش بارد.

وضعها كوصمة عار لا بد أن تُمحى أو تختفي!

بكت وصال، ترجته أن يسمح لها أن تُقيم عندها، لكنه رفض، كما رفض أن تلازمها وصال في غرفتها، بل وأقسم إن غادرت حجرتها ليقتلنّها!

«حُسنة» كانت تُشاهد الأمر من بعيد بملامح جامدة ولا تتدخل، فلم يرق قلبها لابنة أخيها ولم ترأف بحالها.

الوحيدة التي استطاعت مرافقتها هي الجدة «يامنة» ولم يجد الجد وسيلة لتخليها عن رغبتها، فوافق على مضض.

أما يحيى فقد غامت نظرته بتعبير لا يمكن البوح به، إنه... قهر الرجال.

تكومت هاجرعلى الفراش بجسدها تضم ركبتيها إلى صدرها، وحين تمل تتكوم على الأرض لتراقب الفراش، تسمح لدمعة حزينة بالهطول على وجنتها، فتسقط دمعة أخرى.

دارت عيناها بما حولها ليتوالى هطول الدموع بانهمار، فلم تعد تملك السيطرة عليها بين نظرة حزن نادمة، وأخرى بائسة آسفة، وبين عبرات مختبئة، انفطرت لها القلوب.

ترمي برأسها للخلف مستندة إلى إطار باب الشرفة الجانبي، ضوء الشمس الذي يتسلل عبر النافذة ليلقي بظلاله داخل الحجرة هو أنيسها، وذاك الفِراش الذي يبتل بدموعها قهراً وظلماً كل ليلة هو جليسها.

بعض البشر يأتون ويرحلون، جدتها تقيم معها تُكثر الصلاة والقيام، تقرأ عليها الأدعية وترقيها على الدوام، تقص عليها حكايا الزمن البعيد، بينما هي في وادٍ غير واديهم.

لم تتركها وصال أيضًا، كانت تتحايل على قسَم عمها بالبقاء في بيت البغدادلي طوال اليوم، وجُل يومها مع هاجر، ثم ترحل مساءً لتبيت في دار والدها الشيخ شيخون. وأخوات هاجر لا يبرحن حجرتها، يسرين عنها.

«جميلة» تلك النسمة الرقيقة وبلسم العائلة بحق، كانت تخدم الجميع الصغير والكبير كفراشة تدور في جنبات الدار.

كما تشاركت هي وسندس في حب يحيى، تقاسمتا حديثاً بالعيون لا يتوقف، فقلق سندس عليه يكاد يقتلها.

***

الخمر الذي يتلاعب برأسه كل ليلة من ليالي المُجون التي يحياها عاصم، تشاركه تفاصيلها كل مرة امرأة مختلفة؛ ليغيب عقله ويسبح في خيالاته منفصلاً عن الواقع طوعاً، ليعود مترنحاً تتمايل خطاه.

كان مستيقظاً في شرفته سمع وقع أقدامه المتعثرة، وصل إلى مسامعه شجار يدور بينهما، وهمهمات، وجد نفسه يتتبع الصوت بحذر.

أرجع رأسه إلى الوراء زافراً بحنق وغيظ مكتوم، وهبط درجات السلم وهو يشعر بانسحاب الحياة من عروقه رويدًا رويدًا.

مالت عيناه إلى صاحب الصوت الخشن ورمقه متفحصاً بنظرة مشمئزة، لترتد نظرته بحدة صقر جريح إلى من كانت تحادثه وتتشاجر معه.

ظل ينقل بصره بينهما ويعلو وجهه احتقار بادٍ للعيان.

ظلت «حُسنة» متصلبة تماماً، وكأن الزمن توقف بثلاثتهم!

عاصم الشِبه مُغيّب، عيناه متحجرتان توازيان سكون الموقف الظاهري، وهياجه وثورته التي لم تبدُ بعد.

أمّا «جميلة»؛ فقد استشعرت غيابه، كانت تتفقده لتُفاجأ بباب المنزل مفتوحاً! وقفت تطل برأسها تستطلع الأمر من بعيد، كفاصلة منسيّة في طيّات حديث لم يبدأ بعد.

تصلبا هما، وقسا هو قسوة اختزنها تحت جلده وعبر عروقه التي يسري فيها دماء تجمعهم جميعاً، لكنّه كان يُدرك حقدهما ويفطن إلى مكرهما.

وأخيراً، استمع بأذنه إلى صفاقتهما وحماقتهما.

خُطوة بطيئة تجاه عاصم، تلتها خُطوة أبطأ ليمسك بفكه حتى كاد يسحقه، وصبّ على مسامعه جملة قذفها دفعة واحدة:

- يا أخي أنا اتحملتك أكتر من اللازم ولساك عاد خبيث ولسانك زالف حتى على شرفي وعرضي يا جبان! لو سمعتك بتجيب سيرة أختي تاني هقطع رقبتك مش لسانك يا خسيس.

انتفض عاصم بغضب وثار لتنتفخ أوداجه محاولاً فكّ قيد قبضة يحيى عن فكه ليدفعه بعيداً مُردداً بلهجة مستهزئة وأعلى شفتيه ابتسامة ماكرة:

_هههههه أختك؟

وقبل أن يُكمل تدخلت «حُسنة» لتزج بزوجها داخل منزلهما باترة حديثاً لم يكد يُنطَق.

- معلهش يا يحيى معلش يا واد أخوي دا سكران ماعرفش بيقول ايه.

لكنّ يحيى أراد إلقاء الأمر برمته أمامها ليحمّلها وِزر ما حدث:

– هو سكران وماعارفش بيقول ايه، وانتي يا عمة كيف تتحدتي اكده عن بت أخوكي!

حاولت أن ترد لكنّه قاطعها بكلمة واحدة مُنهياً الحوار برمته:

– ماتزعليش عاد م اللي هيحصل.

ورحل، صعد وتركها تضرب أخماساً في أسداس، لا تعرف ماذا يقصد، ربما يلمّح لعلاقته بابنتها وزواج فُرِضَ عليه فرضاً؟

لكنها محت الفكرة من رأسها؛ فلن يسمح له جده بطلاقها.

ربما شك في ....

أغلقت الباب ودخلت تسترجع كل كلمة قيلت منذ قليل تحللها، ربما تصل إلى فهم عبارة ابن أخيها.

وعند مقدمة الدَّرَج اصطدمت عيناه بها! تقف مبهوتة مما حدث، نظراتها تحمل خجلاً وخزياً، لا لوماً وعتاباً وهذا ما آلمه بشدة.

فما ذنبها تلك المِسكينة أن يكونا والديها بتلك البشاعة؟!

كانت خائفة وجلة فقد استنتجت من جملته الأخيرة أنها ستكون ورقة ضغط وسلاح ردع في تلك المعركة، رمقها دون حِراك لبضعة ثوانٍ، ثم اجتازها ليندس في فراشه دون كلمة واحدة.

***

فرك صدغيه بتعب وهو يتفاوض معهم على مقابل أتعابه في تلك الصفقة المُشينة، كان قصير القامة ضئيل الجسد ضيّق العينين.

سحبت «أماني» سلسلة مفاتيحها ونظارتها الشمسية وهمّت بالانسحاب مهدِّدَة إياه بعدم الدفع، فقد كانت بارعة في الأمور المالية، خاصّة الصفقات والمفاوضات.

زفر زفرة مستسلمة لها، فقد تغلبت على مكره وتفوقت على خِسّته.

- خلاص تمام يا أستاذة أماني، أنا موافق على المبلغ دا بس لازم تكوني عارفة إنك اتشطرتي عليا أوي.

ارتخت ملامحها وأعادت كل شيء إلى مكانه وعادت تجلس بأريحية على المقعد وعلى شفتيها ابتسامة نصر كبيرة لترد بثقة:

- اطلبلنا قهوة بقا أنا صدعت منك.

ثم أردفت بجدية وهي تنظر لأختها «أمل» حتى تُشركها في الأمر:

- ها الخطوة الجاية ايه يا أستاذ أحمد؟

جلس ثلاثتهم يُخططون ويدبرون، بينما تقف الأم عاجزة عن فعل شيء، تشعر «دلال» أنها في كابوس مُخيف..

أهؤلاء بناتي!؟

كيف وصلنْ لتلك الدرجة من القسوة؟

ماذا فعَلتُ، وأي إثم ارتكبته ليعاقبني الله في أعز ما أملك... في بناتي؟

إحساس مُذبذب بين العتب والاستنكار، كانت تدور حوله لتلقي نظرة على ابنتها «علا»، تهز أقدامها بحركة منتظمة، عيناها لا تمتلكا أي تعبير، كانت تحادثها طويلاً دون أن تتلقى أي رد سوى بعض الهمهمات.

حركت «علا» رأسها تجاه والدتها، كانت ملامحها الطفولية البريئة جميلة وناعمة، خُصلات شعرها الذهبية تجعل ابتسامتها مُشرقة، شفتين رفيعتين، وعينين بندقيتا اللون، وبشَرة صافية نقية.

هما يُقيمان معاً في شقة فخمة مكونة من طابقين.

نافذة عريضة في غرفة «علا» تحتّل ثلث مساحة جِدار الغرفة التي امتلأت بألعاب الأطفال والأرائك ذات الألوان المبهجة.

تقيم خادمة معهم بصورة دائمة، وهي سيدة بسيطة من إحدى قرى الصعيد، وينضم إليها صباحًا «سليم» الطباخ وابنته «سلمى» التي تساعده وتساعد «أم صبحي» الخادمة في عملها، ويرحلون آخر النهار.

تتأمل "علا" قطة الجيران عبر شرفتها، بينما تحاول يائسة الوصول إلى سور الشرفة لمتابعتها، جذبتها أمها بهدوء وأعادتها إلى مجلسها، وعادت تُكمِل قراءة الصحف وبجانبها فنجان قهوتها الصباحي.

سألتها «أم صبحي» على استحياء عن قائمة الغداء حتى يبدأ «سليم» في تجهيزها، وكانت تُدرك أيضًا بخلفية وجودها معها منذ سنوات عديدة؛ حزنها وبؤسها، فكانت لا تطيل في طلب رد بل تكتفي بهزة رأس تفهماً

للموقف وتقديرًا للظروف، وهو ما حدث توًا إذ لم تحصل منها على أية إجابة سوى إشارة بيدها بعدم الرغبة بشيء.

ما يجعلها تتشبث بالحياة هو ابنتها المريضة واحتياجها لها، والأخرى المختفية، ورغبتها في العثور عليها.

***

-٤-

حينما تتعثر في طريقك يضنيك الوجع وينهكك التعب، يضطرب قلبك، تهيج حناياك، تتبعثر الأشياء داخلك.

مشاعرك متضاربة، أحاسيسك متناقضة، وحده الإيمان قادر على ترتيب فوضاك.

حدثها «الشيخ شيخون» عن الثقة بالله واليقين في رد المظالم، حدثها عن رحمة الله وعدله وحكمته من وراء كل حدث.

كانت لقاءات طويلة أكثر من مرة يجتمع بها، يقرأ عليها بعض آيات كتاب الله ثم يرقيها، يحصنها ويتلو الأذكار. فقد باتت تتجرع غُصص النّدم وبدا على وجهها الضياع، كانت هشّة إلى حد بعيد، نظراتها الحزينة تثير شفقة الجميع. تنتفض كل حين على كابوسها المعتاد، نظراتهم التي تقتلها ما بين شفقة وحسرة، واجمة هي تفكر، فقد كثُر اللغو حولها وطالتها أحاديث ونميمة البعض، وأولهم خدم الدار وهم يتغامزون عليها ويتناقلون أخبارًا كاذبة عنها مع بعض نساء البلدة، حتى أنهم أشاعوا أنها حامل!

فزعت حين وصل الخبر إلى مسامعها، ذرفت عبرات الذل والهوان على فضيحتها، تهالكت هاجر أرضاً، وقد نأتّ بخزيها وضعفها ليضرب عليها الجميع الذلة والمهانة، ولتبوء بغضبهم وحنقهم ولتضيق عليها الأرض بما رحبت ولتظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، بعدها بدت هادئة ولم تلتفت إلى مَن

ظنت أنه اغتابها؛ فقد فقدت الحكايا الشغف وصارت بائسة أركانها، لكنها قررت المُضي قدماً فيما عزمت عليه.

مر يومان وقد أجمعت أمرها، توضأت بثبات ويقين لتفرد سجادة صلاتها في ذات موضع قهرها وظلمها، تشكو إلى ربها ظلم البشر، تدعوه علّه يعفو ويغفر لها، انصاعت لأوامر عائلتها، لكنّها بدأت تستعيد ثقتها بنفسها، صرفت عن نفسها العنت وشدت عزيمتها واستوثقت من صلابتها وقررت أن تواجه الجميع، وأولهم «يحيى» وجدها.

لكن من حضر هو الأول؛ هو من يتفقدها كل حين مرة سائلاً ومرة مطمئنا، مرة معاتبًا ومرات مشفقًا.

كانت عيناه تستحلفانها أن تنطق بعدما طال صمتها، وهاهي بدأت تتحدث بكلمات قليلة، وانتظر هو أن تبدأ هي بالحديث.

ظل يراقبها بتلهف لسماع صوتها، فقد اشتاق إلى حروفها ونبراتها، وقد أخبرته «وصال» أنها بدأت تتحدث قليلاً.

رفعت عينيها هامسة بصوت ضعيف:

- يحيى..

كان ينظر إليها وكأن الكون كله قد توقف في هذه اللحظة، لم تكن خائفة منه أبدًا فهي تعرفه جيداً برغم جموده وصلابته الظاهرية إلا أنه يحمل قلب طفل صغير، كانت فقط خجلى من الموقف الذي وُضِعت فيه.

حاولت النهوض لتشرب كوب ماء كان بجانبها فاقترب منها ليسند رأسها على ذراعيه بحنان، سقاها الماء رغم تحسّنها وقدرتها على فعل ذلك بنفسها إلا أنه كان مشفقًا عليها، فكم من مرة جلس بجوارها أثناء غيبوبتها وانعزالها عن العالم،كان يمسّد شعرها بحنان، يفرك كفيها محاولاً تنبيهها، لطالما مسح جبينها وأزال قطرات العرق المتناثرة عليه، هي بالنهاية أخته، قطعة من فؤاده وإن تنازعته العصبية واشتعلت دماء الجنوب في عروقه، إلا أنه يعود كاظماً غيظه مشفقاً على رحِمه، راحمًا ضعفها وعجزها وقلة حيلتها.

أمارات الاستفهام بدت كثيرة على محياه مما دفعها للحديث حتى تبدد مخاوفه.

- أنت عارف يا يحيى قد إيه أنا محافظة على نفسي وبراعي ربنا في كل تصرفاتي، عمري ما لبست حاجة مش محترمة ولا اتحدت مع راجل غريب إلا في حدود الأدب والذوق، وعمر ما كان ليا علاقة بأي مخلوق وأقسم بالله يا أخوي عمر ما راجل دخل حياتي ولا فكرت ف مخلوق واصل.

ظل مطرقًا رأسه إلى الأرض وهو يستمع لحديثها، كل ما قالته وأكثر هو يعرفه جيدًا بل ويثق في طهارتها وبرائتها، ليس هذا ما أراد سماعه أبداً، هز رأسه موافقاً على كلامها وأردف:

- يا بت أبوي بتقولي ايه عاد؟ واه.. حديتك كلاته عارفه وحافضه ومتأكد منيه، اللي عايز أعرفه يا هاجر في حد وز الحيوان دا عليكي؟ في حد متقصدك وعايز يأذيكي؟ ليكي عداوة مع حد من زملاتك ولا مدرسينك ولا صحباتك؟.

أنهى أسئلته وقد بدأ يتفرس ملامحها، وأمام أسئلته الكثيرة لم تملك سوى إجابة واحدة سريعة ومقتضبة:

- ماعرفاش.

سكتت قليلاً ثم أضافت:

- بس أني ماعرفش حد عايز يأذيني وعمري ما أذيت حد ولا افتريت على حد ولا ليا عداوة مع حد يا يحيى.

قابضاً على جمر الحروف أرسل لها تساؤلاً:

- حصل ايه طيب؟

كانت حروفه موجعة حارقة، تثقب قلبها لتغوص في أعماقها، تهرب من نظراته لتبدأ الحكاية، حروفها قوية ثابتة بعكس ما ظن، وبقدر ما دعت ربها ليلهمها الثبات.

هي صاحبة حق، مجني عليها ليست جانية فلِمَ يعاملونها هكذا؟ هي التي ظُلمت وغُدر بها، انتُهك عرضها وضاع شرفها، لا، لم يضع!!

فهي لم تفرط فيه بإرادتها، كان جاثوماً، بل كان لعنة مزّقتها، سكين انغرس في آدميتها وذُبح به أنوثتها.

ضمها بين جناحيه والتقط حديثها ثم رحل عنها إلى المخزن.

كان «إبراهيم» بانتظاره عند الباب بعد أن هاتفه «يحيى» وطلب حضوره، فقد طالت فترة حبس الغريب داخل المخزن وكل ما يردده لا يُشفي الصدور.

أقبل على المُكبّل في قيوده تدفعه حمم غضب كبير وتقوده نيران سخط عظيم، كاد يفتك به لولا أن حاول إبراهيم السيطرة عليه، تتالى السُباب واللكمات كسيلٍ حتى غطت الدماء وجه الآخر وهو يردد عبارة واحدة لا يتزحزح عنها:

«ماكنتش في وعيي يا بوي والله ما اعرفها ولا شفتها قبل اكده ولا حد وزني عليها غير الشيطان، أبوس يدك سامحني وهابقى خدام تحت رجليكم»

ابتعد يحيى قليلاً وعلى وجهه ابتسامة ساخرة:

– خدّام ايه يا حزين لهو انت فاكر نفسك هتعيش لحظة واحدة بعد ما اعرف منيك اللي انا عايزه.

ثم اقترب منه أكثر ليهمس في أذنه بغل وحقد وهو يُخرِج الحروف بثقل من بين أسنانه:

– وقبلها هخيلك تكره اليوم اللي اتولدت فيه.

تركه لرجاله يكملون معه ما بدأه وخرج من المخزن، تبعه إبراهيم صامتاً ثم زفر بقوة ليوجه حديثه لرفيقه:

– بزيادة عاد يا واد ابوي، الكلب دا لو مات في ايديهم هتبقى مشكلة، والظاهر إن حديته صح وماحدش وراه يا يحيى همله للبوليس والحكومة هتديله جزاؤه.

استدار يحيى ليكون في مواجهته ونظرة غل واستنكار طافت بوجهه:

– حكومة ايه اللي هتديله جزاؤه يا إبراهيم! تارنا هناخدوه بأيدينا يا غالي، والله ما مصبرني عليه الخسيس إلا إني عايز أجيب اخره وأعرف مين وراه.

هتف إبراهيم بحرارة:

– محدش وراه يا يحيى محدش وراه، وقتله ما عيفدش حد، بالعكس دا عيضرنا كلاتنا.

رد يحيى باستهجان وقد ملأه الغضب:

– إن كنت خايف على روحك خليك بعيد.

هدأ إبراهيم من حدة حديثه ليخاطب صوت العقل داخل محدّثه، فهو يعلم أن العصبية القبَلية والدماء الصعيدية تغلي داخله الآن:

– يا اخوي أنا ماقصدش إننا خايفين، إحنا أصحاب حق يا يحيى فما نضيعهوش بتصرف مجنون، اهدى كدا ووحد الله.

– لا إله إلا الله.

ابتسم إبراهيم لاستجابته وانشراح صدره فتابع:

– وكمان صلي على النبي.

– عليه الصلاة والسلام.

قال له وهو يحاوره:

– أنا أقصد إننا نسلمه للشرطة وهيتحاكم وهياخد اللي يستحقه بالقانون.

تلبسته الحيرة، فأراد أن يخلو بنفسه ليعيد ترتيب أفكاره ويُحسن بعدها اتخاذ قراره، وقد كان لكلمات إبراهيم وقع في قلبه وصدى في عقله.

***

عاد ليتحدث في الأمر مع جده، حيّاه وقبّل يده ليجاوره في مجلسه، كان جده يسعُل بشدة وهو يسحب نفساً عميقًا من أرجيلته التي لم يستطع أحد منعه عنها رغم تحذيرات الأطباء الشديدة من مَغَبّةِ تناولها.

بدأ يحيى حديثه بعرض كافة الأمور على جده كما اعتاد دائماً أن يفعل، أنبأه عن هاجر وحديثها معه وعن الحبيس وما آل إليه حاله، ثم سأله الرأي والمشورة.

خلل لحيته بأطراف أنامله مرة بعد مرة وهو يمعه، ثم قال:

- أنا عارف يا ولدي إننا غلطنا وحابسين الظالم والمظلوم مساوينهم ببعض ودا ظلم أكبر، بس نعملوا ايه مانقدروش نسيبوها في البلد الناس يتغمزوا عليها ولا نقدروا نهملوا الكلب دا لحاله ويفلت بعملته السودا.

تنهد قليلًا ثم تابع:

- هيا هتفضل اكده لحد ما نجوزوها لأي واحد، وهو هشيعله اللي يخلص عليه.

صمت قليلاً قبل أن يضيف:

- ايه رأيك في إبراهيم؟

وكأنما ذكره بإبراهيم وما حدّثه به منذ قليل، فانتبه متسائلاً:

– ماله إبراهيم يا جد؟

مسد الجد لحيته مرة أخرى وكأنما وجد ضالته، فهو حل عبقري وقال:

– نجوزوه هاجر واهو منينا وعا....

ابتلع الكلمة قبل أن يكملها فبترها يحيى برد حاسم:

– يا جدي إبراهيم زين وما يعيبوش شي واصل بس سيبلي أنا الموضوع دا أشوفه وعايز بس احدتك عن الحيوان اللي في المخزن.

اعتدل الجد في جلسته ينتظر حديث حفيده:

– كنت بقول يا جد إحنا نسلموه للشرطة وهماا..

قاطعه الجد حانقاً عليه:

– شرطة؟ شرطة ايه يا واكل ناسك، حقنا ناخدوه بإيدينا، سامعني؟

تنهد يحيى قليلاً ليشرح الأمر لجده:

– طيب قتله عيسكت الناس؟ عيرجع اللي راح؟ هيحل المشكلة؟ أبدًا قتله هيعقد الدنيا وبدل ماحنا في مصيبة واحدة عيبقوا مصيبتين.

سكت الجد قليلّا ليرد مُرتاباً:

– ودا رأيك ولا رأي شيخون؟

قام يحيى من مقامه ليوجه نظره صوب عيني جده مباشرة ويقول:

- دا رأي العقل يا جدي، والكلمة الأخيرة ليك هنفذها لو على رقبتي.

صاح الجد بلهجة ممازحة له بعد أن أعجبه حديثه واستراح له قلبه:

- طب غور بقا صدعتني وطيّرت الحجرين من راسي.

ودخل في نوبة سعال شديدة جعلت يحيى يسحب الأرجيلة من بين يديه ويضعها جانبًا ويرحل.

***

قد يهون العمر إلا ساعة وتهون الأرض إلا موضعاً.

***

انشغل برسالة هاتفية أربكته وأثارت حنينه وقلقه معاً، إنها من «فارس».

فرك جبهته بتعب يفكر كيف سيتعامل مع الأمر، فولده مطارد ومطلوب أمنياً، أطال النظر بهاتفه دقائق عديدة تغشاه رياح اشتياق، ويستوقفه بعض تعقل وأناة.

خرج الشيخ شيخون من دار البغدادي مسرعاً، لربما استطاع تدبر الأمر بعدما احتار الفكر وشرد العقل، فها هي الحياة تخلع عنه كل يوم أردية الأمان وتلبسه لباس القلق والعذاب، وحين كانت نفسه مقيدة بهم تأبى رحيلهم وتنأى عن بعدهم، فهم قرة عينه وفلذة كبده وصالح عمله، فأكثر العبرات، استرجع كل ما فات، واستدعى منهم بعض الهمسات، من أيام وصل ووداد.

غلب وجهه مسحة من حنين أردفها ببعض أنين لتكتمل عدة حزنه عليهم وشوقه إليهم، وقد عادت ذكريات ولده الأكبر «سعد»

سعد الذي أرغمه والده على السفر إلى «تركيا» قبل سبعة أعوام أو يزيد، فولده عرف كبد الحقيقة وصار لزامًا عليه الرحيل، مطاردات أمنية، تهديدات بالاعتقال.

نفض عنه والده رهق الاشتياق وحذره من العودة حتى يأذن الله وينصلح أمر البلاد أو يزول الفساد ويطمئن العباد. سافر «سعد»، درس هندسة الاتصالات واستقر هناك.

تهالكت «وصال» أرضاً حين سمعت من والدها الخبر، فقد كاد فارس أن يُعتقَل، لكنه فرِّ وهرب.

- الحمد لله، نجا.

قالها شيخون وهو يرفع ابنته عن الأرض ليقيمها:

- قدر ولطف يا بتي، اقفلي خشمك عاد لحد يشم خبر.

دار على عقبيه يفكر في مخرج لأزمته وأردف:

- عايزين نداروه في مكان بعيد عن عيون المباحث كام سبوع لحد ما الأمور تهدى ونسفروه لسعد.

آه يا سعد!!

وكأنها ذكرى اسمه أمامها خلعت قلبها عليه ومزقت ثباتها، فانكمشت تنعى فراق الأحبة وتهمهم.

- سعد؟!

غلب على وجهها الاستفهام، وحركت كتفها باستسلام لتهمس:

- كمان يابوي فارس عيسافر، كمان يا بوي عنتحرموا منيه زي سعد.

ارتجف والدها ورد بتوتر:

- هنعملوا ايه يا بتي أمر الله، مفيش قدامنا غير اكده.

أقبل إبراهيم عليهما وقد ملأه القلق على أخيه لكنه قد أجمع أمره وازداد عزمه ليعلن عن رأيه:

- ايه رأيك يا بوي لو نبعتوه حدا اخوالي في قنا؟ وهناك ماحدش هيعرفه وننبه عليهم يداروه.

كابد الشيخ شيخون جزعه واستعان بمولاه وخالقه ليجتاز أزمته ويتجاوز محنته، أومأ بالإيجاب ردًا على رأي ولده وأثنى عليه وأيده.

شهقت وصال بقوة وقد تنازعها ألم واشتياق، فلم تقوَ على كبح جماح دموعها، حاول والدها التماسك ليذكرها بكلمات ربها.

- {قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا}، استغفري يا بتي وادعيله ربنا يحفظه هو وأخوه.

ظلّت تردد بهذيان بطيء:

- أستغفر الله العظيم... أستغفر الله العظيم.

تلقف «إبراهيم» الهاتف من بين يديه وجلس في ركن قصي يكتب رسالة يرد بها على أخيه، علّ فكرته من الأذى تحميه.

على الجانب الآخر انصاع فارس لأوامر والده ووعده بالتنفيذ فوراً.

***

سحب مِرْمَدَة فخارية لتستقبل رماد سيجارته قبل أن يواجه ابن أخيه الذي بدا القلق والاضطراب على ملامحه بعد أن ألقى على مسامعه خبرية لم يكن يتوقعها، قست عيناه ونبرته مررت سخطًا وحنقًا:

- أنت واعي للي عتقوله دا يا أيمن؟ عايز تتجوزها؟ اكديه مرة واحدة؟

رد أيمن بسرعة:

- والله يا عم حسّان أنا معجب بيها وبأخلاقها من قبل الحادثة ولما زرتهم وريت أهلها وريت أخوها اتمسكت بيها أكتر.

بسخرية واستهزاء صدّر إليه عمه حسّان رداً مستنكراً:

- واه! يعني أنت عتتجوزها عشان ريت أخوها؟

رد أيمن بسرعة:

- لأ يا عمي، عشانها هيا تستاهل وعشان أنا وأنت كنا شهود على برائتها وعلى طهارتها.

كانت صفعة قاسية لرجل درس في الأزهر وحفظ كتاب الله ودرس علومه، فحسان عالم أزهري بالأصل، لكنه بعد وفاة والد أيمن _ وكان شقيقه الوحيد_ تفرّغ للأرض وزراعتها حتى يرعى الصغار ويقوم بتربيتهم.

ولم يتزوج حسان؛ فقد نسي نفسه وأخذته الحياة بمسئولياته الجديدة التى يتمّها يوماً بعد يوم على أكمل وجه.

أيقن أيمن أن كلماته قد وجدت طريقها إلى قلب عمه فأكمل بسرعة:

- أني ماعايزاكش تظلمها زي ما الناس ظلموها، وأكيد إحنا بكدا بنحيي فيها الأمل والحياة، وربنا قال ﴿ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا﴾.

سارع حسّان برد هادئٍ مطمئناً:

- صدق الله العظيم، ونعم بالله، أني فخور بيك يا ولدي.

ضمّه إلى صدره ليُردد مرة بعد مرة:

- يا زين ما ربيت يا حسان، يا زين ما ربيت يا حسان.

مسح عبرة تساقطت على صفحة وجهه ليُذكره بأمر هام:

- بس ماتنساش يا ولدي مهمتك مش سهلة، مهمتك صعبة جداً واختيارك هتتحمل نتايجه القاسية، أنت هتواجه أهلك اللي هما أمك واخواتك وقرايبك، هتواجه أهلها، هتواجه المجتمع كله اللي ممكن يرفض تصرفك ويقف في طريقك، أنت كمان هتواجهها هي ودي أصعب من اللي فات كله، لازم تعرف ازاي هتواجه كل دا وازاي عتقدر أنت وهي تتخطوا الأزمة وتعبروا الحاجز دا.

تنهد أيمن بارتياح مجيباً عمه:

- أولاً: أني نيتي خير وربنا شاهد عليا ومادمت ساعي في الخير فعشمي إن ربنا يقف معايا ويوفقني، ثانياً: أني لسه بفكر معاك وما عرضتش الموضوع

عليها ولا على أهلها اللي يمكن هما يرفضوا ...الله أعلم، ثالثاً ودا الأهم: طول مانت جاري سند وحصن وأمان، عمري ما هخاف، وهتحدى الكون كله.

تذكر حسّان خلال حديثه مع أيمن ذكريات مرّت بعد رحيل شقيقه وكان أيمن في الشهادة الابتدائية بينما حسّان كان لا يزال طالبًا بالسنة النهائية من كلية الشريعة والقانون، أتمّ الامتحان واستقر في البلدة، حيث كان بمثابة الأب له، ثم بعدها صارا صديقين، كانت مشاعر حب واحترام متبادلة من الطرفين.

أنهيا الحوار بعد سماع الآذان استعداداً للصلاة، وجملة من حسّان تحمل دعاء بتيسير كل عسير.

***

أكواب الشاي باللبن ومعها كعك العيد الذي لا يخلو منه الدار كل وقت طوال العام _فهو شريك رسمي لمعظم المشروبات وأغلب الجلسات_ كعك منقوش ومزخرف بعناية؛ بعضه محشو بالملبن، والبعض بالمكسرات، وجزء محشو بالعجمية. بينما تركت القسط الأكبر بلا حشوة، مكتفية ببضع رشات من السكر المطحون فوقه. رصّتهم في طبق تقديم مستدير واضعة كل كعكة بجوار أختها، بعد أن تلمسها قليلاً، تتحسسها، تنظر إليها بشغف، تحسدها لأنها ستلامس شفاهه، ستعانق فاه، ستذوب على أطراف لسانه. تنهدت بولهٍ وأكملت رصّ الكعك. كانت قد اختارت ثوباً وردياً رقيقاً يبرز مفاتنها، ملاصقاً لخصرها واشياً بجمال سخي، ثم ينسدل بنعومة ورقة

تناسب حجمها الضئيل. تركت العنان لشعرها الأسود الغجري ينساب ممتداً إلى خصرها وكأنها حورية صغيرة. بريئة هي، حتى حين تحاول أن تكون امرأة ناضجة، ولكنها أبداً ليست امرأة عادية، إنها تحمل ضعفها بين جنبات فؤادها، لكنها ثابتة صلبة أمام الجميع.

***

يجلس على أريكته ذراعاه ممتدتان على ساقيه، جاورته في مجلسه تستدعي أنفاسه في شوق إليه، وهو بجوارها وما تلا حديث الدَّرَج الليلة الفائتة زاد من توترها؛ فهو لن يمر مرور الكرام، ابتسامتها هزمته؛ لأنها ابتسامة عشق أرادت فيها أن تخبره أنها تحبه، أنها غيرهم، وإن عجزت عن إرضائه فهي لا تريد إغضابه بفتح حديث كهذا.

كانت مترددة تتقدم وتتأخر، تتنهد وتتلعثم، كانت تستدعي حر قلبه الذي تحاول احتواءه، تستدعي رجلًا طالما أحبته بصمت وأعجبتها رجولته المبكرة، وإن لم تنطق بها أو تصرّح لأحد.

قدّمت له قدح الشاي،خلع عنه رداء القسوة وبدأ يلين رويداً رويداً، أسبلت جفنيها بحياء؛ عينان واسعتان كفضاء عريض،ثائرتان كبحر هائج، لهما بريق خاص.

جذب قدحها فتساقطت بعض قطرات الشاي وهمس بنبرة ودودة :

-عاوز أدوق.

انكمشت خجلاً وهي تجفف ثيابها ويديها وترد بشغف وحب:

- عيوني.

ضاقت عينيه بغرور وهو يرتشف من قدحها ونظراته لا تتجاوز عينيها مثبتة عليها، ودار بين العيون حديث أبلغ من الكلام.

رغماً عنه شعر برغبة عارمة في تقبيلها، هربت من نظراته،ضغط على يديها وهو يُعيد إليها قدحها بنعومة:

- دا أحلى بكتير من شايي.

أغمضت عينيها وقد اكتست وجنتيها حمرة نصفها خجل والباقي شغف ووله، ارتعشت شفتيها من نظراته بلا قُبلة ولا لمسة!

فهربت من سطوته عليها، بينما أدرك هو أنها امرأته التي يعشقها دون أن يدري.

وتساءلت: لِمَ لَمْ تنضم إليهم «وصال» كما طلبت منها؟

سندس تقف على مقربة منهما تتطلع إلى يحيى بحنان وإشفاق عليه، سألها يحيى بود:

-نادمي على عمتي وصال وتعالي عشان عايزك يا سندسة.

تهللت أساريرها؛ فمنذ وقت طويل لم تره يمازحها، بل دائماً حزين مهموم.

سارعت باستدعاء وصال التي حضرت على الفور لتنضم إليهم.

سأل «يحيى» «سندس»:

- فطرتي يا سندسة ولا لسة؟ أقولك تعالي أسقيلك حبة فايش في الحليب.

ابتسمت سندس لمداعبته والتقطت قدحاً امتدت به يد «جميلة» برقة وحنان.

ما أجملها من فتاة! تليق بحفيد البغدادي بحق.

حدّثت نفسها سندس وهي ترتشف بعض الشاي بالحليب

ويناولها يحيى كعكة لتقضمها من بين يديه وهي تضحك من تلميحاته وغمزاته لها، فهو لايكفُف عن مداعبتها.

كم اشتاقت لابتسامته التي هَجرت محيّاه الأسابيع الماضية!

شاركتهم وصال حديثًا ودودًا، ثم انصرف يحيى لقضاء بعض أعماله، تبعته سندس لترافقه حتى باب الدار وتطمئن عليه، بينما بقيت جميلة بصحبة وصال ودار بينهما حديث طالما بدأ ولم يكتمل.

سألتها وصال:

- بتحبيه؟

ارتبكت واحمرت وجنتاها خجلاً وكأنما الحديث عن رجل غريب عنها وليس زوجها الذي من الطبيعي أن تحبه.

هي لا زالت تشعر أنه بعيد المنال رغم هُدنة مؤقتة بدت تلوح في الأفق.

تلعثمت وهي ترد عليها بتردد:

- آ....ثم أكملت بهزة رأس علامة الموافقة.

– يبقى تصبري عليه يا بتي، يحيى قاسى كتير وجده حمله فوق طاقته، مخلاهوش يعيش حياته، فرض عليه كل شي حتى.....

وصمتت وصال فقد كادت أن تجرحها، اقتربت منها مواسية بعد أن لمحت جزعها.

ضمّتها لجناحيها تُقبّلها وتحنو عليها وتقول:

– انتي دليله والنور اللي هينور حياته يا جميلة اوعي تتخلي عنه وتسيبيه يا بتي مهما حصل.

لوت شفتيها بحنق وهي تراهما تتهامسان لتتوجه نحو سندس تُفرغ عليها شُحنة غضبها المتراكم وتملي عليها تعليماتها اليومية.

كانت «حُسنة» حادّة الحضور لا تحب الهدوء والسكينة، تعشق الصخب والضجيج.

ارتد بصرها نحو ابنتها لتلقي على مسامعها استيائها وتعبث بالمياه الراكدة كطبيعتها:

– طول مانتي خيبانة في روحك اكده عمره ما هيعمر معاكي يا بت حُسنة.

اشتعل سعير عينيها، كادت تقذف حُمماً من فمها، إلا أن يد وصال الحانية ربتت على يدها مرة وشدت عليها أخرى لتصمت ولا ترد.

لم تتعجب وصال من رد فعلها القاسي تجاه ابنتها، فهي تعرفها جيداً ولهذا هي مُشفقة على جميلة.

***

أدار المِقبض وفتح الباب ليجدها أمامه، هذه المرة رأى دموعاً غزيرة تكسو وجهها!

شعر بوخز ضمير، فهو السبب في تلك الدموع.

أراد أن يضمّها إلى صدره، بل أن يعتصرها.

اقترب منها بخطوات ثابتة، وضع شيئاً ما بجانبها، رفعت وجهها الباكي ثم أخفته بين ركبتيها بعد أن أحاطتهما بذراعيها، فهي تبكي شوقاً إليه وهو معها!

تبكي حسرة على وضعها بين أبوين سيئين.

بهدوء جذب كرسياً وجلس قُبالتها لترتكز عيونه على وجهها المدفون،

فدموعها أحرقت صدره.

ناداها برقة وحنو:

- جميلة.

رفعت وجهها، ليبادر بكفكفة دموعها بأطراف أنامله

حتى لامست شفتيها فانتفضت وتراجعت قليلاً،

اتسعت ابتسامته فهو يعلم أنها تقشعر من تلك الحركة.

قُشعريرتها جعلته يبتسم ليترك كرسيه ويجلس بجوارها على طرف الفراش، اتسعت ابتسامته ليواجهها وقد أمسك بذقنها، امتزج نبضها به وملأ حناياها شعور غريب وجديد!

أتتها كلماته وقد غلفها الحب وكساها الحنين:

- أنا عارف إنك مالكيش ذنب وإن وضعنا اكده ماحدش يتحمله.

انتفضت وارتجف قلبها هلعاً مما يُمهد له، لتهتف بجزع:

- عايز تسيبني يا يحيى؟ عايز تطلقني؟ للدرجة دي ماقادرش تعيش معايا وماعرفتش أخليك تحبني؟

زمّ شفتيه ليزفر بحنق وهتف:

- يا بت انتي مخبولة أنا جبت سيرة طلاق؟

انتشت لمازحته، فتلك المرة الأولى التي يتبسّط معها هكذا، أدركت أنه يحتلها بالكامل.

رفعت رأسها في تحدٍ طفولي

- بس ماتقولش بت.

انفلتت ضحكاته مُجلجلة ليغيظها بجملة أشعلت ثورتها:

- حاضر يا بت حُسنة.

فزعت من مجلسها بطريقة كوميدية دفعته بثورة واغتياظ وكلها يتوعده بعقاب قاس، لتقذف عليه كل ما تطاله يدها؛ الوسائد، المفارش، المحارم، حتى عُلبةً الشيكولاتة التي أحضرها الآن كعربون صلح. لكنها لم تلحظها فقد كانت تبكي.

كتمت صرخة كادت تفلت من بين شفتيها، مدهوشة وهي بين يديها، كيف عرف أنها تعشق الشيكولاتة؟ وهذا النوع على وجه التحديد!

كان هو يتصنع الاختباء مما يتطاير من بين يديها، حتى وصلت إلى علبته أحس بركض قلبها الهادر، فغزت ابتسامة عريضة وجهه.

تقدّم منها وتابع بأريحية ناعمة:

- يا رب تعجبك.

لم تُصدق نفسها، ضمّت العُلبة بقوة، لكنه انتزعها منها فالتقطتها وجرت بعيدًا في مشاكسة أعجبته، فتحت العُلبة بسرعة قبل أن يصل إليها وأمسكت أول قطعة منها وهمت بوضعها في فمها، ليلتقطها هو منها ويقضمها أولاً فتنتزعها وتدفع بها إلى فمها بسرعة.

فقدّمت له كل المُباح، ليسقط في بحر عشقها فيذوب وتذوب هي معه.

***

وحينما تركونا في منتصف الطريق؛

كم تألمنا وشق الوجع معين الصبر فنضب!

كم تمنينا عودتهم ولو سراب!

كم دعونا حزناً على فقدهم!

حلمنا أن يردوا علينا بعض ودهم،

أو قليل اهتمام.

حقنا عليهم إن رحلوا؛ أن ترحل معهم ذكرياتهم.

أغمضنا العيون عسى يبقى طيفهم عالقّا في جفوننا.

أغلقنا الأبواب والنوافذ عسى عطرهم ينشذ عبيرًا في صدورنا.

وأدركنا حين فتحنا أعيننا أن الدنيا صارت أجمل بدونهم!

أن الحياة صارت أحلى بعدهم.

أن الأيام صارت أبهج في بُعدهم.

وأننا صرنا أفضل برحيلهم.

فقط تبقى غُصة الحلق بَعدهم.

***

أعتمت الدنيا أمام ناظريها حينما رأت بأم عينها طمع بناتها وجشع نفوسهن ودنائتهن، التجأت إلى ربها تدعوه أن يهديهن ويصرف الشيطان عنهن.

دخلت «أماني» بزوبعتها المعتادة، وقفت قليلًا في البهو، المساحة شاسعة، أثاث فخم، كل شيء ينبئ بترف كبير.

استقبلتها «أم صبحي» وهي في الأصل مربيتها، وُلِدت على يديها واعتنت بها منذ صغرها.

كانت أم صبحي تغطي وجهها بطرف وشاحها كعادتها هتفت مرحبة:

- ازيك يا ست أماني؟ اتفضلي الست دلال جوا.

ثارت الأخرى في وجهها تفتعل شجاراً لترهب الجميع وردّت بصوت جهوري:

- ماتشيلي الزفت اللي على وشك دا عشان أعرف أكلمك، وبعدين ايه ست أماني دي؟

اقتربت منها قليلاً لتكمل وهي تجز على أسنانها:

- قولتلك مية مرة تقوليلي أماني هانم.

لوت أم صبحي شفتيها بامتعاض وولّت مدبرة ولم تُعقب.

صاحت أماني تطلب من الجميع الحضور وكأنها ستُلقي عليهم خُطبة عصماء:

- أم صبحي هاتي سليم وبنته وتعالوا هنا بسرعة.

تراصّوا أمامها صفًا واحدًا، فبدأت حديثها معلنة الأمر:

- الأوضة بتاعتي تترتب وتتنضف النهاردة هارجع بالليل ألاقي الدنيا زي الفل، سليم ماتروّحش قبل ما أرجع عشان تطلع الشُنط وسلمى هتيجي معايا محتاجاها تساعدني في ترتيب الشنط هناك، بالنسبة للأكل هسيبلك ورقة فيها جدول تنفذه بالحرف.

وانصرفت بعد أن ألقت نظرة سريعة على وجه أمها المكفهر، وهذا بالضبط ما أرادته، فألقت بجمملتها ورحلت!

- ماما أنا هقعد شوية معاكو عشان جوزي مسافر مأمورية.

تركتها تلفها الحيرة ويغزوها الشك والريبة، لا تثق هي في بناتها، وتتوقع غدرهن في كل لحظة.

اتصلت بالمحامي وطلبت منه الحضور، فما عاد يُجدي حديث الهواتف.

جلست بقلق فوق مقعدها تراقب غروب الشمس.

أخبرتها أم صبحي بقدوم المحامي، استقبلته بسؤالها المعتاد وهي تشير بترحيب له بالجلوس

ساد الصمت بينهما وقتًا ضئيلاً لتقول بتوتر وازى جموده:

- ايه آخر الأخبار عندك يا «أستاذ أحمد»؟

ضاقت عيناه أكثر وقد التمعت ببريق عجيب، أبصر وجهها فعلم أن الهموم قد بلغت منها مبلغاً، وأن الدنيا قد دارت عليها دائرتها، فاكتسا وجهها أسى وحسرة وفارقتها الابتسامة وغدرت بها الفرحة.

- اهدي يا دلال هانم مهما كان هما بناتك.

عبرة حارقة لفحت وجهها إذ ذكّرها بوجيعتها ووجعها لتقول:

- المصيبة إنهم بناتي، أرجوك قولّي هما ناويين على ايه،

وليه أماني جاية تقعد معايا؟

اصطنع اندهاشه بالخبر رغم أن كل الأمور من تخطيطه وتدبيره!

- هنا؟

أومأت بالإيجاب وأردف:

- كدا هي بتخطط عشان تستولى على الشقة.

شهقت وظهر على وجهها الفزع، لكنها دارته بصمت قصير ثم قالت:

- والحل؟

تلعثم قليلاً ليصدر لها قلقاً فوق قلقها:

- اديني فرصة أشوف طلباتهم وأحاول أوصل معاهم لحل.

زفرت بحنق غاضبة لتصيح:

-لسه ليهم طلبات تاني؟ لا، لا كدا يبقى خيبة وقلة قيمة.

صمته ونظراته بدأت تثير ريبتها، وتخاذله أكد لها سوء طويته.

قررت أن تبتر حديثها معه، فقالت مراوغة:

- طيب هنتظر نتيجة كلامك معاهم يا أستاذ أحمد.

همّ بالانصراف على وعد بمكالمة هاتفية قريباً.

خرج يقلب نظره في البهو يبحث عنها، ولم يستطع السؤال حتى لا ينكشف أمره.

خرج وإذا بها أمام عينه، تصعد الدرج وهي تحمل بين يديها حقيبة سفر كبيرة.

انزعجت لرؤيته، فهي لم تتم بعد ما اتفقا عليه، حيث داهمتها أماني بطلب الرحيل معها لمنزلها.

حيّاها متسائلاً:

- سلمى ازيك، ها خلصتي؟

أجابت متلعثمة في خوف وارتباك أن يراهما أحد، فألقت جملتها عليه وهربت من بين يديه:

- مالحقتش أعمل حاجة خالص وست أماني طالعة في الأسانسير، بعدين بعدين.

ثوانٍ وأقبلت أماني فانتبهت له ودار بينهما حديث مقتضب شارحاً لها ما حدث مع والدتها.

استوقفها ليسألها عن أختها أمل، ولماذا لم تحضر معها؟

ردّت حانقة بقسوة:

- أمل أصلاً جبانة، سيبك منها أنا يوم ولا اتنين وهاجيبها بالعافية.

- تمام.

قالها ورحل

***

-٥-

الحياة مجموعة من الخيوط المتشابكة، كلما حاولنا فكّها كلما ازدادت تعقيدًا، فلنأخذها على عِلاتها.

***

بداية بأبوين سيئين، مرورًا بزيجة غامضة وزوجة بذلت كل ما في وسعها لتنجح،

نهاية بثمرة طيبة وبداية مودة ورحمة.

لكنها تنتظر ما تتوقعه من البداية،

تنتظر المجهول...

تُخفي رعبها من القادم، تخشاه، ولكن ما بيدها أي شيء،

ضعف، هوان، قلة حيلة.

تريد مصارحته وتخاف ردة فعله؛ فكان الصمت ضيفاً ثقيلاً قد يقودها إلى الجنون!

أصبحت «جميلة» مليكة قلبه وسلطانة فؤاده، توجها على عرشه بلا منازع،يبحث عنها بعينيه في أولى خطواته بالدار، يبادرها بابتسامة عذبة وقُبلة خفية في الهواء لا يلحظها مخلوق غيرها، تتلقفها بحياء وخجل، تضمها لصدرها حتى يكاد الهواء بينهما يذوب.

تركت ما بيدها حين رأته قادماً، لم ينادِ عليها فهي سبّاقة إليه دومًا.

ابتسم وأعلن عن طيب ررائحة طهي قادم من مطبخها، تتبع حدسه، فتح الغطاء، تذوقه، أبدى إعجابه بلذة مذاقه،إنه «الكسكسي».

كانت «جميلة» ماهرة فيه، بل محترفة، يشهد لها الجميع.

أتت من خلفه لتسأله:

- عجبك؟

استدار نحوها ليعيد خُصلة نافرة من شعرها وراء أذنها ويقول بخفوت:

- كل حاجة من يدك بتعجبني.

حاوط خصرها بذراعيه مُقبلًا رأسها، حاولت انتزاع نفسها من بين قبضته، فأمها لا تزال تراقبهما، وسندس تقف على مقربة منهما، لكنه تعمّد أن يطيل المشهد ليرسل رسالة إلى حُسنة؛ أن دعينا وشأننا.

شدّد قبضته ووازاها بهمسة مشاغبة:

- وحشتيني.

لم تغادر دائرة احتوائه، بل تمنّت أن تظل هكذا طيلة عمرها.

امتزجت ابتسامتها الخجلى بضحكته المشاكسة في لحن عذب وتركها تعد المائدة.

شيعته بابتسامة وأكملت ما كانت تقوم به،التقطت قطعة لحم مميزة وضعتها في طبقه بجوار «الكسكسي» المزين بالحمص والبطاطس والكوسة.

«يُعد من الأكلات المعروفة التي تُقدم في الولائم والأعراس، تشتهر به الموائد حيث تُضاف قطع اللحم والبصل والطماطم في قِدر مناسب مع قليل من الزيت، وتُتبل بالمِلح والفُلْفُلْ والزنجبيل والزعفران، يُضاف السمن ويُقلّب المزيج جيداً، ثم يُسكب الماء ويغطى القِدر، بعد الغليان يُضاف الحمص المنقوع والجزر والكوسة والبطاطس وقليل من الكزبرة والمقدونس، ويُترك الإناء على نار هادئة.

يوضع «الكسكسي» في قدر آخر، ويُسكب عليه نصف لتر ماء ويحرك بملعقتين من السمن ويُنقل فوق وعاء الخُضَر واللحم، يُطهى على بخار الماء المتصاعد.»

أشار يحيى بأصابعه علامة التميز بعد أن وصفت طريقة الطبخة لـ«فاطمة»أخته، والتي لا تجيد الطهي، بل لا تحبه من الأساس.

لكن يحيى يصر أن تتعلم فنونه؛ فهي حتى بعد أن تُنهي دراستها وتصبح طبيبة فمصيرها أن تكون زوجة وأم.

تتذمر فاطمة وتعلن عن عصيانها بمرح:

- هبقى أخلي جميلة تطبخهولي يا يحيى، هملني بقا عشان ورايا مذاكرة.

أعادت عويناتها الطبية التي انزلقت على أنفها لتضبطها مثبّتة إياها في أقصى الأنف بحركة ديناميكية متكررة.

وجهها منحوتاً بدقة، كل تقاسيمه غاية في الجمال وكأنك أمام لوحة فنية.

مُقلتين كحيلتين بلون البندق،ثغر وردي مكتنز،كانت فاتنة بمعنى الكلمة وإن كانت لا تدري ولا تأبه لفتنتها، فكل ما يهمها دراستها فحسب.

***

استترت الشمس عن الأعين وقد توارت بالحجاب، بينما كل الكائنات تحت عين الله يحصيها ويعدّها عداً،

يظن البعض أن الجُدُر ستحميه والسقف سيمنعه والحيطان ستصد

عنه، ليجدوا بالنهاية ما عملوا حاضرًا ولا يظلم ربك أحدا.

***

مطارق تدق عنقه، ثقل رأسه يكاد يفتك به.

حاول النهوض لكنه شعر بدوار وسقط طريح الفراش مرة أخرى، بالكاد بعد غيابه عن الواقع يعود ليفرغ ما في جوفه ويستلقي مرة أخرى ليتيح لمعدته غثياناً متكرراً، كل برهة بفعل، خمر رديء النوع!

يفرد ذراعيه ليصطدم بجسدها لاعناً الخمر والنساء ولياليهما الحمراء، ضحكة رقيعة من تلك المستلقية بجواره على الفراش، التي لا يكاد يتذكر ملامحها بعد أن ذهب ما كان يُلطخ وجهها من مساحيق رخيصة.

مضى من الوقت ما مضى بين ألم وتيه يصاحبه كظله،فرك جبهته بتعب ثم عاد يفرك رأسه بجنون كي يتذكر امرأة لا يعرفها، فراش لا يخصه، ألم حارق بمعدته،وصداع يكاد يفتك برأسه!

عاود النظر إلى وجهها مجدداً يتفرس ملامحها، ينتظر منها فهماً، لكنها لم تأبه لحاله ولم تجب عن سؤاله.

صاح بها وقد تملكه الغضب:

_ يا بوي! أنا فين؟

لكزته غير ذات بعيد.

استقام ليصفعها وهو يكيل لها السُباب واللّعنات لسخريتها منه،

كان يصرخ صريخًا مدويًا وقد بدأ يتذكر ليلة أمس، لا بد أن الخمر مغشوش.

ولم يكد يصل إلى اليقين أو تطالها بعض يده ليذيقها جزاء فعلتها، حتى فوجئ بحائط بشري أمسك بيده ثم جره من تلابيبه بقسوة!

كان يخور خِوار الثور، مُهتاجاً كأسدٍ جريح.

آه لقد نسيه، إنه «قرني» هذا المكانصفة لا اسماً لمن يعمل بمكان كهذا، فالأسماء هنا لا تهم.

هو رجل غليظ، يحمل صوتاً أجش وملامح خشنة باردة، ضخم الجثة، يتحاشاه الجميع، رآه بالأمس.

جره جرًا الآن نحو غرفة «المعلمة دوابة».

فرك جبينه يستدعي انتباهاً مفقوداً قبل أن تضيق عينيه وهو يحاول التعرف عليها، لقد رآها قبل ذلك أكثر من مرة لكنها الآن أجمل من ذي قبل.

ثَمّة فتنة بدون مساحيق التجميل برزت، وجمال مبهر يوشك أن يأفل. كانت في الأربعينيات، تحمل قسمات فاتنة وجمالًا لا يُضاهى، ابتسامة ماكرة وازتها نبرة غاضبة:

-انت هتطلع عفاريتك علينا ولا ايه يا حيليتها؟

رفع حاجبيه باستغراب وصاح مستنكراً:

- آني حيليتها؟ دا آخرك معاي يا بت الفرطوس.

تقدم منها مندفعاً لتسحبه ذات اليد مرة أخرى مع لكمة قوية أعادت إليه عقله ونزعت عنه كرامته وألقته أرضًا.

همّ برد الضربة ليلاقي سيلاً من الضربات واللكمات، حتى خر مفترشا أرضية الحجرة.

تمتم الغليظ بلغوٍ بدا أنه سُباب قبيح، حرّك رأسه متسائلاً:

_عايزين مني ايه يا ولاااد ال.....

صمتٌ تام استمر للحظات أعقبه رد منها يُشبه الانفجار، أظلمت عيناها بنظرة مخيفة ولوت شفتيها باستهزاء صاحبته نبرة احتقار:

_انت بقا عاصم؟

ابتلع غيظه وحاول أن يعتدل ليجيبها ثم حرّك رأسه بالإيجاب.

أشارت باقتضاب نحو كرسي ليجاورها في جلستها.

أحضر قرني أرجيلتين بناء على أوامر «المعلمة دوابة»،

تناولت مبسمها وانتزعت نفساً طويلاً كتمته بُرهة لتُخرجه على مَهَلٍ سعيراً يكاد يحرق الأبدان.

حدّثته بثقة ورزانة:

- ليك معانا مصلحة يا سيد الناس.

قالتها ثم نظرت لعينيه بثبات وأردفت:

- ولينا عندك خدمة، يعني نفع واستنفع.

حرّك سبابته في محاولة للفهم، زم شفتيه ثم دمدم بغضب:

- لا أكيد في غلط في الموضوع.

استندت بذقنها على يدها وهي تتابعه في مكر.

توترت ملامحه ليضيف:

- واه! انتو فاكرنّي مين؟

هزت كتفيها بلا مبالاة وهي تهتف بخدمها:

- هاتولنا كاسين هنا عشان نتعرفو ع البيه.

بَهُت من رد فعلها ولم يُعقب.

ظل على صمته فترة من الزمن وقد انكمش على نفسه محاولًا استيعاب الأمر، وعقله لا ينفك يفكر بما يحدث حوله.

***

الجراح لا تبرأ، قد يتوقف النزف، لكن الندبات باقية تذكرنا بألمها ووجعها كلما ارتطمنا بجرح جديد.

***

تتجاهله دون التفاتة مرة بعد مرة، وكرامته تأبى عليه أن يُعيد الكرة.

هي أنثى تحلم بفارسها ولكن بعيداً ان قوانين الواحة.

فتهرب وتبتعد عن حصاره، تخفي فيض حنينها، وتحاول تغيير مصيرها.

على أعتاب هجرها صاحبه سكوت مؤلم ووجع مُخجل، لكنه صرف باله عن الأمر وأوكله إلى مولاه، إن كان خيرًا فليقترب، وان كان شراً فليبتعد.

كان هذا توثيق لمشاعره وربما كان تلجيماً لها، وحُجة على «رقية» يوم الحساب.

اقترب من بيت عمه يقدم رِجلاً ويؤخر الأخرى، فهو يتعمد البعد عنها تماماً،لكن أمام إصرار يحيى على حضوره لم يملك سوى الموافقة.

التقى به على عُجالة بعد أن أوثق رِباط حبيس المخزن وقام بشحنه داخل صندوق سيارته تمهيدًا لتسليمه إلى الشرطة.

الأمر الذي أراح الجميع ولقى قبولًا لدى كافة الأطراف، فهو عين العقل.

كان الرجل يتلفت حوله بجزع ظاناً أنهم سيقتلوه، يكفيه رعباً تلك اللحظات التي يعيشها وهو يقترب من الموت، لو كان فكر في فعلته القبيحة لما أقدم على تلك الجريمة.

هذا ما دار بخلد إبراهيم وهو يفتح صندوق السيارة ليلقي نظرة عليه، انتبه على صوت يحيى خلفه:

- والله القتل ليك حلال.

شد إبراهيم على يده وابتعدا، بينما المقيد يسكنه الذعر، جسده ينتفض، يهذي بكلمات غير مفهومة.

انطلقت السيارة وبها ثلاثتهم، كلٌ على وجهة قلبه.

كان إقناع الجد بالأمر عسيراً، لكنه رضخ في النهاية لمّا رأى من الجميع اتفاق على نفس المبدأ، وما ساعد في سرعة قبوله للأمر؛ رغبته في التخلص من ذكرى تلك الحادثة ومع ورود أخبار من يحيى لجده عن عريس منتظَر يريد الارتباط بهاجر انفرجت أساريره وباتت نفسه بها بعض الرضا.

***

هكذا الحياة، بعد كل عثرة قفزة للأمام، وبعد كل إخفاق نجاح، بعد كل ظلام نور ونهار.

وها هو النهار يحمل لها الأمل.

***

تعرضت لمحنة كادت تودي بحياتها، لكنها أصرّت على التمسك بالأمل والتخلي عن اليأس وتخطي الأحزان.

استقامت «هاجر» بكبرياء، توجهت نحو صحن الدار.

إنها المرة الأولى التي تغادر فيها حجرتها منذ فرض عليها جدها إقامة جبرية فيها.

استقبلتها ابتسامة «وصال» وتلقفتها عيون «يحيى» فهو صاحب المبادرة ودعوتها إلى حديث قد يسري عنها ويخرجها مما هي فيه.

أقبلت تُقبّل يد الجدة «آمنة» ممتنة لصنيعها وما وجدته منها من عطف ورعاية وحنان، ثم استدارت في مواجهة جدها، كانت تحمل مزيجاً مختلفاً من المشاعر والأحاسيس تجاهه، أما هو فقد كان صامتاً.

تقدمت ببطء لتُقبِّل يده كما تعودت، فأمسك بيدها وشدها ليضمّها بقوة مردداً بصوتٍ واهن ونشيج بكاء مكتوم يتصاعد رويدًا رويدًا ليهمس في أذنها:

- حمدالله على سلامتك يا بتي.

انتفضت في حضنه وكأنه يُعيدها إلى الحياة مرة أخرى!

فشدد قبضته عليها أكثر وكأنها عادت بعد سفر طويل، بكت طويلًا بين جناحيه، بكت قسوته عليها قبل قسوة ما حدث لها.

شهقات تسربن منها وهو يُجلسها بجواره وقد تهدّج صوتها وامتزج الدمع بالأنين، مدّ طرفه يمسح دموعًا تتساقط بغزارة على صفحة وجهها.

يده المرتعشة أرسلت لها دفئاً كانت تتوق إليه وأماناً طالما افتقدته بالأسابيع الفائتة، بثت إليه لواعجها دون أن تنطق كلمة واحدة، طال الصمت، ولا زال نظرهم معانقاً وجهها.

رفع الجد رأسه بعد فترة وقد علته مسحة وهن، احترم الجميع هيبة اللقاء فلم يجرؤ أحد على الكلام حتى بدأ يحيى يوجه حديثاً خافتاً لجده كاسراً حِدة الحزن وعدته،طارت إليه ببصرها تتلقف كلماته كطوق نجاة بعد طول انتظار:

– عليك دبيحة يا جد حلاوة سلامة عروستنا الحلوة.

ابتسم الجد رغم حزنه، فيحيى هو الوحيد القادر على إخراجه من صمته.

الجد الذي لفَّع الشيب رأسه وخضّب لحيته بكل شموخه وهيبته، بدأ يضحك ويعلو صوت ضحكه وهو يرد على «يحيى»:

– هنخليهم دبحتين لما تبشرني «جميلة» خبر زين.

تمتم الجميع ابتهالًا لله بالقبول، وبدأ المزاح وصخب الحديث وقد زال التوتر وتبدد الخوف بعد طول حزن وقلق.

***

قلبت الدنيا رأساً على عقِب بحثاً عن أوراق وضعتها بملف أزرق وأخفتها في كتاب قديم على رف مرتفع داخل حجرة المكتب.

صرخت فيهم جميعاً والشرر يتقاذف من عيونها حمماً:

– يعني ايه؟ الأوراق اختفت! هبلغ البوليس وأوديكم في ستين داهية.

كانت تعلم «دلال» علم اليقين أن بناتها ومحاميها وراء تلك السرقة، لكنها لا تملك أية أدلة، احتارت ماذا تفعل، ولِمَ تُسرق الأوراق في تلك اللحظة، وما هي خُططهم؟

ربما أرادوا إخفاءها ليسهُل وضعها في دار للعجزة ورمي أختهم في أية مستشفى؟

أو ربما لديهم من الأفكار الشيطانية ما لا تعرفه ولا تقدر على الوصول لكنهه؟

كاد الصداع يقتلها حين قدمت عليها «أم صبحي» وبيدها حبة دواء مسكنة و كأس ماء وطالبتها بالهدوء.

- اهدي كدا يا ست دلال ووحدي الله.

ابتلعت الدواء بمائها ورددت:

- لا إله إلا الله.

أسرعت تصب عليها ما يُطمئن فؤادها ويريح بالها:

- أنا عشت عمري كله معاكم ماشفتش منكم إلا كل خير، صدقيني ربنا هيزيح الغمة دي ويهديهم إن شاء الله.

تنهدت «دلال» وهزت كتفيها بيأس:

- أنا خلاص مش عارفة أعمل ايه؟ أتصرف ازاي؟ الخوف هيقتلني.

- لا يا ستي اوعي تخافي منهم دول مهما يكون بناتك. الخوف من اللي بيدبرلهم دا كله.

- طب والعمل ايه يا أم صبحي؟

_ايه رأيك يا ستي لو تختفي شوية وتخليهم يلفوا حوالين نفسهم؟

أعجبتها الفكرة ولكن... كيف وأين ومتى؟ عشرات الأسئلة تدور في رأسها.

***

الليل يغشي ستره على الأرض وفيه عبرة لمن يخشى، أما القاسية قلوبهم فلا عين تدمع ولا قلب يخشع.

***

اضطربت قليلًا وربما ترددت في تنفيذ ما قررت، جمعت من الثياب القليل وتخففت، ثم ألقت نظرة على النِيام وتحسست فمضت تُكمل خُطة أعدّتها مع خادمتها.

ارتحل الثلاثة؛ هي وابنتها «علا» وخادمتها، ليبتعدن عن الشرك ويحاذرن الغرق.

أغلقت الباب بهدوء خلفها، والوجهة حائرة في بلاد بعيدة، ربما تكون إلى الجنوب.

قطعت صمت الرحلة الطويلة كلماتها المُطمئنة:

- ماتخافيش ياست دلال كل حاجة هتمشي زين، تعرفي حدانا في الصعيد الناس كلاتهم بيحبوا بعض وبيخافوا على بعض ويكرموا الغريب قبل القريب، إحنا هننزلو حدا أختي في قنا هيا عايشة لوحدها بعد ما جوزها

مات وولادها اتجوزوا وسافروا، ياما اتحايلت عليا عشان أروح أقعد معاها، لكن ايه، كل شيء بميعاد.

كانت السيدة دلال غارقة في أفكارها، طال صمتها وهي تفكر بأمرها ومصير ابنتها المريضة، الخوف ملأ ضلوعها، وزاد من توجسها رحيلها لأرض موحشة لا تعرف فيها أحدًا وليس لها فيها سندًا، لكن الرحلة مستمرة والسيارة تقطع الطريق عدواً محموماً، لا تتوقف ولا تتريث.

***

-٦-

البداية..

مرهقة،

مضنية،

طويلة طول حرف المد فيها بعذاباتها وجراحها، جميلة على قدر شغفها، مبهجة بكثرة ألوانها وجمال طبيعتها، فَضفاضة هي أيضاً على قدر تعدد تفسيراتها وكثرة احتمالاتها، فتباديلها وتوافيقها محيرة بل تكاد تكون مستحيلة.

***

أنفاسها تزداد سرعة كلما قطعت عجلة القيادة الطريق، وكلما تصارع عقربي الساعة تلاحقاً، وكلما عانق النسيم أوراق الشجر المصطف على جانبي الطريق.

عيناها مركوزتان على نافذة السيارة التي استأجرتها لتقلهم حتى يختفوا عن العيون، وتلك الجالسة بجوارها لا تعي شيئاً مما يحدث حولها، تلهو بدميتها الصغيرة غير عابئة بمكان أو زمان.

تنهدت دلال وهي تلقي برأسها على المقعد تستند على طرفه، وتتمنى أن تكون مثلها في تلك اللحظة.

عادت بها الذاكرة قبل وفاة زوجها د.رائف وفعلته التي قلبت حياتهم رأساً على عقب، هي الآن على يقين تام أن ما يحدث ما هو إلا عقاب الله لهم لمّا خالفوا شرعه وتحدوا إرادته وحكمته في تنفيذ القسمة الشرعية والتوزيع العادل للمال. كيف تركوا العنان لشيطانهم حتى يسوقهم إلى هذا الوادي السحيق! استعر صدرها وارتعدت جوانحها حين تذكرت عذاب الآخرة.

«يا الله» قالتها وهي تمسك قلبها بشدة.

وتعترف لنفسها أنها شريكة في الأمر ولو برضوخها وإذعانها لقراره، كان عليها أن تتصدى له، صحيح أنها حاولت أن تثنيه عن هذا الأمر ولكنها بالنهاية استسلمت. حرم إخوته من نصيبهم الشرعي في ماله، وكتب كل ثروته لبناته اللاتي أعماهن الطمع والجشع وأغراهن المال بسطوته إلى فعل ما لم يتصوره هو أو أمهم، وها هي تجني ثمار ما زرعت يداه، هو تركها ورحل، بينما هي من تتجرع وحدها غُصّة الندامة.

أغمضت عينيها لترتاح قليلاً فلا تعلم ما ينتظرها في الأيام القادمة، وحيث غطت أم صبحي في نوم عميق بأجراس متذبذبة على إيقاعات مختلفة وأصوات متباينة، بينما «علا» تستند إلى كتف أمها وتنام كملاك صغير.

مع إطلالة فجر جديد وصلت السيارة إلى وجهتها في قرية صغيرة بمحافظة قنا.

بيت صغير مكون من طابقين؛ الطابق الأول لاستقبال الضيوف والمطبخ وحجرتين للنوم، والطابق الآخر به حظيرة لتربية الدواجن وتكعيبة عُنب

تحت ظلالها. كراس خشبية مختلفة الأحجام والأشكال، والعديد من الموائد الصغيرة، يطل سطًح االدارعلى رُقعة زراعية غاية في الجمال، أما المنزل فكان بسيطًا جدًا، به بعض الأثاث المتواضع.

وخلف الدار فرن طيني كبير تخبز فيه «أم محمد» الفطائر والخبز والطواجن لمن أراد من أهل القرية بثمن زهيد تستعين به على نفقات الحياة بعدما مات زوجها وسافر أولادها واحداً تلو الآخر ليتركوها وحيدة.

كانت القرية هادئة في الصباح الباكر، لا صخب ولا ضجيج كأحياء القاهرة التي لا تنام، رحّبت «أم محمد» بالوافدين وكانت قد أعدّت لهم الفطور وجهزت الحجرة الخالية للسيدة دلال وابنتها.

وفي شرفة المنزل جلس الجميع يتجاذبون أطراف الحديث وهم يتناولون الكعك والبسكويت مع الشاي الصعيدي الثقيل الذي لم تستسغه السيدة دلال وطلبت من «أم صبحي» شاياً خفيفاً، تناولته منها ثم شكرتها بعد أن قالت أم محمد:

– معلش يا ست هانم إحنا اتعودنا عليه تقيل حبر.

ردّت دلال بتنهيدة:

– الصحة ماتتحملش كباية شاي تقيلة كدا يا ام محمد دا أنا بشربه خفيف من ورا الدكتور.

تذكرت الطبيب فشهقت شهقة ضعيفة وأردفت:

– يا خبر! أنا نسيت خالص مين هيتابع علا وأدويتها وحقنها.

أسرعت أم محمد بالرد:

- ألف سلامة عليها، أدوية ايه وحقن أيه؟

تدخلت بسرعة أم صبحي وهي تغمز بعينها لأختها حتى تنهي الحديث.

- أدوية وحقن لازمن تتاخد كل يوم.

ثم وجهت حديثاً مقتضباً إلى سيدتها تطمئنها:

- ماتقلقيش يا ستي أني هتصرف.

أطالت دلال النظر إليها ونفسها تعتلج بالكثير من المخاوف والظنون، لكن الأولى أمدتها بنظرة مطمئنة، بينما هاتفها يضج برنين متتالٍ لا يهدأ ولا ينقطع، تضيء الشاشة بأسماء ابنتيها واحدة تلو الأخرى.

أغلقت الهاتف تماماً ثم توجهت بحديثها إلى أم صبحي:

- لما تخرجي يا أم صبحي اشتريلي تليفون تاني بخط جديد.

أجابتها باحترام:

- حاضر يا ستي من عينيا.

***

فُتحت البوابة الحديدية الضخمة لتستقبل الضيوف الوافدين إلى بيت «البغدادلي» الكبير، ركضت سندس بفرحة لتخبر الحاجة «آمنة» وكان يجاورها يحيى فأشارت إليه بمقدم الزوار،تنحنح يحيى وهمّ لاستقبالهم.

بينما الحاجة يامنة تضع قدمها في خُفها على عجل وتستند إلى عصاها وتقوم من مجلسها لتلقي نظرة على العريس القادم إلى هاجر بعد أن سمعت عنه الكثير من وِصال.

أسندت جسدها الكهل إلى شرفة صغيرة في حجرتها تطل على الفناء، تلألأت ابتسامتها بالسعادة وغزت ضحكة عريضة شفتيها المتشققتين ووجهها المتغضن.

عدلت من وضعية وشاحها وعادت لمجلسها، كان الطابق العلوي ذاخراً بنظرات تختلس الوافدين الجدد من وراء حجاب أو من وراء البغدادلي.

كانت تقف رقية وفاطمة وكلثوم يراقبن الركب وهو يتقدم، أيمن بصحبة عمه حسّان.

دخلت وصال الغرفة لتجد البنات يتغامزن ويصحن بإعجاب على وسامة العريس، بل لم يسلم عمه من لسانهن، ضحكت وِصال وهي تأمرهن بمزاح أن يبتعدن عن الشرفة ويتركن العريس لصاحبته، وأدارت وجهها لتجد هاجر ممتقعة الوجه، زائغة النظرات، شاردة في الأفق البعيد،

أشفقت عليها ورثت لحالها فهي تعلم ما يعتمل بصدرها الآن، وما يتصارع في عقلها من أفكار.

في قاعة استقبال الضيوف ومقاعدها الخشبية الجميلة على هيئة الأرابيسك ككل طراز بيت البغدادلي لكنها فخمة إلى حد كبير ويزينها بعض الأحجار الكريمة التي لُصِقت بتناغم وانسجام.

حتى المزهريات واللوحات والفرش والستائر؛ كلها من نفس الطراز ومن ذات العراقة والتميز.

تقدم أيمن وعمه حسان ليصافحا الحاج «عبداللطيف» الذي استقبلهما بحفاوة وطلب يحيى منهما الجلوس وتبادل الجميع أطراف الحديث، تكلموا عن كل شيء وفي كل شيء قرابة الساعة، ثم نظر أيمن ليحيى ثم لعمه وكأنه يطالبهما بإتمام الأمر والدخول في موضوع الخِطبة والارتباط،تنحنح حسان ليبدأ بالحديث:

- احنا يشرفنا يا عم الحاج عبداللطيف نطلبو يد عروستنا الحلوة لولدنا أيمن.

نظر الجد إلى حفيده نظرة طويلة وربما متفق عليها في مثل تلك الجلسات، ابتسم يحيى وهو يستأذن جده بالرد:

- دا شرف لينا والله يا عم حسان وأيمن ولدنا وأخونا بس نأجلو الموضوع سبوعين تلاتة لما نعمللكو زيارة ونسألو العروسة برضك.

أومأ حسان رأسه بتفهم وكأنها إجابة منتظرة، فمن عادات الزواج أن لا يتم القبول مباشرة حتى لا يُساء الظن بأهل العروس.

***

وقفت أمام المرآة تطالع وجهها، كانت طويلة القوام، غضة البَشَرَة، ممشوقة القد، تحتفظ بحيويتها ونضارتها، مررت يدها على بعض التجاعيد في وجهها، ها هي قاربت على إنهاء عِقدها الرابع بما فيه من أحداث وذكريات، وها هي الشعرات البيضاء بدأت تغزو رأسها.

كانت جميلة الملامح، ليست فاتنة، لكنها مريحة وهادئة، ابتسمت ساخرة وهي تضع يدها على بطنها الخاوية دائمًا ويد الأمومة العاجزة تربت عليها، كم عانت وقاست بسبب عجزها عن الإنجاب! فرت دمعة حزينة على خدها تحكي وجعًا وألماً لا يحتمله بشر، ليتهم أخذوا منها كل شيء وأعطوها طفلاً فقط، ليناديها...

«أمي»

مسحت دموعها بسرعة وهي تتذكر كم كانت تحب حسين وكان يحبها، فضلته على كل رجال القرية والقرى المجاورة الذين تقدموا لخطبتها رغبة في مصاهرة الشيخ شيخون ولِما تتمتع به ابنته من سمعة طيبة ولما لها من قبول في كل بيوتات الواحة، لأياديها البيضاء في المساعدة والمشاركة في الأتراح قبل الأفراح، فمن يتعامل معها يشعر بطيبتها وحنانها فينعكس على وجهها لتراها أجمل نساء الكون، لكن زوجها رضخ لرأي والده ليتزوج من تُنجب له الولد.

كبرياؤها منعها أن تقبل هكذا وضع فآثرت الانسحاب وعادت لبيت والدها، تنهدت بعمق حين تذكرت أنها بلا ذرية وحلم الأمومة الذي اشتاقت إليه وُئِد منذ زمن، ويد الله منحتها العوض في إخوتها وأبناء وبنات البغدادي فاعتبرتهم جميعاً أبنائها، على طاولة الزينة الخالية من أية أدوات للزينة سوى مكحلة، وقنينة عطر.

أمسكت بهاتفها النّقال لتطمئن على أخيها «فارس» مكالمة سريعة مقتضبة مفعمة باللهفة والاشتياق.

- كيف حالك يا فارس؟

- الحمد لله بخير يا خيتي طمنيني عليكوا وعلى الشيخ شيخون.

-احنا بخير يا واد أبوي خليك ف روحك وبعّد عن المشاكل.

تنهد بمرارة قائلاً:

- عمري ما سعيت للمشاكل يا وِصال وانتي عارفة إنما الحق والباطل عمرهم ما يجتمعوا في جوف مؤمن يا بت ابوي مش هو دا اللي اتعلمناه من الشيخ وحفظهولنا وشفناه طول عمره.

سكت قليلاً ليضيف بريبة:

-أبويا ماله يا وصال هو مرضان؟ راقد؟

تلعثمت قليلاً لتجيب عليه:

-أبدا يا اخوي ماراقدش، الضغط بس كان عالي شويتين اليومين اللي فاتوا فأنا وإبراهيم أصرينا إنه يريح في فرشته وما يتعبش روحه، اطمن يا حبيبي هو بخير وهيكلمك النهاردة، خلي بالك من نفسك، في رعاية الله.

أغلقت الهاتف بسرعة قبل أن تتزايد أسئلته وتتفاقم ريبته، دلفت إلى حجرة والدها دقت الباب وهي تناديه:

- صاحي يا بوي؟

فأجابها بحنان:

- ادخلي يا وصال.

ابتسمت وهي تنحني لتقبل يده:

- صباح الخير يا عم الشيخ، أخبار صحتك ايه النهاردة؟

أغلق مصحفه وابتسم لها:

- صباح النور يا ابنيتي يسعد صباحك وكل أوقاتك يا نضري.

تناولت الدواء من على المنضدة المجاورة له وهمست بخفوت:

- دوا السكر والضغط يابوي قبل ما تفطر الله يرضى عنيك.

قربت يدها بكوب الماء وحبات الدواء، ابتلعها وحمد الله على نعمه الوفيرة.

التفت إليها متسائلاً:

- ها أخبار العريس ايه يا بتي مليح؟ والله كان بودي أحضر القعدة البارحة بس ماقدرتش اقوم من فرشتي.

أشفقت عليه، فهو القوي الذي لا يحب الضعف، الصلب الذي لا يلين. شاركته الابتسام وهي تحكي له عن الاستقبال الحافل الذي لقيه هو وعمه، من عمها ومن يحيى.

عكفت وصال على خدمة والدها طيلة فترة مرضه تراعيه وتسهر على راحته.

***

سراج الخير يضيء بالخير، أما لهيب الشر فيحرق القلوب والأفئدة.

***

هرس عقب سيجارته بحذائه ووضع الكأس على الطاولة واسترخى في جلسته ليضيق عينيه وهو يحسب ثمار الصفقة، ملامحها القاسية استنفذت كل مرات التعقل والتريث فهتفت بغضب:

- جرالك ايه يا سي عاصم هو إحنا أكلنا ايه عشان نشرب عليهماية؟

اتفاق مشبوه وصفقة موسومة بالغدر والخيانة، تم الاتفاق على كل شيء، مخدرات «المعلمة دوابة» سيتم تهريبها داخل شحنة شركة البغدادي وبإسم يحيى!!

وهو ما شجعه على القبول، إضافة إلى مبلغ مالي ضخم من ذوات الستة أرقام، لقد كانت عمولة عاصم مليون جنيه.

- هو عيب لما نشوف النغنغة هتبقى ازاي ؟

وتابع بخبث:

- ما تخافيش يا معلمة أني وضبت كل حاجة زي ما اتفقنا الشحنة الجاية هتبقى خبطة العمر ورجالتك هتحط البضاعة جواها بمعرفتي ومساعدتي، تمام يا ست الكل؟

ضحكت برضا وهي تتمايل فيهتز جسدها يميناً ويساراً:

-تمام يا باشا.

زفر عاصم حانقاً:

- كل شي باسم يحيى وبإمضته يعني لو وقع محدش هيسمي عليه واهو نبقى ارتاحنا منه ومن عنتظته.

تبدلت ملامحها مرة أخرى وهتفت:

-لا لا مش عايزين كدا، احنا عايزين بضاعتنا توصل حضننا بالسلامة.

ومالت ناحيته قليلاً وأردفت:

- زين يا باشا.

دفع السائل الكحولي داخل جوفه دفعة واحدة ليجيب وهو يتمايل من تأثيره:

-زين قوي قوي قوي يا بوي.

***

والجراح إن نزفت فلا برأ لها إلا يد حبيب تطبب حين الألم، وتبتعد قليلاً حين الكسرة والوجع، ولا تكون أبداً سبباً في نزف جرح قديم أو تكون سبباً في جرح جديد.

***

سحب ملفاً يطالعه وهو يفتح حاسوبه النّقال، مبنى مترف بالنسبة للواحة ومن فيها. غرفة كبيرة، مكتب واسع فخم، مقعد وثير يتوسط الأرضية، سجادة ملونة، خزانة خشبية تحوي ملفات الصفقات الخاصة بشركة الغلال.

وجد رسالة من هاجر تطلب منه أن يمر بغرفتها بعد عودته ليتحادثا، نقرت عدة نقرات على شاشة هاتفها بعد أن أرسلت رسالتها ليحيى. ألقت هاتفها بعصبية، أغلقت عينيها بقوة وحاولت أن تتناسى صداع رأسها، فركت جبهتها بيدها. هي تريد أن تمحي الماضي من خيالها، تحاول أن تعيش مرة أخرى، لكنها كانت منذ أيام قليلة إلى الموت أقرب منها إلى الحياة، رفعت غُرتها عن بشرة عاجية رائعة، كانت تنظر إلى باب غرفتها كل دقيقة رغبة ورهبة، وحديث تخشاه وتخشى ردة فعل من حولها أو مواجهتهم.

أنهى يحيى عمله وعاد لمنزله، طرق باب غرفة هاجر.

حاولت التحكم في نبضات قلبها وتنفسها وهي ترف جفنيها بسرعة وتفرك كفيها بتوتر لترد:

- اتفضل يا خوي.

دخل يحيى وعلى وجهه علامات استفهام واندهاش:

- مالك يا هاجر فيكي ايه ؟ مرضانة يا خيتي؟!

أسرعت تطمئنه بحنان:

-لا يا خوي أنا زينة بس كنت عايزة أتحدت معاك في موضوعععععع.

وتوقفت الكلمات في حلقها.

- خير يا بت ابوي اتكلمي أني سامعك.

حاولت أن تلملم شتات نفسها لتبدأ في طرح قضيتها:

- يحيى أني ماعيزاش اتجوز دلقيتي.

وكأنما ألقت قنبلة في وجهه هتف غاضباً:

- ليه ؟ ليه يا بت الناس؟

- أني محتاجة وقت يا خوي أخرج فيه من أزمتي وأتغلب على المحنة دي، مش بالساهل علي اتحط في جواز والتزامات ومسئولية واني لساي ما فقتش من اللي اني فيه.

ربت على كتفها واحتضنها متفهماً ليرد عليها بابتسامة حنونة:

- يا ستي احنا حاسين بيكي وعمرنا ما هنكون حمل عليكي ولا هنسببلك ضغط من أي نوع

خدي وقتك عشان تتعافي وترجعي أقوى من الأول.

تهللت أساريرها وتنهدت بارتياح:

- صحيح يا خوي؟ كتر خيرك يا يحيى عمري ما هنسى وقفتك جنبي يا اخوي.

مسد شعرها وهو يعيد ترتيب خصلاته المتناثرة.

- أني عارف انك دلقيتي مشتتة وف مرحلة عدم اتزان وصعب تاخدي قرار بس طلب من أخوكي اللي بيحبك ماتطوليش في المرحلة دي اتجاوزيها يا هاجر وعديها وكمان ايه المانع انك تدي فرصة ليد عفية تاخد بيدك وتساعدك انك تقومي وتصلبي طولك.

مال عليها بحنان ليضيف:

- وصدقيني يد أيمن فيها صدق ورجولة أشهد بيهم، ما تاخديش قرار بس فكري إن دي فرصة كويسة وفكري كمان إنها فرصة لينا كولاتنا.

نظر بعمق إلى عينيها وأضاف:

- فاهماني يا هاجر.

أومأت رأسها بالإيجاب فقام متجهاً نحو الباب وقبل أن يغادر مازحها:

- الخطوبة مش جواز يا بت أبوي دي فرصة تتعرفوا على بعض أكتر وتقربوا من بعض ولو ما عجبكيش يا دار ما دخلك شر.

ابتسم لها مطمئناً ورحل، تركها تفكر بالأمر.

خرج من حجرتها ليجد سندس تنحني تعدل من وضعية المفارش وترتبها كل في موضعه، وقف يراقبها بحنان دون أن تشعر، اعتدلت لتجفف حبات العرق المتساقطة من جبينها بكم ردائها وتتنهد بإرهاق ثم تلفتت حولها لتراه أمامها وتهتز صورته وتدور بها الدنيا فتسقط مغشياً عليها!

تلقفها يحيى بخوف وهلع وحملها بين ذراعيه ليضعها فوق الفراش وهو يهتف بأعلي صوته منادياً أخته فاطمة، ولما لم ترد بدأ ينادى على الجميع وبدأ بجميلة.

التي سارعت لتلبيته وأحضرت كوب ماء وما إن بدأ يحيى في إفاقتها حتى حضرت الدكتورة فاطمة التي سارعت بقياس ضغطها وعد نبضاتها ثم حقنتها بدواء ما جعلها تغط في نوم عميق.

هتف يحيى:

- مالها يا فاطمة طمنيني.

خلعت السماعة الطبية عن أذنها ورفعت عويناتها الطبية إلى أعلى ثم سحبت يد يحيى لتخبره بصوت خفيض:

- الضغط وحش قوي يا يحيى والهزال اللي حداها دا نسبته زادت جداً.

ثم أضافت بتردد:

- بيتهيألي الأفضل نعملولها فحوصات وتحاليل عشان نطمنو.

سارع يحيى مجيباً وموافقاً:

- نعملولها كل حاجة يا فاطمة بالله عليكِ وفي أحسن مستشفى.

ثم أودع سندسته قبلة على جبينها وهو يحبس دموعه:

- انتِ ماتعرفيش سندسة غالية عندي قد ايه.

***

القيود التي نحاول الخلاص منها تتسبب في إيلامنا مرة بعد مرة، ولكننا نعاود ذات الأمر ظناً منّا أنها سبيل انعتاق وأن الحرية تقف على الأعتاب، لنُفاجأ بالنهاية أن تلك القيود والأغلال لم تكن يوماً سبباً في العذاب.

***

مر الوقت حتى بدأت الشمس تختبئ خلف الظلال وهجم الظلام بقسوة على كل البقاع، قامت من مكانها تغشاها النقمة وتحمل في نفسها من الحيرة والصراع ما تنوء منه الجبال، فهي إن ارتضت عرضه بالزواج سيكون هذا وأد لأحلامها بانعتاق من تلك الحياة، سيورطها بالنهاية في فخ البقاء.

رقية التي تكره الواحة وما يمت لها بصلة كيف تقبل بمن يربطها بها!؟ ما كان يحز في قلبها وتعاتب نفسها عليه عتاباً عظيماً، هو يقينها من صدق مشاعره وشكها فيما تبديه من مشاعرها فهي دائماً ترتاح له ولحديثه، هي شغوفة به، تفرح لقدومه وإن كانت تُخفي تلك الأمور.

ربما تحبه؟

هزت رأسها بعنف.

« لا، لا لن أقبل، لن أفعل، لن أسايره، سأرفضه بكل قوتي وسأرفض كل ما يقيدني بهذا المكان وهذا البيت سأبتعد عنه وعن كل شيء»

أرسلت بصرها متسللاً للقادم هناك ثم هتفت:

- مين هناك؟

كانت جميلة تبحث عنها لتتناول الطعام مع يحيى فهو يحب أن يجمع الأسرة كلها على العشاء مع غياب الجد والجدة بعض المرات لتناولهما عشاء مبكراً خفيفاً يتناسب مع حالتهم الصحية.

تقدمت جميلة تستكشف أمرها بعد أن لاحظت شرودها، ردت بمزاح:

- أني مرت أخوكي اديني الأمان يا ملكة المكان والزمان.

ضحكت رقية لمزاحها فهي بالفعل تحب جميلة لنقاء سريرتها وطيبتها المتناهية:

- تعالي يا جميلة عليكي الأمان قولي بسرعة عايزة ايه؟

وانفجرتا بضَحِك جلجل حديقة المنزل، أمسكت جميلة بيد رقية تجرها بسرعة:

- الوكل عيبرد وأخوكي هيطين عيشتي عشان تنبسطي.

استجابت رقية لهرولتها وهي تهتف:

- يطين عيشة مين يا قمر أنت، وهو غرقان في حبك يا حلو يا اسمر.

احمرت وجنتي جميلة وصاحت في رقية بحركة كوميدية وهي تشير بكفها في وجهها تخميسًا :

- أهو قركوا علينا دا اللي عيودينا ف داهية يا ساتر عليكو وعلى عينيكو.

ضحكت رقية وقالت:

- ماشي ياعم بتخمسي في وشي مسيري أضربك عين أخلي يحيى يرزعك علقة يكسر فيها عضمك.

أكملت جميلة مزاحها مخرجة طرف لسانها لتغيظها:

- مهما تعملي عمره ما هيكرهني هو اللي بيتزرع في القلب بيطلع بالساهل.

وكأنها نكأت جراحها بتلك الكلمة فغامت عين رقية بألم وحزن، دفعت جميلة باب المنزل لتلج وخلفها رقية فاقتربت من أذنها وحدثتها بخفوت:

- حرام عليكي يا رقية اللي بتعمليه في إبراهيم وفي نفسك، خايفة عليكي لتندمي وتضيعيه من يدك فكري زين يا اختي الله يرضى عليكي.

أومأت رقية رأسها بالإيجاب منهية الحديث وقد وصلتا إلى غرفة الطعام.

***

جلس في مكتبه مُتململاً في مقعده، يرتشف من فنجان قهوته بعصبية، رشفات متلاحقة يحاول أن يبدد الحيرة من رأسه وينزع القلق من عقله، ثبت عيونه على شاشة هاتفه علّ خبراً منتظراً يريحه ويخرجه من تلك الدائرة التي وضعتهم فيها السيدة دلال.

خبط سطح مكتبه بقبضة يده هاتفاً بحنق:

- هتكون راحت فين دي؟

ثم علت حدة نبرته وصاح زاعقاً:

- راحت فين؟

لقد سرق الأوراق الخاصة بممتلكاتها كي يساومها عليها أما الآن فهي مجرد أوراق لا قيمة لها

فماذا يفعل؟

عاود الاتصال بأماني فقد يكون لديها خبرية جديدة عن مكان والدتها.

-ها يا أستاذة أماني وصلتوا لحاجة؟

أجابت بضيق:

-أبدا يا أستاذ أحمد كأن الأرض انشقت وبلعتهم.

زفر بغيظ وغل:

-يا ستي اسألي عند قرايبكم ومعارفكم وجيرانكم، أقولك ماتسأليش ممكن تكون موجودة وهما بينكروها، طبي عليهم وفتشي كويس كل مكان محتمل تروحه.

أنهت حديثها قائلة:

-حاضر إن شاء الله.

-٧-

ليس كل ما تتمناه يا قلب تدركه، تلك معادلة الحب العصية بل المستحيلة.

السماء الصافية في الصباح الباكر لم يلوثها شيء من أفعال البشر، حتى ما حيك بليل أشرقت شمس الصباح فطهّرته وتطهرت منه.

وحدهم خفافيش الظلام مَن يصرون على المعاصي والآثام ليل نهار، تفوح من ثيابهم رائحة الخيانة، فالكثير والكثير من الخطايا تدبر بليل، تدور مع الكؤوس لتغشى الأبصار وتذهب بالعقول من الرؤوس، فيضيع الرشد مع الوعي ويتملك الحقد زمام الأمور، طبقات من الكراهية التي تتراكم بالقلب، وإصرار قوي وأعمى على الانتقام فتضيع البراءة وتذهب الطيبة إلى لا رجعة.

وبين الحقد والغضب يضيع البشر وتؤكل الحقوق وتغيب الضمائر فتضيع الحياة.

***

هي تريد أن تمنحه السعادة الكاملة ولو اقتطعتها من عمرها، حبها له ليس له حدود وخزيها منهم فاق كل الحدود.

أن تذبل الورود وتجف أوراقها أمر يسير، فستنبت زهورًا أخرى أينع وأجمل، أما أن تعطب الجذور وتفسد في قاع التربة فتحترق ويحترق معها

كل شيء، السوق والفروع والأوراق والزهور، إنها الحالقة التي لا تبقي ولا تذر.

وستبقى تبعات صنيع الآباء علقماً يتجرعه الأبناء.

طافت برأسها الخواطر وقد انفرط عقد الذكريات، كانت تراقب ملامحه المنقبضة وهو يتابع شاشة حاسوبه، كانت متوترة خائفة عليه بل مشفقة، أما هو فكانت تلوح بعينيه نظرة حائرة ضائعة هو يستشعر خطراً ما لا يدري كنهه أو وصفه.

اقتربت تربت على كتفه برفق فالتفت إليها، كانت عيونها متسائلة قلقة، قالت بصوت واهن:

- مالك يا يحيى؟ حصل حاجة في الشغل؟

مسح وجهه بكفه بإرهاق وتعب ولم يرد، وضعت يدها على صدرها وشهقت:

- كانها حاجة واعرة قوي قوي.

طمأنها بابتسامة رقيقة:

- أبدا شوية مشاكل وهتعدي بأمر الله.

اعتدل ليمسد جبهته بإبهامه وسبابته وأضاف وهو يغلق شاشته:

- انتِ ايه اللي مصحيكي وقالقك دلوقتي؟

اقتربت لتجاوره على الأريكة هاتفة بمرح ونبرة مشتاقة:

- واني من ميتى بنام بعيد عنك.

ضمها محتوياً قلقها وتوترها، فهي تعلم أن هناك أمر يشغله، أغمض عينيه في صمت لحظات بدت وكأنها حياة يبحث عنها بعيداً عن الضجيج في رحلة بحثه عن السكينة.

هي تعرفه، تدرك لفتاته وانفعالاته، تعلم ما يحبه وما يبغضه.

نظراتها المريرة له تحمل دائماً تفهماً لردود أفعاله وتقبلاً لجميع أحواله، كانت تحاول أن تشفي بعض الجراح بمزيد من الحب علّها تبرأ.

في صباح ذلك اليوم حين تقدم إليه أحد رجاله بانفعال سمج مقترنًا بثقة من مكتبه ليعرض ما لديه من أخبار جديدة توصل إليها أثناء مراقبته لعاصم.

- أيوا يا باشا عرفنا مين ورا الحكاية دي، وفي معلومات إن الشحنة الجديدة هيبقى فيها مشكلة كبيرة.

مرر غضبه بخبطة قوية من قبضته على سطح مكتبه.

- المهم التفاصيل، ماعيزش حاجة تحصل بعيد عن عيني، أني عارف مين ورا الحدوتة ومين بيحفر ورايا، عايز بقى معلومات أكيدة.

مطّ شفتيه بلا اهتمام وهو يرتشف قهوته على مهل ليستمع للمزيد.

- أيوا يا يحيى بيه معلومات أكيدة إن «عاصم» بيدبر ويوضب تهريب ممنوعات في الشحنة الجديدة والكلام دا من عيون لينا ف بيت « دوابة».

بإشارة من يد يحيى الذي شرد لحظة قبل أن تومض عيناه ببريق انتصار أعاد له كل خيوط اللعبة مرة واحدة. مرّت بخاطره كل الذكريات السيئة وكل التصورات المستحيلة وكافة أنواع الانتقام المباح والغير مباح.

استقر في سيارته بعدما فرك جبهته بتعب، البطل لا ينتصر بالضجيج ولا بالثرثرة، بل بالحكمة والقوة، والشر يلزم لمحاربته قوة أكبر منه.

استقبلته بابتسامة عذبة وحين رأت تجهم وجهه تسارعت دقات قلبها بقوة حتى تهدجت ضلوع صدرها وأوشكت على الانفجار، شهقة خافتة فرت منها بينما هو يشير لها أن تبتعد عن طريقه.

«حُسنة» التي لم تعرف من الحياة سوى الأخذ فقط لم تعطِ يوماً قط أي شيء، ترتدي دوماً العباءات الكتانية السوداء ويزين معصميها العديد من الحُلي والأساور الذهبية

التي تُصدر صليلاً كلما حركت يديها اعتاده الجميع حتى اشتهرت به، دائماً تعقد رأسها بوشاح متعدد الألوان، نحيفة، قصيرة مكيرة، وهو الانطباع الأولي حين تقع عليها عيناك، أما إن تحدثت فإنه شر مستطير وهم ثقيل.

جلست على الأريكة الخشبية في بهو الدار تراقب المار، الراحل قبل القادم، تقلب وجهها في كل شيء بغير رضا.

أما هو؛ فرأسه مزدحم بأفكار كثيرة وأحداث أكثر تتسرب عبر شقوق ضيقة من نافذة عقله.

دفع يحيى المائدة بغضب فانقلبت وتناثرت الأقداح والصحون التي تعلوها، ليتهدج صوته مخاطباً عمته «حُسنة» وهو يتفحصها:

– فين جوزك يا عمة؟

أسرعت جميلة تقف بينه وبين أمها تمنع تصادماً قريباً على وشْك الحدوث، عيناها مشوشة بدموع حارقة، أما هي فقد مصمصت شفاهها بامتعاض:

- وانت دخلك ايه بجوزي؟ عملك ايه ماهو في حاله وأنت ف حالك.

زفر يحيى بيأس وحدجها بنظرة مشتعلة:

- للأسف هو بيتدخل ف حالي وعايز يودرني ف مصيبة تقيلة.

لم يكن ثمة تفسيرًا منطيقاً لتلك النظرة القاتمة بعيونها، هو بالنهاية لحمها ودمها، ابن أخيها، لِمَ تقبل أذيته والنيل منه؟ حتى لو كان هناك مبرر أو داعٍ في قلب زوجها.

حقد، غيرة، كراهية، طموح، طمع، جشع.

مترادفات تملأ قلبيهما تجاهه، هذا ما رآه تواً في عينيها وإن كان متشككاً فيه من قبل،

لكنه متيقن منه على الأقل تجاه زوجها.

الطعنة تكون أكثر قوة وأشد وجعًا من القريب.

هبّ من داره متوجهًا إلى مقر الشركة وبعقله فكرة واحدة؛ كشف الحقيقة. وقبل أن يغادر أطلق عدة تهديدات في وجهها متحاشياً النظر إلى نقطة ضعفه الواقفة بجواره، يسمع نحيب قلبها ويُدرك هلع نفسها وانعدام توازنها.

- أني هخليه يندم على عمايله السودة دي.

وأقسم أن يرد له شره بشر أكبر منه حتى لو تجاوز كل الخطوط الحمراء، فولّيى مدبرًا ولم يعقب، بل اختفى في ظلام أفكاره وظلمة ما حاق به وغيمة جاثمة فوق عينيه بمحاذاة قرار تأخر كثيراً ولكن لا مناص منه.

بينما وقفت جميلة ترمق المتّشحة بالسواد نظرات متوترة متسائلة معاتبة، وعيون أمها تومض بشرار مخيف لتنسحب ببطء في مرور يشبه انسحاب أفعى.

***

الوقت طبيب ماهر، حبيب حنون.

الوقت رفيقه الصبر كي يمضي.

كفيل هو بتطبيب الجراح وتلك الرحمة الكبرى.

وهو سؤال الأرواح التي طالما طرحته، لم تعرف الكلل أو الملل أو العجز، أهوالك الكبرى من الحياة إن تسلمتها برضا كان على المولى أن يهبك رحمات المقادير.

انتفضت على صوت سيارة تقف فجأة يُفتح بابها ويلقيها أحدهم على جادة الطريق تحاول أن تصرخ لكن صوتها محبوس في صدرها، تبكي، تتأوه، ترتجف برعب وهو يشدّ وثاقه عليها أكثر فأكثر.

شل الرعب أطرافها وانقض عليها صاحب الوجه الغليظ بأسنانه الصفراء، حاولت الفرار لكنه جذبها وطرحها على الأرض فسقطت في قبضته.

وحش في صورة إنسان، هتفت تتوسل إليه تستصرخ بقايا إنسانيته المهدورة وأنوثتها المغدورة.

ولا مجيب، مزيد من الانتهاك لآدميتها ليبتلعها ثقب أسود ويسقط الزمن ويضيع العقل وينتحر المنطق، ينتزع ما تبقى من ثيابها وهي تحاول التمسك بها تتوسله أن يدعها.

تصرخ، تصرخ، تصرخ، لكنه يحكم سيطرته عليها ويحتلها برائحة عرقه الكريه المصاحبة لرائحة أسنانه الخانقة وقسوة رغبة محمومة، ثم ضياع.

يحتد نشيجها وتتلبسها شجاعة اللحظة فتغرس أسنانها في عنقه بعد سيل من سُباب وأظافر غُرست بوجهه تقتلع الجلد واللحم فينزف الدم من وجهه وتنبثق دماء غزيرة أخرى من رقبته.

كانت تتمنى أن تقتله ألف مرة حين خر صريعاً وهي تُلملم بقايا ملابسها وشرفها وعِرضها.

كان يخور كثور ذبيح به بقايا أنفاس، وفجأة! فتح عينيه ومدّ يده محاولاً الوصول إليها، لكنها وبكل قوة أمسكت بحجر ضخم وهشّمت به رأسه لتتناثر الدماء على وجهها وفي كل الأرجاء.

فتشهق بفزع وتصرخ بقوة صرخة عالية، أفزعت كل سكان المنزل بعد أن خلعت قلوبهم، تفتح عيونها لتجد نفسها على فراشها وفي حجرتها.

الشيء الوحيد الحقيقي الذي لمسته بيديها هو ذاك العرق المتساقط من جبينها ومن جسدها حتى بلل ملابسها.

لقد كان كابوساً جثم على صدرها طويلاً وها هي تستقبله كل مساء، كان أول من وصل إليها «رقية»، التي سرعان ما احتضنتها لتخفي هاجر وجهها في صدرها وتعاود البكاء الذي لم ينقطع.

- بسم الله الرحمن الرحيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. قومي يا هاجر، قومي يا ختي انتي بتحلمي.

هزّت جسدها الذي ما زال ينتفض بقوة على الفراش ثم ضمته، وتوالى باقي أفراد العائلة يطمئنون ثم يرحلون.

ألقى إليها يحيى طمأنة في كلمات قليلات:

- استعيذي بالله من الشيطان الرجيم وقومي اتوضي وصلي ركعتين على ما الفجر يأذن وتصلي، وادعي إن ربنا يثبتك ويخفف عنك.

ثم وجّه حديثه إلى رقية:

- خليكي جارها ماتفوتيهاش يا رقية.

أومأت برأسها بالإيجاب.

الحياة أحجية عسير فك طلاسمها، نظل ندور حولها نبحث عن حلول لما استعصى وفرجة لما استحال من المغاليق، حتى إذا فتحت الأبواب وانكشفت الحُجُب وسطعت شمس الحقيقة واستبان نورها لم نستطع مواجهتها.

طوفان من الأسئلة التي لا إجابة لها، رد واحد من الطبيب:

- هي محتاجة جلسات نفسية وعصبية كتيرة لحد ما تتعافى.

كانت حروفه جافة موجعة مؤلمة بل قاتلة.

تخللت أنامله خصلات شعره بقسوة فهو لا يعرف أي جبهة يقاتل فيها أولا وقد فُتِحَت جميعها في وجهه مرة واحدة.

***

الطريق على جانبيه كله أشجار، وهي ترمقها فقط، شجرة تحدثها وأخرى تضحك لها، وثالثة تودعها، وتلك التي تبكي من أجلها. هي بصمتِها تظن أن الكائنات حولها تتحدث، كانت تحادث الجمادات كلها عدا البشر، وتظن أن حياة كاملة تدور مع الجمادات حولها، فتلك المنازل تركض خلفها أما العربات فتتصارع بجنون تلكُم إحداها الأخرى.

في مستشفى قنا تم نقل سندس بعد أن تدهورت صحتها مما زاد الألم على يحيى، لكن «فاطمة» وعدته بمتابعة حالتها والعناية بها.

تجمعت الدموع في زاوية عينيها فألجمتها ببسالة وامتدت أصابعها النحيفة لتمسك بكتاب تقرأ منه.

الرضا ليس دائماً عن قبول، ربما كان هو الخيار الوحيد المتاح، اختارت الرضا منذ كانت طفلة تلهو في دار «البغدادلي» فما فُرِضَ عليها تقبلته برضا وواجهت نفسها الجامحة فكبحت تهورها وتعقلت وتريثت، لتثبت للجميع بالنهاية أنها أفضل من الذكر وأنها أنثى ناجحة جديرة بالاحترام.

امتدت أناملها لتضع الكتاب جانباً كما وضعت كل المعوقات والمثبطات جانباً. واختارت النجاح والتفوق.

انتهت العملية الجراحية، دفع باب غرفة العمليات بكتفه وهي تتبعه، توجها ناحية المَغسل، فتح صنبور المياه بعد أن نزع قفازه الطبي عن يديه.

غسلهما عدة مرات لتلحق به وتفعل ما فعل بالضبط، وهتفت بنبرة إعجاب وهي تناوله منشفة:

- ما شاء الله عليك يادكتور أنا قلبي كان هيقف لما النبض قل.

اعتدل في وقفته وحدّجها بنظرة قوية ثابتة:

- لازم تبقى واثقة في أستاذك مهما حصل.

طول قامته ونحافته الشديدة مع الشيب الذي غزا مفرقه يجبرك على الإعجاب به إن أضفت سجلاً حافلاً من النجاح والتميز في كل شيء. توقفت لتنزع كمامتها وغطاء الرأس الطبي.

فأردف بعجالة وثقة:

- بقية المحاضرة الجاية هتشرحلك إن اللي حصل أثناء العملية كله طبيعي ومتوقع.

تبادلا النظرات، ثم خلع نظارته وفرك أنفه بتعب، ثم سألها متابعاً الحالة التي أحضرتها اليوم:

- عملتي الفحوصات اللازمة لحالتك؟

أجابت بسرعة:

- حضرتك تقصد سندس؟ جارِ عملها يادكتور وهاعرضها على حضرتك بأمر الله.

أومأ برأسه ثم انسحب تاركاً لها ما تبقى من خيالاتها عن ماضٍ صعب ومستقبل غامض. مالت بعينيها النديتين لتطالع شاشة هاتفها النّقّال بعد صدور إنذار برسالة جديدة.

تنهدت بحيرة فهي لا تعلم سر الرسائل التي تصلها كل يوم!

«قرص الشمس يكتمل ويدير، والأذان يصدح: الله أكبر.

يوم بدونك حزين أغبر، يغالبني الحنين أكثر وأكثر.»

ابتسمت في شرود، فتلك الرسائل بقدر ما تثير قلقها وغضبها لشدة غموضها، بقدر ما أصبحت تنتظرها بشغف وكأنما تُذكِّرها أنها لا زالت على وجه الحياة لم ترحل.

***

لكل نفس هوى يغلبها حيناً وتتغلب عليه حيناً.

وفي قانون الحب؛ العين بالعين، والقلب بالقلب، والكف بالكف، والغادر أظلم، والبادئ أرعن.

***

قلبه يهفو لبعض وصال، لكن ثمة رجولة وكرامة لن تُوأد ولو في سبيل الحب، وحقيقٌ على قلبه أن يهدأ، فهو العاقل الرزين.

هو من النوع الذي إن غاب حضر، مرّ أسبوع كامل افتقدته كما تفتقد بوصلتها، تشعر أنه يتجنبها تمامًا، وبحدس أنثى هو يعاقبها.

ترى عبوسه المفتعل كلما مرّ بجانبها، وتراقب انفعالات وجهه الخالية من أي تعبير سوى الجمود. أصبحت هي من تتمنّى محادثته، كم اشتاقت للهفته لتعرقه، وتردده، حتى تلعثمه وتخبطه كلما اقترب منها.

تخشى أن تواجه نفسها، لكنها تدرك بالنهاية أنها تريده، لكنه يتحاشاها ولم تكُ تلك القضية، القضية أنها كانت تصارع نفسها بين المواجهة والاعتراف

بحبه، وبين الهروب والتمسّك بحلمها القديم في الفرار من الواحة وكل ما يربطها بها.

الحب الذي تعرفه لهفة وشغف.

وهي لا قِبل لها بشغفه، ولا تقدر على لهفه.

آهة خفيضة أودعتها حسرتها وحيرتها لتشهد على عذاباتها وتنهي حربها مع نفسها لتعترف بحبه ولو بينها وبين نفسها، وتدفن رأسها في وسادتها هامسة:

- أيوا بحبه.

***

دخلت «أم صبحي» متجراً لبيع الهواتف النّقالة لتشتري للسيدة «دلال» هاتف وشريحة جديدة،

وأثناء حديثها مع البائع؛ دخل شاب ووقف منتظراً إنهاء الحوار الدائر بينهما.

وكسيدة بسيطة لا تفهم كثيراً في وسائل التكنولوجيا الحديثة منحته ابتسامة ودودة قبل أن تميل نحوه لتسأله عن الهاتف بهمس وخفوت:

- النوع دا كويس يا ولدي؟ إيه رأيك؟

قلّبه بين يديه وأومأ مجيباً:

- ايوا دا عملي جدًا ومتطور.

شرح لها ببساطة كيفية استخدامه، فطلبت منه تثبيت الشريحة به وشكرته قبل أن ترحل:

- شكرًا يا ولدي، الله يرضى عليك يا ....

رد بسرعة البائع ليقدّمه كما يليق به:

_دا دكتور «فارس» يا خالة.

شهقت بفرحة وكأنما وجدت ضالتها،

- دكتور؟

رد بتواضع وهو يبتسم:

- لسه يا خالة طالب في كلية الطب.

فكّرت أنه قد يساعدهم في متابعة حالة «عُلَا» أو حتى يدلهم على طبيب جيّد:

_ممكن يا ولدي تتفضل تشرب الشاي حدانا؟ عشان عايزة أوريك حالة مريضة محتاجين دكتور زين يتابعها ولو تقدر تساعدنا، وفي كمان حقن كل يوم و...

سكتت بإشارة منه وقد أومأ برأسه مجيباً:

- تحت أمرك يا خالة، اتفضلي أني جاي معاكي.

كان «فارس» متحمساً لكل شيء؛ لمساعدة الناس، لفعل الخير، للرياضة، كحماسته للقضايا االسياسية. فهو يتحدث عن العمل الخيري كما يتحدث عن الأقصى، ينفعل لمباراة كرة قدم كما ينفعل لقضية فساد الدول.

ميزانه في كل الأمور؛ ما كان لله دام واتصل وما كان للناس وهن وانقطع.

***

الظلام الذي ملأ القلوب لينعكس على الواحة، وليلٍ بارد مخيفٍ قاسٍ.

ليت الحياة تمنحنا فرصة لانتزاع القلوب القاسية وغرس أفئدة غضة وليدة لا تعرف الغل والحقد، ليت الطيبون بقوا بجوارنا ولم يتركونا ككل شيء جميل مضى.

ليتهم تركوا ظِلّهم وظِلالُهم ولم يأخذوها معهم ويتركونا في متاهة وليل لا صباح له.

***

تطلّع إلى ساعته التي تجاوز وقتها بعد منتصف الليل، تلفّت بحذر مستكشفاً المكان،زفر بقلق حتى وصل إلى مدخل المنزل وصولاً إلى الحديقة الخلفية، كان متعمدًا الوصول في وقتٍ كهذا؛ ليتسنى له مراقبة كل شيء وسماع الحوار الذي ينتظر سماعه.

سار بمحاذاة الجدار، اضطّر للانتظار والوقوف طويلاً، كان موقناً أن ثمة ما يُدبر خلف الجدران ووراء الأبواب المغلقة وما يُحاك في سواد الليالي المظلمة.

اِشرأبَّ بعنقه ليستطلع الأمر خلف شرفة البهو الكبير التي كانت خاوية تمامًا

فالكل نيام. عاد إلى وضعيته مرة أخرى ولم يملك سوى الانتظار.

شرد قليلاً، ربما كان عليه المواجهة ولكن لا بأس، لا بد من دليل دامغ فلا تكفي مجرد معلومات، هو يريد براهين لا يمتلكها البتّة.

كان في قمة التعب والإرهاق والتوتر، أسند ظهره إلى الجدار ودس كفيه في سترته وبقى في دائرة الحذر.

تلقفت أذنيه صوتًا قادمًا عبر البوابة الرئيسية، خُطى تترنح، هذيان ودندنة متقطعة.

عقد حاجبيه وهو يسترق النظر من وراء الجدار.

***

- ٨ -

وليس أصدق من أحاديث القلوب.

***

هي تحفظ طقوسه الخاصة عن ظهر قلب فبعد صلاة الفجر يعود من المسجد يتناول بضع تمرات كما كان يفعل جده وأبوه بالضبط، ثم يتناول قدحاً من الشاي الأخضر. وحين يستيقظ صباحًا يأخذ حمامًا دافئاً ويتناول فطوراً خفيفاً.

المذياع على إذاعة القرآن الكريم، وينصت بشغف لتفسير الشيخ «الشعراوي» لآيات كتاب الله، وقد يأخذ قهوته مع الفطور أو يمهلها حين يذهب إلى مقر عمله.

تعد له جميلة طعام الغذاء وقبله تسأله حبًا ولهفة لا تتصنعها:

– ماذا تريد اليوم؟

فهي لها فلسفتها الخاصة في إعداد الطعام، هي تحب من تصنعه له بل تعشقه، لذا فهي تعشق المطبخ وأدواته، تعشق الأواني والصحون والملاعق، تعشق الموقد والمبرد والخلاط، تعشق الخُضَر والتوابل، تحادث الطعام وهي تعده، تخبره بمكنونات قلبها وما يعتمل في فؤادها، تبثّه لواعجها وتصارحه بقلقها وريبتها.

حين تُعد له كعكة التُّفاح؛ تمسك قطع الفاكهة وتُشهدها على حبها، ثم حين تهم بتقطيعها تُسائلها: هل تحبين أن تكوني قطعاً صغيرة لتذوبي في فمه؟ أم قطعاً كبيرة ليراكِ ويشعر بكِ؟ لا بأس عزيزتي، ستكونين قِطعاً متوسطة حتى يسهل نضجك وتأخذين لونًا جميلاً يحبه. ثم تمسك العجين وتقرّبه من صدرها تبثه شوقها وشغفها وما يعتري قلبها من قلق وخوف.

تحدثه: – قل لي بالله عليك قبل أن تختمر: ستبلغه متى أني أحبه؟ في القضمة الأولى؟ لا يا سيدي، انتظر حتى تذوب بين شفتيه وتصل حلاوتك جوفه ثم أخبره أني لا أستطيع العيش بدونه، وأني أخاف عليه من الهواء.

هيّا بالله عليك اختمر ولتعلو وتنتفخ حتى تعجبه وليكن مذاقك حلوًا كحبي له.

انقطعت أفكارها عندما هتف باسمها فالتفتت بلهفة قبل أن تتعلق بذراعيها مطوّقة عنقه بحنان فريد وقد تهدج صوتها باحتياج يفضح إحساسها بخوف من المستقبل:

– يحيى.

وكأنها تؤكد لنفسها أنه هو وأنها بين جناحيه، ضمّها بقوة.

همست برجاء يقارب التوسل رهبة وخشوعًا، بادلته النظر بعين الرضا لترتسم على شفاهها ابتسامة تحمل الأمان وتُغطي شحوب أفكارها وقساوة الأحداث:

– اتأخرت قوي وقلقت عليك.

-مالك؟

قالها يحيى وهو يمسك بذقنها ويرفع وجهها كي يرى عينيها بوضوح، هزت رأسها وابتعدت برفق تحاول التماسك أمامه:

-مفيش.

نظر لعينيها طويلاً ثم قال بنبرة حب مقترنة بحنان:

-ما بتعرفيش تكذبي عليا يا جميلة.

أغمضت عينيها بقوة دون رد، فأردف وهو يكز على أسنانه:

-انتِ سمعتي حاجة؟

هزت رأسها نافية، ليهتف بغضب وهو يلوّح بسبابته في وجهها وبنبرة قاسية:

-مالكيش صالح في اللي هيحصل واوعاكي تتدخلي في أي موضوع.

جلس على حافة الفراش منفعلاً وكان الدم يغلي في عروقه كلما تذكر ما سمعه .

جثت على ركبتيها ووضعت يديها على رجليه وبدأت تنزع جوربه بهدوء وحنان،

-أني خايفة عليك أنت يا يحيى.

صمتت قليلاً ثم أردفت بنبرة ملتاعة وهي تقترب منه أكثر:

-خايفة عليك وخايفة منك.

تهدج صوتها في الجملة الأخيرة ليتحول إلى شهقات باكية.

ضمّها إلى صدره وهو يشعر باضطرابها أكثر من أي وقت مضى، هي لا تريد للأمور أن تتطور أكثر من ذلك، فهي الخاسرة الأولى والأخيرة فيها.

غرست وجهها الباكي في صدره وأكملت نشيجها بحرقة وهي تقول:

-ما تحملنيش فوق طاقتي يا يحيى، أنى مش هقدر أشوفكم بتتعاركوا تاني.

صمت وصمتت وهو يربت على كتفها ليُهدأ انفعالها ويحتويها ككل مرة، زفر بقنوط.

ما أشبه الأمر بمطرقة تهوي على رأسه فجأة ودون سابق إنذار، ليرتد بصره فيجد الطعنة قادمة من أقرب الناس إليه.

***

البداية كيف تكون والنهاية تقفز إلى المشهد بغتة.

***

فتحت صِوان ملابسها لتستخرج ثوبًا مميزًا، هي ترى كل الثياب قديمة، قبيحة، لا شيء فيها مبهر أو مميز.

شعوران عارمان يكادان يعتصران قلبها؛

البقاء أو الرحيل.

الحب أو الكره.

الأمان أو التيه.

الحرية أو الأغلال.

الصفح أو الانتقام.

أحدهما يرجوها أن تبقى معه، تصارحه بحبها، تبادله حباً بحب وقرباً بقرب وشغفاً بشغف.

والآخر يلومها على ضعفها واستسلامها، ويحذرها من مغبة الإنسياق وراء عواطفها. هي تود أن تكون حرة طليقة لا قيود عليها وإن كان ثمة رجل، فليتوجها ملكة لا يجرها كأمة متبوعة ذليلة.

***

هو ذاك الحب الذي

إن استأمنته خانك،

إن اشتريته باعك،

إن صدّقته غدرك،

وإن تملكك أهلكك.

***

كانا يقفان على ضفة الحب بين بحرين، أحدهما يريد الالتقاء، والآخر يفر منه فراره من الأسد.

ما الذي يقف بينهما؟

سمحت لشلال ماء بارد أن يهبط على جسدها بقوة، جسد نحيف، تضاريس تمنحها لقب أنثى بامتياز، وقلب يصارع الحياة.

زفرت زفرة قصيرة لململت شعرها المتناثر بخصلاته المبتلة كما لململت شتاتها.

ارتمت على الفراش وغطت وجهها، تذكرت حينما كانت طفلة صغيرة كانت تختبئ تحت الغطاء، تضم جسدها بذراعيها تلتمس الأمان الذي فقدته، بعيداً عمن حولها، حضنها الحنون هو كل ما تحصلت عليه.

***

لِمَ نحن أكثرَ هشاشةً في المساء!

لِمَ تنتظرُ الجراحُ أن يحلَ الظلام ...وتبدأ بالعويلِ والصراخ!؟

لِمَ تصرُ تلكَ النُدبةُ على الارتطامِ مجددًا كلما التأمت تعاودُ النزفَ من جديد؟

لِمَ نَبكِ من أتفه الأشياء بينما نبتسمُ للمصيباتِ العِظام!؟

لِمَ لَمْ نعُد نضحك مِلأ قلوبنا؟ بل كل ما نستطيعه ابتسامة صفراء.

لِمَ تُهاجمنا ملايين الأسئلة التي بلا إجابات؟

***

كانت تقف أسفل سقيفة من خشب السنديان تتدلى منها عناقيد العُنب، أحسّت بخطى تقترب منها.

هو يعلم جيداً أين يجدها وهو الآن لا يستطيع إجفالها أو التظاهر بالثبات والصمود. فقد كان قربها يُهلك حواسه، وكانت هي تحتاجه أكثر من أي وقت مضى، تحتاج احتوائه لها يقينها أنه هنا معها وأنه لن يتركها. بضعة سنتيمترات تفصلهما لكنها بالنسبة لها متاهة.

حنين اجتاحها فأغمضت عينيها لتهمس بخفوت:

- ازيك يا إبراهيم؟

كان يقف خلفها تماماً، هي تريده أن يبقى ولا يرحل، يقف ولا يملّ، يثبت ولا يتردد، ولكن لا تريده أبداً أن يقترب، لقد كانت متناقضة.

رمقها بغيظ وكأنما قرأ أفكارها:

-أني كويس، المهم تكوني أنتِ كويسة.

حاولت تخطيه لكنه صاح معنفاً لتحتد نبرته باترة صمتها وترددها:

-انتي عايزة ايه بالظبط؟ عايزة تاخدي كل حاجة، العاشق الولهان اللي تحت أمرك يقرب وقت ما تحبي ويبعد وقت ما تقرري، الحرية والانطلاق وتبقي صاحبة قرارك، الدراسة والنجاح، الخصوصية ومحدش يتدخل ف حياتك، لا يا ست هانم محدش بياخد كل حاجة وأول بند لازمن يتلغي مش هكون رهن إشارتك بعد كدا.

تحشرجت نبرتها وسط ذهول ألمّ بها ليجتاح جسدها قُشعريرة وكأنما نزع عنها ما تستتر به وعرّاها أمام نفسها لتلجمه بجملة واحدة:

-مش جايز أنا محتاجاك جنبي من غير شروط؟

احمرّت وجنتاه بارتعاشة شفتين، وعينين تتنقلان على ملامحها، غير مصدق ما تقول لكنه ردّ بنبرة خشنة:

-كيف يعني من غير شروط؟

حاولت أن تشرح له، أن تضيف حرفاً واحداً جديدًا، لكن لسانها خذلها فتأوهت دون رد ليزفر هو بيأس ويضيف:

-وأنا مش لعبة في يدك تلعبي بيها ولما تزهقي ترميها.

رفعت عيناها نحوه برفض عارم لِما يقول في لحظة صراحة ومواجهة محتومة، حانت منها نصف استدارة لتواجهه:

-أني خايفة يا إبراهيم، خايفة أكون نسخة من أمي و مرت عمي وخالتي وعمتي، خايفة ارتباطنا يربطني بأكتر مكان بكرهه في حياتي، أكتر مكان اتعذبت فيه وشفت كل الستات اللي حواليا بيتعاملو كجواري، دايما متبوعة دايما مقهورة دايما ملهاش رأي ولا وجود، مجرد التفكير بس إني هكون كدا بيقتلني.

فكّ ذراعيه المنعقدتين أمام صدره وأشار لها بسبابته وهو يرد بدهشة:

-الأفكار ديا في خيالك بس إنما الواقع فيه نماذج كتير أحسن.

الإسلام يا رقية كرم المرأة وقدمها على الراجل في حاجات كتير، أما العكس فدي عادات جاهلية إحنا اللي لازم نحاربوها ونتمسك بالشرع.

تابع بين هسيس أنفاسه المُعاتبة وفحم عينيه الذي انطفأ غضبه لمزيد من تفهم وإدراك:

-عمري ما هقدر أظلمك ولا أهينك ولا أقهرك، مش بس عشان بحبك، كمان عشان ربنا أمرني بكدا فهمتي يا رقية؟

رفعت إليه عينين تغشاهما دموع غزيرة فقد كانت تعلم أنها ضغطت عليه كثيراً وتحاملت عليه أكثر وكانت دوافعها ذكريات أليمة لأحداث لا ذنب له فيها.

***

أجمل ما في الحكايا العِبر.

تلك اللحظة التي تشعر فيها أن الدائرة تدور على مَنْ بغى، وأن السِحر قد انقلب على الساحر.

***

طرق باب جده طرقات خافتة. الجد الذي بات يعيش في عالم خاص بعد مرض زوجته الحاجة «آمنة» وعدم مغادرتها حجرتها إلا يسيراً، لجأ إلى صومعته يحادث ماضيه بين طيّات صوره وأوراقه، استخرج الصندوق الخشبي من خزانته، جلس على حافة فراشه يتحسسه وكأنما يستحلفه أن يظل محتفظاً بعهد الصمت الذي قطعه عليه، ولكن إلى متى؟

لقد ظنّ أن السرِ سيُدفن إلى الأبد، سأل نفسه وقد بدا التأثر على وجهه حين تعانقت نظرتَه مع نظرات حفيده المستفهِمة:

-خير يا جد سلامتك؟ أنت تعبان؟

انحنى ليُقبِّل اليد قبل الرأس وأردف بقلق:

-حاسس بأيه؟ طمنّي الله يرضى عليك.

لكزه ممازحًا في كتفه ليرد بابتسامة وواهنة:

-أنا زين يا ولدي بس قلقان على جدتك وقعدتها في أوضتها.

ابتسم يحيى ليكمل ممازحته:

-مانا قلتلك قبل اكديه نفتحوا الأوضتين على بعض ولا أنت عجزت وخايف يا جد.

علت قهقهة الجد التي تنتهي دومًا بسعال حاد ليرد من بين شهقاته الضاحكة:

-اقفل خشمك يا قليل الحيا، جدك وتد يا خيبان لو اتجوزت هملالكم الدار عيال، مش زيك كسلان.

ضحك يحيى ليربت على كتف جده بحنان بالغ:

-الله يخليك لينا يا جد.

سكت قليلاً فأدرك جده أن هناك أمر ما فبادره:

-قول يا ولدي في إيه حصل؟ عاصم؟

هز رأسه موافقاً:

-أيوا يا جد، عاصم ما عيجبهاش لبر.

حكى لجده تفاصيل ما علمه من تدبير عاصم له، جلس جواره ممسكاً كفه وتابع:

-أني مستني رأيك يا جد وعامل حساب إنه جوز عمتي وأبو مراتي.

تجهم وجهه وغامت عيناه بعد جملته الأخيرة. رفع كفه إلى جانب وجهه يجبره على التفات فكه المتصلب ليكون حليفه الصمت. نظرة قاتمة بدّلها بأخرى متوهجة حين سرى الأمل بين الحروف.

وتكفل ثغره بابتسامة صغيرة تُجابه ما حدث وما يحدث فالجد في جعبته الكثير والكثير.

***

النهاية بداية جديدة، ليس دائمًا.

كصفحة طُويت داخل كتاب به من الأوراق الكثير والكثير، فليست كل العثرات تستحق السقوط في بئر سحيق، لنخسر بعدها كل شيء وأي شيء.

***

التفتت «جميلة» لوالدتها التي تقف عند باب المطبخ الكبير تحدّجها بنظرة امتعاض بعيناها الضيقتان فلا تكاد تعرف هل هما مفتوحتان أم منغلقتان، يتصاعد منهما شرر لا تكاد نخطئه عين. شرر مخيف ممتزج بلؤم.

أنفها المعقوف، شفاهها الحادة الرفيعة التي أضفت على ملامحها الكثير من القسوة، تحفزت «حُسنة» وهي تواجه ابنتها التي كانت تصنع كيك البرتقال لزوجها.

حتى التقت نظرتها المتسائلة مع نظرة والدتها المشحونة وقسماتها المقتضبة لتخبرها أن في جُعبتها الكثير، حاولت أن تتفادى الصِدام معها، فألقت عليها تحية الصباح وخرجت من المطبخ. صرّت أسنانها حقداً وغيظاً، وتبدلت ملامح وجهها المتعضة بأخرى حانقة وعيناها تشتعلان قسوة:

-كانك ريتي عفريت؟

أخذت جميلة نفسًا عميقاً قبل أن تُجيب على أمها بنظرة لوم وعتب وتقول:

-ما عفريت إلا بني آدم ياممّا.

***

الثقة سلعة غالية باهظة الثمن لا نستطيع منحها إلا لمن يستحقها أو أثبت أنه جدير بها.

***

وصل إلى مقر عمله بوجه عابس ليطلب حضور عاصم من سكرتيره وأضاف بجدية:

-يجي حالاً ويفوت أي حاجة تانية.

رد السكرتير بأدب جمّ:

-حاضر حالاً هبلغه.

دخل عاصم وهو يحاول أن يخفي توتره، هتف يحيى بعاصم:

-ايه أخبار الشحنة الجديدة؟

تعرق وجهه وألقى إجابة مبتورة في وجهه:

-جاهزة.

هزّ رأسه بثقة ليمرر ما أراده:

-أنت عارف إنها المرة دي شحنة كبيرة قوي ولازمن أنا أو أنت نكونو موجودين وقت التسليم.

ثم تابع موضحًا

-اني خايف من اللخبطة.

بتردد مشوب باستفهام حذِر ردّ عاصم:

_ يعني إيه؟

رفع إليه يحيى عينيه ببعض تأمل وتفكر وكأنما يبحث عن حل:

-لازمن حد منينا يكون موجود، والأفضل يكون أنا.

أصدر عاصم همهمة استحسان موافقاً على كلامه، لكن يحيى قاطعه بحزم:

-بس أنت عارف إني ما عقدرش أفوت مصالحنا اهنيه وجدي تعبان وجدتي برضك، وسندس في المستشفى، وجلسات علاج هاجر، كل دا فوق دماغي.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة متلاعبة ليضيف:

-وأنت بدالي في العمليات الكبيرة دي.

صمت قليلاً ليردف بنبرة غامضة:

-ولا أنت رأيك إيه؟

هزّ رأسه موافقاً على مضض.

فظهرت على وجهه أمارات الظفر واتسعت ابتسامته الماكرة ليُضيّق عينيه وهو يقول:

-يبقى تتوكل على الله وتسافر تحضر التسليم.

غمغم عاصم برد مقتضب وموافقة بائسة ورحل.

رحل بوجه كالح يجتر ماضيه قطرة قطرة.

تُبحر الذاكرة نحو الأمس قسراً ومن دون كوابح لتبدو الصورة عبر الماضي البعيد باهتة كالحة قميئة، مرّت عليها الأزمان فصارت بشعة بينما العقل يقف شاهدًا عند زاوية الذكريات يتطلع فينا، يُحدِّق، يبهت، غير مصدق لما فعلنا وما كنا عليه.

***

طفح الكيل وانتفخت أوداجه بينما رفعت هي سبابتها في وجهه بعنف، دارت برأسها بغتة ترميه بشرر غاضب والحنق يقطر من حروفها، هتف متوتراً في مواجهة «دوابة» محاولاً إقناعها بإلغاء الصفقة:

-أني اكده اللي هاروح فيها.

انعقد حاجباها واقتربت منه ملوِّحة بذراعيها:

-اهدى بس كدا وفهمني ايه اللي حصل.

بانفعال أكثر أردف وهو يجوب أنحاء الغرفة:

-الظاهر حد بلغه، دا عايزني أني اللي أسافر مع الشحنة.

فركت جبهتها بأصبعيها ثم نظرت إليه:

-مش كل حاجة باسمه في الأوراق؟

أومأ بالإجابة لكنه أسرع برد صارم:

-بس اني اللي هكون موجود.

جلست بأريحية وقالت بهدوء وثبات:

-هتكون موجود زيك زي أي حد شغال في الشركة، كل حاجة باسمه ويوم ما يحصل حاجة هو اللي هيلبسها.

تابعت بنظرة ثاقبة:

-بس إحنا ماعيزينش حاجة وحشة تحصل، إحنا عايزين بضاعتنا توصل بالسلامة.

أمسكت أرجيلتها لتسحب نفساً عميقاً وتُخرجه ببطء:

-وبصراحة اكده أحسن، أهو يبقى كل شيء تحت عنيك ونبقو مطمنين.

هتف بنفاذ صبر مقاطعًا عبارتها مع زفرة قوية:

-وافرض الطوبة جات في المعطوبة ولبستها أني؟

نظرت إليه وهي تكز على أسنانها وترد بقوة وعنف:

-ما عنفرضش حاجة وأنت واخد حقك وزيادة من البيعة دي يا سيد الناس.

ثم تابعت بابتسامة متكلفة:

-أقعد اشربلك كاسين وروق مزاجك.

لتنبعث موسيقى صاخبة وتتمايل الراقصة على ايقاعها في مجون صاخب بينما الأفكار تتزاحم في رأسه الذي لم يهدأ.

هو طريق واحد ذو اتجاه واحد لا مجال لعودة أو تراجع أو حتى وقوف، شرد قليلاً وهو يفكر أنه أختار البداية ولا بد له أن يُكمل حتى النهاية، وما حدث الليلة الفائتة بينه وبينها ليس ببعيد،

حينما أوقفته بيدها الممتدة في صدره وكأنما تمنعه من دخول جنتها.

تُسائله عما فعله ليشتاط الولد غضباً وحنقًا، هو يعرفها جيدًا، «حُسنة» ابنة عبداللطيف البغدادي، زوجته وأم ابنته «جميلة».

يدرك هو كيف انتشلته من القاع حين كان أجيرًا لديهم، هو مِن عائلتهم، لكن الزمان لم يُبقِ له شيئاً من ثراء الأجداد ونفوذ الآباء الذي ضاع كما ضاعت ثروتهم، أَعطته الصغير كي يقتله مقابل الزواجِ منها، وباتفاق مُبرم وغير مُعلن مع الأخ الأكبر الذي رأى في الصغير شريكًا له في المال والأرض مَضيعاً لنصيب بناته من التَرِكة، وافق عاصم الكلّاف أن يقوم بخطف الصغير وقتله حين يأمرون.

خبأه بعيداً لدى وَكر من أوكاره التي اعتاد التردد عليها، أمّا «حُسنة»، فقد أعمتها الغيرة والحقد على أخيها الذي رحل، وكان وفياً مخلصًا لزوجته وولده، وهي التي لم تتلقَ في حياتها سوى الغدر والجحود والخُذلان.

زوج تولّى؛ تركها بعد سنة واحدة تحمل لقب مطلقة، تنهشها الألسنة وتقذفها بتهم ما أنزل الله بها من سلطان.

انعزلت.

اكتأبت.

حقدت.

نقمت.

كَرِهت كل شيء حتى نفسها، وخرجت من عزلتها لتنفث شرورها في وجه الجميع وأولهم ابن أخيها، لكن الأب الحكيم رأى ما لم يره الجميع، رأى أن قدوم الصغير رحمة بهم جميعاً، فتفتق ذهنه عن تلك الحيلة ليكتب الصغير باسم ولده الثاني وليكون ابنه أمام الجميع يحمل اسمه ويرعى عائلته وإخوته البنات.

أعجبت الفكرة الابن، لكن الابنة لا تزال حانقة، فأملت شروطها أن تعيد لهم الولد بشرط أن تتزوج الكلّاف «عاصم» وأن يعمل في تجارتهم ويحظى بنفوذهم وسطوتهم. وافق الجميع على مضض، لتكون الخطيئة في ثوب عقد زواج واجتمع اثنان وكان الشيطان ثالثهما.

كل ما يفكران به هو الاستيلاء على أموال العائلة وجمعها بسلطة ونفوذ حتى تكتمل الدائرة،

لكن الأب كان مُدرِكًا لمخططاتهم، ولألاعيبهم واعيًا ومحبطًا. لم تُذكِّرهُ «حُسنة» بكل هذا في تلك اللحظة، لكنها اكتفت بنظرة واحدة ثاقبة ليُدرِك هو كل ذلك فيسارع برد فعل هجومي عنيف عليها.

-عايزة مني ايه يا بت البغدادي مش كفاية شبابي وعمري اللي ضاع معاكي يا فقرية.

أصدرت فحيحاً كأفعى تبث سمومها عبر كلماتها:

-صوح يا واكل ناسك انت نسيت يا حزين كنت ايه وبقيت ايه؟ ولا أنت حنيت للطين والروبة اللي كنت عايش فيهم، صحيح إنك قليل الأصل.

أشاحت بوجهها وأفسحت له طريق الدخول لتضيف متسائلة:

-حصل ايه خلى يحيى شايط منك اكديه؟

ضحك بخبث ورد متفاخرًا:

-صبرك عليا، أني هخليه يروح في ستين داهية.

قالها وارتمى على الفراش غائباً عن الوعي ليغط في نوم عميق وأصوات شَخيره تعلو وتعلو، سدتّت أذنيها لتزفر بضيق وهي تسحبه داخل الفراش وتقول بلهجة بائسة:

-والله ما حد هيودينا في ستين داهية إلا مخك الضِلم دا، نام نامت عليك حيطة يا بعيد.

كان «يحيى» مترقبًا يتصنت على كل حرف قالاه، أدرك حقدهما وغلّهما، وعقد العزم على اتخاذ إجراء حاسم.

***

تبقى الثقة تلك السلعة الغالية باهظة الثمن لا نستطيع منحها إلا لمن يستحقها أو بذل الجهد ليثبت أنه جدير بها.

***

تعددت زيارات «فارس» للسيدة «دلال» كل يوم يطمئن على حالة «عُلا» ويعطيها الأدوية والحُقن المطلوبة، ويتناول معها قدحًا من الشاي بعد أن ينهي مهمته.

أطرقت دلال برأسها إلى الأرض وهي تحدثه:

-هو عاش عمره كله يجمع في الفلوس وفي النهاية فلوسه دي كانت سبب فساد حياتنا كلنا.

كان الأسف يسكن عيناها وازاه إشفاق منه ويرد مؤكداً:

-سبحان الله! وما كانَ ربُك نسيا.

ثم تابع مطمئنا:

-بس اطمني يا أمي وعليكي بالدعاء فمفعوله كالسحر، وربنا وحده قادر يهدي بناتك ويشفي عُلا.

رفعت بصرها إلى السماء وأضافت:

-ويرجعلي سندس.

تعجّب من الاسم، فهي لم تذكره من قبل أثناء سردها لحكايتها، فابتسمت موضّحة:

- سندس بنتي، من أكتر من عشرين سنة اتقدملها زميلها في الكلية وكانت عيلته صعبة ومتشددة وإحنا رفضنا، بس هي أصرت تتجوزه وبعد سنتين اختفو هما الاتنين.

أنا كنت بكلمها وأشوفها من وقت للتاني بعد الجواز رغم اعتراضنا عليه ودورت عليها كتير بعد ما قالولي إن جوزها مات وإنها سافرت لأهله لأنها خلفت ولد منه، ومن ساعتها يا ابني ماعرفش عنها حاجة.

تلعثم فارس قليلاً قبل أن يسألها:

-هما من أنهي بلد؟

أجابت بسرعة:

-بيقولوا من الواحات، وأهله عيلة كبيرة أوي، انا بعت ناس تسأل عليها بس محدش عارف عنها حاجة، بس عندي إحساس إن ربنا هيجمعنا تاني ويعوضني بيها قساوة إخواتها.

أشفق عليها فارس من نظرتها الدامعة.

***

حين غطّى الليل بسِتره ظلام الواحة رحل النهار متخاذلاً حاملاً كداً ورهقاً، صَدَحَ صوتٌ جهوري مُزَلزِلاً سكون المكان.

-مش قلت لك من زمان،

الحق لازمن يبان.

والنور لا بد يطلع،

وينور كل مكان.

أه يا أبالسة موالسة،

الشر ف قلوبكو لسه،

والحق مستني خلسة،

ولمسة وكلمة وهمسة.

دنيا وفيها ما فيها،

الحق كلمة ضايعة فيها.

هصرخ كمان بأعلى صوتي.

لا يمكن أبداً تمحي وجودي،

حقي ف وجودي وحدودي،

الكل ناسي وباع القضية.

كانت كلماته حاسمة حازمة، رغم كونه مَجذوب بجلبابٍ مُرقّعٍ وعقلٍ مُشتت وجيبٍ خاوٍ،لكنه كان يمتلك الكثير من الأسرار.

غاب ليعود وتعود معه الحكايا.

***

- ٩ -

وسط الظلام الحالك يهديك قنديل بعيد شارة ضوء تهمس بخفوت: أنا دليلك أيها الحائر، فاستهدِ بي واسترشد، ولا تفلتني.

***

استشاط غضباً عندما وصله صوت «هِلال» المجذوب ودندنته بالمواويل، تظنه يهذي بينما الحِكمة تقطُر من كلماته.

صاح مُعنّفاً أحد الخدم:

– قولو للمجنون دا يسد خشمه ويغور بحديته الماسخ دا.

استجاب الخادم وقفز لينفذ ما أُمِره به.

لطمت كلماته قلبه كصفعة قاسية فارتعدت جوانحه وارتعشت أوصاله رغماً عنه.

رفع إلى السماء عينين باكيتين، وكفين طالما طلبا العفو والصفح، وشفتين تتمتمان بالذِّكرِ ولسان لا يكف عن الاستغفار، فالله وحده يعلم دوافعه ومبرارته.

ألقى جسده الهزيل على أقرب مقعد وهوى لينشج فؤاده ندمًا. فتلك الكلمات أعادت الماضي كاملاً أمام عينيه، كلمات المجذوب ليست هذيًا ولا خَرَفاً، بل هي الحكمة الكاملة والحقيقة الساطعة.

زجره الخادم ونهاه عن تكرار وقوفه أمام الدار:

- بعَّد عن هنا يا هِلال وشوفلك داهية تانية اندب فيها.

زمجر هلال وصاح:

- طول ما فيا نفس،

هصرخ بأعلى صوت.

عمر السُكات ما نفع،

والحق مش هيموت.

احتد الخادم وزاد حنقه بتجاهل المجذوب له واستمراره في هذيه:

- بقولك غور من هنا أحسنلك.

تابع المجذوب وهو يُجَرْجِرْ أقدامه ببطء وعيناه متعلقتان بالبغدادلي وكأنما يخاطبه:

- يا ميت ندامة عليك

وعلى جرايرك،

ظلم وقهر حي

وميت بعمايلك،

كان فين ضميرك يا جدع؟

خُنت وبعت وعملت البدع!

ظهر فجأة الشيخ «شيخون» لينهي شجاراً على وَشْك الحدوث ممسكاً بيد «هلال» ومشيرًا بيده الأخرى للخادم بالرحيل، فما لبث أن عاد أدراجه داخل البيت.

مُمازحًا ومرحبًا بهلال في ود جمّ وجّه حديثاً بعبارات حانية:

- يا مرحب يا هلال حمدالله على السلامة يا راجل، كنت غطسان فين يا فقري؟

ابتهج هلال لرؤية الشيخ شيخون واستجاب ليده التي تسحبه بعطف ليقول:

- تعالى يا راجل دا أنت ليك وحشة كبيرة.

ردّ هلال بفرحة عارمة:

- عندكوا لحمة وفتة يا عم الشيخ؟

ضَحِكَ الشيخ شيخون ودعاه للدخول قائلاً:

- دا إحنا عندبحولك عِجل بحاله يا هلال، اتفضل اتفضل دي وِصال هتوكلك أحلى فتة.

افترش المجذوب الأرض ليكمل مواويله المُعتادة وصاح يردد:

- اعطي الأصيل يا كريم حقه،

ستر وصحة وما ينهضم حقه،

وحقه عندك

واللي عندك ما يضيع حقه.

منذ سمع حديث المجذوب الليلة الفائتة لم يغمض له جَفن، ليتم أرقه وتوتره بفتح الصُندوق الخشبي واستعادة الماضي القديم.

هو القوي الحازم المُسيطر على مقاليد الأمور، كيف له أن يبدو بتلك الحيرة والتشتت بل ووالضيا!

ارتعش كفه وهو يُمسك بورقة مطوية ظنّها أخفت الأسرار بداخلها ولكن هيهات، شعر بنفسه مبعثراً، بل خائفاً، وسقطت الصحيفة من يده لتكشف عن مخبؤاتها وتفضح أسرارها وخبيئاتها.

تنهد بألم وضيق يلتقطها ليعيد طيها مرة أخرى بإحكام. نبضات قلبه المرتجفة تواجه قساوة الماضي ليقذفها بعنف داخل الصندوق ويغلقه. هو الذي اعتاد المواجهة وخوض المعارك بشجاعة يهرب الآن! يفر من ساحة الحرب ليعتزل الجميع في حجرته الخاصّة، لكن الحاج عبداللطيف البغدادي لا يُهزم بسهولة وما كان يتحاشاه طيلة عمره آن آوان حسمه، وعليه، فقد اتخذ القرار، وليكن بيده لا بيدِ عمرو.

انتبه على طرقات الباب ليتقدم منه ملقياً السلام:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا اخوي.

فطن لمغزى حضوره ليُشير له برأسه بالجلوس رادّاً تحيته:

- وعليكم والسلام يا شيخ شيخون.

منحه القادم نظرة جانبية وهمسة لم تتجاوز أذنيه:

- آن الآوان تحلني من الوعد يا حاج.

تقلّصت ملامحه وانعقد حاجباه وهو يرد ببؤس يصاحبه زفرة ضيق:

- اعمل اللي يلد عليك يا اخوي يا ابن أمي وأبوي.

تجاهل شيخون نبرة اللوم في حديث أخيه ليحتل المقعد المجاور منه ويقترب أكثر ويلاصقه،

لمح من بين أجفانه دمعة تراوده للفرار فصمت متحاشياً جرح كبريائه أكثر مما هو فيه،

أغلق عينيه لاعناً المال والنفوذ وسطوتها، ولاعنًا ضعفه أمام سيطرة أخيه الأكبر.

تباً لكل شيء يخالف شرع الله ويقودنا إلى المهلكة.

- أني جاي اتحدت معاك يا اخوي ونرسو على بر للمُشكل دا.

همس بها بحنو وعطف لكن قلبه لا يستكين، لا يصمت، لا يتوارى، وعقله الراجح ظل يصرخ، يستنكر، يؤنب وإن تمسّكت نبرته بلجام الحُلم ولهجته برباط الحكمة.

- دي مشكلتي يا شيخون وأني اللي أقرر ميتى تتحل.

قرر إجابته بنبرة صارمة تبعتها نظرات حاسمة فلا طاقة به لحصر دوافع أو تقديم مسوغات.

زفر شيخون بحرارة، فلا سبيل لحوار معه كالعادة، لكنّه ألقى بجملة أخيرة قد تغيّر من أطراف المعادلة المستعصية الحل:

- كانك ما سمعتش هلال ومواويله اللي بيلف بيها في البلد؟!

كانت نظرته مستنكرة غير مصدقة وإن كانت صامتة.

لامست جملته وترًا حادًا في خافقه فتوتر واعتدل في جلسته وازداد انعقاد حاجبيه الذي لم ينفك للحظة، وازدادت معه أصوات أنفاسه الحانقة التي صاحبها سُعال شديد جعل وجهه يحمر بشدة فأسرع شيخون بعُلبة البخاخ الطبية يضعها على أنفه مرتبكاً شاعراً بالذنب وضميره يوبخه على ما فعل.

همس بكلمات قليلة مهدئاً أخيه:

- سلامتك يا اخوي بعد الشر عنيك.

أرقدَه في فراشه وجلس بجواره في جمود، عيناه تُعانقان الأرض في خجلٍ وندم.

ودّ لو لم يتحدث، وظل ساكتًا، ففي الصمت راحة وأمان، لكنه ما لبث أن استعاذ بالله من شيطانه الذي يوسوس له، فكيف يصمت وهو يعلم ويدري بظلم واقع وجريمة دُبرت بليل شارك فيها الجميع، والساكت عن الحق شيطان أخرس، هكذا يدعو الناس فكيف تخالف أفعاله أقواله!؟

***

تتراقص بنا الحياة فنلهو بالأمل ظناً مِنّا أنّا امتلكنا كل شيء، فتدور بنا لنعود صفر اليدين وخاليي الوِفاض، فتصفعنا عند أول مُنعطف ومع أول شُعاع ضوء أنّا لم ولن نملك منها شيئاً، سراب فحسْب.

***

استقل يحيى سيارته لمقر عمله، الجو شديد الحرارة والرطوبة عالية، حتى مُكيف السيارة لم يكن مُجدياً في ذلك الطقس.

وصل لمبنى الشركة وعندما شاهده وقف بمكانه كتمثال من حجر، لا يتحرك، لا يرمش، لا يتنفس.

لم يتوقع أن يُصادفه في الصباح الباكر، فقد كان يُخطط للقاء مسائي يحمل كشفاً للمستور، لكن تلك المقابلة القاصمة أربكت حساباته في حرب طالما تجنبها وحاول تأجيلها.

- على فين يا سيد الناس؟

قالها يحيى وهو يُدرك تماماً وقع الوصف عليه، لاحت من عينيه التفاتة حادّة غاضبة، تبعها نبرة حذِرة قلِقة:

- عندي مشوار ومعاود على طول، في حاجة؟

حدّجه يحيى بنظرة متحدية عنيدة وابتسامة صفراء:

- مستنيك ولينا حديت طويل ما تعوقش ياأخوي.

رجفة سرت بخلاياه تبعها نظرات مشحونة، تتفحص، تُراقب، تُحلل، ولكنها لا تصل لشيء.

ابتعد بخطوات مترددة بين شكٍ وقلقٍ، ليبتسم يحيى بتكلف مصطنع مودعاً:

- طريق السلامة يا غالي.

فالمعركة الدائرة رَحاها مستمرة، لا فوز فيها لأحد، الجميع خاسر والغنائم مُغلّفة بحقد السنين.

السخط غلف صوته وهو ينهر مساعده على تكاسله في إتمام الإجراءات الخاصة بشُحنة الغِلال الأخيرة.

ذبلت بسمته الصفراء رويداً لتحتل قسماته حيرة وحَنقاً على كل المتناقضات حوله.

رحل الرجل مرتبكاً ليتم ما أمره به. طلب قهوته علّها تعدل من مزاجه السيء، هو لا يريد ظلم أحد أو البغي على أحد، ربما الخيار السهل أن ينتقم من الجميع رغم قسوة الانتقام، لكن الأصعب أن يتسامح ويغفر وينسى.

ضرب سطح المكتب بقبضته وكأنما يعاتب أفكاره قائلاً:

- هما مافاتوليش حرية الاختيار.

أرجع رأسه للوراء، هل بالفعل هو مجبر على السير في هذا الطريق ومآلاته التي ربما تدمر الجميع وهو أولهم؟ ابتسم بشجن وهو يتذكر زوجته جميلة الرقيقة الطيّبة، في زمنٍ ما لم يكُ يعنيه من العالم شيء سوى مسئولياته تجاه عائلته الكبيرة، أما اليومٍ فقد تعلّق قلبه بها وأحسّ بمشاعرها نحوه، فكيف يتخلى عنها ويصيبها في مقتل!؟

بينما هو يكاد يُجن ليعثر على حل وسط لا يجرحها ولا ينال منها، تمرر هي كل شيء وتتقبل أي شيء، متفهمة لأقصى درجة، محتوية بكل جوارحها، هو شاغلها وهمّها الأول والأخير.

عاد في الظهيرة للمنزل ليُفاجأ بعمته «حُسنة» بانتظاره، إيماءة معتذرة منه بتأجيل أي حوار للمساء.

بدا الإرهاق جلياً على مُحيّاه فصعد مباشرة باتجاه شقته ولم يمر حتى بجده أو جدته، صعد الدَّرَج بسرعة ليُلقي بجسده المُنهك على أقرب أريكة.

تمكنت من جسدها انتفاضة سعادة وقلبها يتراقص لقدومه مع ما تود أن تخبره به، تعلقت عيناها به ومع ابتسامته الحنونة وإشارته بيده أن تجاوره تقدّمت لتبتسم بحنو:

–حمد الله ع السلامة يا يحيى ماسمعتكش بتنادم عليا؟

أومأ بابتسامة شاردة وهزّ رأسه:

– تعباااان.

انزعجت واستقامت تتحسس جبهته:

– مالك؟ حاسس بايه؟ اوعى تكون سخن؟

صدرت عنه ضحكة ناعمة ليسترخي أكثر على الأريكة:

– يا سلاام أجمل نعمة إنك تلاقي حد بيخاف عليك من الهوا الطاير.

أمسك بكفها يُقبِّل باطنها وبنبرة حانية تابع:

– ما اتحرمش منك واصل يا جميلة.

نظرة عاتبة سيطر عليها همسها الدافئ:

– اني برضو حد يا يحيى؟!

هزّ رأسه في رضوخ:

- أنتِ كل دنيتي.

ابتسم يراقب ملامحها بشغف وقد كست وجنتيها حُمرة الخجل، ثم تعالت ضحكته التي تأسر قلبها دوماً، ومال يطبع قُبلة حانية على جبينها فامتزجت ضحكاتهما.

قالت بخجلٍ وتردد:

- عايزة أقولك حاجة.

نبرته العميقة وصوته الرخيم داعب قلبها قبل سمعها وهو يُجيب:

- عيوني ليكِ.

أحاطت نظراته العاشقة بها لترد بولهٍ وقد ثبّتت نظراتها بنظراته:

- أني حامل.

***

على سبيل حامل؛ فلتترك لقلبك العَنان.

وعلى سبيل الحِيطة؛ فلتحذر أن تمر بأرض لا تعرفها.

أمّا على سبيل الوجع؛ لا تعطِ قلبك كاملاً لأحد. احتفظ بحق العودة يا صديقي.

***

انزوت بركنٍ قصي في حجرتها تتابع الرسائل عبر شاشة هاتفها، رسائل أصبحت ثابتة يومية منتظمة، لتشغل مساحة كبيرة من عقلها وتحتل جزء أكبر من قلبها، فتتحرك مشاعرها بلهفة مع كل حرف فيها.

تعلّقت عيناها بشاشتها تتابع وعلَت شفتيها ابتسامة حالمة لشغفٍ تسلل إليها وتمكّن من قلبها.

الحب لا يملك حلولاً سحرية لواقع بغيض، لكنه على الأقل يُساعد على اجتيازها وتخطيها برفق.

دخلت رقية فجأة لتجد فاطمة تمسك بهاتفها وترتسم على وجهها تلك الابتسامة الولهانة.

- سيدي يا سيدي إيه دا كله.

ارتبكت فاطمة وأغلقت الهاتف لتصدر من رقية ضحكة ماكرة:

- لسه ماعرفاش مين اللي عيبعتلك الرسايل دي؟

هزّت رأسها نافية لترد بشرود:

- أبدًا يا رقية ماعارفاش.

تابعت رقية ضحكها مُمَازحة أختها:

- برب يكون هلال المجذوب يا فاطمة أهو كلامه فيه شبه من الرسايل.

لكزتها فاطمة بحنق:

- هلال المجذوب يا مجذوبة.

- هو في حد عاقل يعني يعمل اكديه يا دكتورة؟

ضحكت فاطمة لتجيب بإقرار:

- شكلي أنا اللي هتجذب قبل ما اعرف مين هوا.

التفتت فاطمة لرقية التي كانت تهمّ بالانصراف:

- على فين يا أستاذة؟

أجابت رقية:

- عمتك وصال عايزاني هاوصلها واعاود بسرعة.

غمزت فاطمة بطرف عينها مُمازحة أختها:

- يارب يلين القلب الحجر.

عقدت رقية حاجبيها وزفرت بضيق فهي تعلم رأي الجميع وترحيبهم بارتباطها من إبراهيم، أما هي فلا تزال مترددة.

انسحبت رقية شاردة وتبادر إلى ذهنها ما تريد وِصال أن تحدثها فيه، هي القريبة من قلبها التي تعاملها كأم وأخت وصديقة، لا تستطيع رفض طلب لها أو رد أمنية تستطيع تحقيقها.

طرقت بابها وتوجّهت نحوها بتردد، كانت تقف في استقبالها بقامتها الطويلة الممشوقة ووجهها البشوش، احتضنها طويلاً وقالت:

- اشتقت لك يا رقية وحشتيني يا بتي قوي.

بادلتها العِناق والأشواق وأجابت:

- وأني كمان يا عمتي اتوحشتك كتير بس كنت عارفة انك مشغولة مع عم الشيخ شيخون وكنا بنطمنوا عليه، ربي يتم شفاه على خير.

ابتسمت وصال وهي تجلس بجوارها في مودّة بالغة:

- الحمد لله، قدّر ولطف وربنا خد بيده وقام بالسلامة.

تنهدت رقية وحمدت الله، لتضيف وصال:

- طمنيني بقا يا بتي كيف حالك دلقيتي وناوية على أيه في موضوع إبراهيم؟

صمتت رقية طويلاً، فهي نفسها لا تعرف ماذا تريد.

فهي بقلب الأنثى تود الارتباط به، لكن كبريائها يمنعها ويجعلها ترفضه وترفض كل ما يربطها بالواحات بل وبالصعيد كله، اندفعت الكلمات حادّة تقطر مرارة من حلقها:

- والله يا عمتي ما عارفة أعمل ايه أنا بين نارين ومقدراش اخد قرار.

التفتت وصال نحوها متأملة صدق مشاعرها وما ارتسم على مُحيّاها من توتر وقلق فربتت على كتفها وتنهدت:

- شوفي يا رقية هحكيلك حاجة يمكن ما حكيتهاش لحد واصل قبل اكده، أنا اتجوزت أبوكي وكنا موعودين لبعض واني في اللفة فتحت عنيا ما ريتيش راجل غيره ولا حبيت حد غيره هو كان كل دنيتي وكنت مستعدة أتحدى العالم كله عشانه.

أثارت تلك المقدمة شغف رقية فهي المرة الأولى التي تُصرّح فيها وصال بتلك المشاعر وتحكي تلك الذكريات، مالت برأسها للوراء وكأنها تسترجع باقي الذكريات،

عشت معاه أجمل سنين عمري لحد ما جه الوقت اللي كان لازم يختار فيه أني أو أوامر البغدادي. عضّت شفتها بقسوة لتكتم نكزة في قلبها تئن كلما تذكرت ما حدث، اعتصرت قبضتها ساخطة وأضافت:

- جدك كان عاوزه يتجوز واحدة تانية عشان يخلف الولد وأني الحُكما قالولي إن حملي نسبته ضعيفة بس مش مستحيلة يعني مع الأدوية والعلاج كان ممكن يحصل، لكن البغدادي ما عيصبرش وولده ما عيقدرش يخالف أوامره، كنت بشوفه بيبكي وماعارفش يتصرف لا قادر يواجهني ولا قادر يواجه أبوه ويتمسك بيا، وكان لازمن عليا أحله من وعدي وطلبت الطلاق طبعًا هو رفض بشدة لكن أني أصريت، تعرفي ليه يا رقية ما كملتش معاه وخليته يتجوز عليا وأفضل على ذمته؟

نظرت بعيد بشرود وهي تجيب على سؤالها:

- عشان كنت بحبه قوي ما تحملتش احطه في صراع بيني وبين أي حاجة تانية حتى لو كانت رغبته في الأبوة، وما قدرتش اتجوز بعديه رغم إن اللي اتقدمولي كتيير قوي بس ما قدرتش اشوف حد تاني غيره ولما اتجوز وخلف كنت حاسة انكم ولادي لانكم حتة منيه.

التفتت وصال لتثبت نظرتها في عين رقية وتضيف بإقرار صامد:

- اللي بيحب يا رقية بيدي وبيتسامح وبيغفر وبيتجاوز عن حاجات كتير، اللي بيحب ما عيفكرش هو عيكسب ايه أو يخسر ايه عيفكر بس ازاي يسعد اللي عيحبه وازاي يرضيه ويحافظ عليه.

اللي عايزة أقولهولك يا رقية إن إبراهيم عيحبك وممكن يديكي كتير بس معيستناش العمر كله يا بتي إشارتك، فاهماني يا رقية ؟

هزّت رأسها وهي مشدوهة من عمق كلمات عمتها وتحليلها الرائع للموقف، لقد لخصت كل شيء، هي تريده لكنها لا تريد الواحة، تعلم أنه يحبها لكنها تخاف العادات والتقاليد الموروثة، لذا كانت حيرتها وترددها، لا بد أن تواجه نفسها إن كانت تحبه بصدق فلتمنحه الفرصة ولتمنح نفسها فرصة التجربة.

***

إن خدعك أحدهم مرة فهو سيء، أما إن خدعك مرتين فأنت يا صديقي الأسوأ.

***

جرَت أم صبحي تستنجد بفارس وهي تطرق الباب بعنفٍ وفزع:

- الحقنا يا بني، علا جاتها الأزمة وجالها خلع في كتفها.

ردّ فارس مطمئناً:

- ماتقلقيش يا خالة هجيب عربية وننقلها مستشفى قنا حالاً.

-١٠-

البدايات لا تهم فقد تكون عابرة، أو بطيئة متلكئة، وقد تكون مبهجة، وأحياناً تكون هادئة أو مشتتة.

أما البدايات المشتعلة فلها حسابات أخرى.

***

لاح طيفها مقتحماً بصره بزيّها الوقور وحجابها الرائع ومعطفها الأبيض الأنيق الذي يضفي عليها صورة ملائكية، لكن ملامحها كانت جادة، حادة، جامدة.

أنهى حواره مع الطبيب باقتضاب وقطع طريقها ليهتف:

- فاطمة؟

توقفت لحظة وردت بحبور وعيناها لا تصدقان:

- فارس؟

أومأ بالإيجاب:

- أيوا

كانت نبرته صاخبة، مبهجة، ونظراته التي احتوتها أربكتها.

الهروب هنا أسلم، لكنها لم تستطع فجذب انتباهها بسؤال عن أحوالها وأخبار العائلة؟

لترد باقتضاب:

- الحمد لله.

بينما كانت تهمّ بطرح سؤال عن سبب تواجده في المستشفى، وبّخت نفسها بقسوة، كيف تقابله بهذا البرود!

ثم أجمعت أمرها وسألته:

- بتعمل أيه هنا، دراسة؟

مسّد شعر رأسه مُمررًا إجابة موضحة:

- معايا حالة عايزك تشوفيها وتتابعيها، لأن ظروفي مش هتسمح إني استمر واحتمال أسافر.

- تسافر؟

قالتها بانزعاج وقد انعقد حاجباها وتضاعفت حيرتها بعد ردّه.

- احتمال أسافر برا مصر فترة ويمكن أروح أعيش مع «سعد» أخويا.

كانت عيناها تسأله تفسيرًا لأسئلة كثيرة تخجل أن تطرحها، لكنها جمعتها في استفسار واحد:

- ليه؟

والردّ تلعثمت أحرفه على لسان يود البوح لكن الأحداث كثيرة ولا يعرف بأيها يبدأ فأنقذه ردٌ سريع:

- لا دا موضوع يطول شرحه، لو عندك وقت نفوت على المكتبة اللي جار المستشفى عشان محتاج شوية مراجع.

وأردف:

- بس قبل إكده تعالي شوفي علا.

استجابت له لتسير بجواره فتذكر أنه لم يسألها عن وجودها في قسم التحاليل.

فأجابت:

- كنت باستلم تحاليل سندس.

توقف قليلاً، فهذا ما لم يتوقعه، ليضيف بشرود متسائلاً:

- سندس؟

التفتت إليه وهي تضيف باستغراب:

- أه سندس صحتها بتدهور يوم عن يوم ويحيى هيموت من القلق عليها، في حاجة؟

تابع السير ليرد ببساطة:

- أبدا زعلتيني بس عليها، الله يشفيها ويعافيها.

نبرته لامستها بحّة توتر، وتبعتها نظرات تقدير وإعجاب وهي تطلع على الأوراق الخاصة بحالة عُلا.

***

البعض له عالمه الخاص الذي لا يشاركه به أحد، ليس هذا خياراً منه، بل هو واقع فرضه عليها كل من حولها،

وهي صنعت عالمًا خاصًا بها وحدها لا يشاركها به أحد.

***

عالم موازٍ، تعيش فيه مع الألعاب الإلكترونية وصفحات التواصل الاجتماعي والمجموعات المختلفة على الإنترنت.

طرقات على الباب تُنذر بقدوم أحدهم، خرجت من تطبيق اللعبة الإلكترونية التي تحفظها على هاتفها وتمضي معها الساعات الطِوال، هي بكل براءتها وشقاوتها لم تجد من يشعر بها ويعي طفولتها، فسنوات عمرها القصيرة ونزق مراهقتها لم يعترف بها أحد، بل لم يشعر بها أحد، حتى العمة وصال والجد ويحيى لم تكن كلثوم في مدار رعايتهم، ربما لأنهم يرونها لا تزال طفلة صغيرة لكنها كبرت لتجد نفسها وحيدة في مرحلة هي أحوج ما يكون لمن يحتويها.

تقدم منها يحيى مداعباً:

- ثومة حبيبة قلب يحيى.

مطّت شفتيها بدلال طفولي لتعاتبه بمكر:

- هو أنت لساك فاكر ثومة؟

ابتسم بهدوء وضمّها بحنو بين ذراعيه:

- هو أنا أقدر يا نوارة بيت البغدادي.

أعادت خصلة شاردة خلف أذنها ليلمح جُرحاً بيديها، أمسك بكفها بهلع:

- أيه الجرح دا، كيف اتعورتي ؟

سحبت كفها بارتباك لتجيب بتلعثم:

- أبدا، انجرحت وأنا بقشر البرتقان.

جاور القلق شك وريبة ليرد عليها مُمرراً عدم تصديقه:

- دا جرح غريب يا ثومة كأنك راسمة رسمة.

أضاف بحيرة:

- أنا قلقان عليكِ ومش عاجبني حبستك ليل ونهار ف أوضتك دانتِ ساعات بتقعدي باليومين ثلاثة ماتكلميش حد وبتطلعي السطوح ف أوقات غريبة.

طمأنها بربتة حانية وأردف:

- صارحيني يا ثومة بيكِ أيه؟ وأيه اللي شاغلك إكده؟

صمتت قليلاً ليظهر على وجهها انفعال مكبوت لترد باستخفاف:

- ومن ميتى حد بيسأل فيا؟

استدارت لتعطيه ظهرها ببرود وكأنما تنهي حواراً لا يروق لها.

- اعذرينا يا ثومة المشاكل الكتير اللي مرت علينا خلتنا ماعارفينش راسنا من رجلينا.

ضمّت قبضتها لتمر الجلسة بخير مع إشفاقها على أخيها وردت:

- الله يعينك يا اخوي.

دنا منها ليهمس بأذنها:

- يحيى موجود كل وقت يسمع ويفهم ويحل أي مشكلة لأخته حبيبته.

***

الأمس غير اليوم، هذا ما تخبرنا به الشمس كل صباح.

***

البارحة كانت هاجر القوية الشغوفة بالحياة، اليوم هي الضعيفة المُنكسِرة التي ترى الشفقة في عيون الجميع.

هو اتخذ أقصر الطرق بين نقطتين خط مستقيم وتقدم للزواج منها، بوضوح وصراحة ودون مواربة

بل ودون خجل من الماضي، فلِمَ لا تعطيه الفرصة؟

كان هذا صوت العقل الذي التفتت إليه مؤخرًا بعد أسابيع من الحيرة والتردد والهروب، رأت بعين الجميع رغبة في هذا الارتباط فقررت أخيراً أن تمنح نفسها الفرصة لتخوض التجربة وتحاول.

هو تقدم للزواج، وهي متوترة حائرة خجلى، لكنها قررت حسم الأمر بالموافقة على لقاء معه، جلست قُبالته والجد ويحيى يتنقلان ببصرهما بينهما، ونظراتها لا مُستقر لها سوى موضع قدمها.

هناك كسور لا تنجبر، لا مُداواة لها ناجحة ولا مُداراة لها نافعة، وهي مكسورة الروح لا تكاد ترفع بصرها عن الأرض خجلاً وخوفاً.

افتتح يحيى الحوار بحديث عن الدراسة والامتحانات لتنفك عُقدة الألسنة ويتجاذبا أطراف الحديث، تحدثا عن الرياضة والفن والإنترنت حتى السياسة تحدثا فيها، الأمر الوحيد الذي تجنبا الحديث عنه هو الزواج والارتباط.

***

الرجل الحقيقي هو الذي يجعلك معه لا تخافين، لا تحزنين.

معه لا تردد، لا قلق، بل لا تفكير.

هو الذي يجعلك لا تُفكرين في أي شيء سواه، لا تُفكرين إلا به، شعور واحد يجتاحك ...الحب فقط.

***

ارتسمت على شفتيها ابتسامة خجلى وقد تعانقت ملامحها بمزيج من حب ولهفة واشتياق يغلفهم حياء.

- مبسوط يا يحيى؟

ضمّها بقوة وكأنها يخاف أن يفقدها، ومال يهمس في أذنها برقة وعذوبة:

- طاير من الفرحة .

وضع أذنه على بطنها باهتمام بالغ وكأنما يستمع إلى صوت قادم منها، حاولت الابتعاد قليلاً بارتباك،لكنه أعاد الكرة موجهاً لها سبابته ومشيراً بالصمت.

تململت مرة أخرى وهتفت:

- ها سمعت إيه؟

اعتدل في جلسته بجوارها ليرد:

- ابن الــ....... ساكت مانطقش ولا كلمة.

ضحكت وبنبرة غضب مفتعلة:

- لا يا يحيى لو سمحت ماتشتمش أبوه.

تعالت ضحكاته التي تأسر قلبها دومًا ليرُد:

- يا بركة دعاكي يا امااا.

امتزجت ضحكاتهما، لمسته الحنونة التي كانت كفيلة بإضفاء البهجة والسعادة على عالمها كله، ولكنها بين فكي صراع، تتنفس عبق الحب سعادة وهناء مع زوجها حتى تتجرع غُصّة الحقد لؤماً وشراً من أهلها فماذا تتفعل؟

هي حائرة خائفة، لا تكاد تلمس أوراق الورد وتحظى بعطرها حتى تجرحها أشواكه فتُدميها.

لكن أحداث الماضي التي يحاول الجميع طمسها لا تلبث أن تعاود الصراخ أن أميطوا عن وجهي اللِّثام، وأرفعوا عني الحجاب، فأنا قادمة لا محالة.

الماضي يقبع كتلال رمال متحركة كلما حاولنا النجاة منها كلما غرقنا بها أكثر وأكثر.

ولا يزال هلال يصدح في القرية بمواويله الحزينة....

الحق راجع يا بكرة،

والسيف صوته عالي.

آه لو معايا الدوا...

كشف الطبيب غالي.

داوي الجروح يا طبيب،

دا قمرنا ف العلالي.

قولولي الصبر فين أراضيه

وسكته وروهالي.

كانت بَحّة صوته تُثير الشجن في قلوب أهل القرية، اقترب من بيت البغدادي ليصدح مرة أخرى:

وكل مكسور بأمر الله مجبور.

وكل مهزوم بإذن الله منصور.

صوته يُزلزل أعماقه.

التغافل يكون أحياناً هو الخيار الأسهل وربما الأفضل، لا يزال يكتم الماضي بين أحشائه.

تنهد بشرود وترك لأفكاره العنان، هو يشفق على حفيده من الحقيقة المؤلمة، ويخشى ردة فعله.

هل ستتغير نظرته له؟ وهل ستتأثر العلاقة بينهما التي بنيت على الحب والاحترام؟

كان يخاف من لومه وتأنيبه، فربما تأخر الوقت وفات أوان الاعتراف، وككل مرة يُحاول الخروج من تلك الدائرة التي أُغلقت عليه وألجمته ولا يستطيع، فهو مُكبّل بأغلال الماضي الذي كان شريكاً فيه ولو بالصمت، ولن يشفع له حسن نواياه فيما اقترفت يداه.

احتل الخوف قلبه ليزجر المواجهة الدائرة بينه وبين نفسه بمزيد من صمت وحسرة.

***

قد يكون البتر أقصى أنواع الألم لكنه أيضاً قد يكون آخر الحلول للنجاة.

لا حياة بلا أمل.

ولا حياة أيضاً بلا ألم.

والألم هو ذاك الخيط الرفيع الذي نمر عنده ونحن موقنون بالخَسارة .. معترفون بالحسرة.... ومستعدون لفداحة الثمن.

***

مرّ يومان والثالث شارف على الانتهاء ولم يظهر عاصم بعد، يكاد يُجن جنونها، أين ذهب؟ ولماذا رحل فجأة؟ هي لا تفهم ما حدث وهذا ما يُثير حنقها أكثر.

فقد اعتاد هو على قضاء يوم أو بعض يوم بالخارج، أما ثلاثة أيام وبدون سابق إنذار! إنه لمدعاة للريبة والشك. عقدت «حُسنة» جديلتها السوداء الكبيرة فوق رأسها وجلست بصحن الدار تبكي وتندب حظها

- يا مرك يا حسنة على غياب راجلك، يا مرارك يا حسنة ولا حد سأل عنك، يومين تغيب والتالت هيعدي، ولا حد سائل ولا حد بيعدي. ليه يا هموم بتدبحي صدري، الخسيس يا بوي كسر ضهري.

كانت تولول بحرقة ودموعها تهطل بغزارة في مشهد عجيب لا تكاد تصدقه العين، مرّت بها «جميلة» فوقفت مواسية قبل أن يظهر يحيى في المشهد، لكنها زجرتها بنظرة مستاءة، أتبعتها بسيل من السُباب:

- اسألي جوزك وين أبوكِ يا بت عاصم، بعتينا كلاتنا عشانه؟ تلاقيكِ عارفة إنه حابسه ولا قاتله وساكتة يا خايبة الرجا.

دموعها البائسة عجزت أن تطرق قلب أم قُدّ من حجر صوان، تدخل يحيى مُهدئاً عمته مدافعاً عن نفسه وعن زوجته:

- اهدي بس يا عمتي عيروح فين يعني تلاقيه سافر يرمح ورا واحدة من إياهم.

اتسعت عيناها زاجرة له حاملة من الوعد والوعيد ما لم يره بحياته:

- والله لو عرفت إن ليك يد في اللي حصل لاخليك تكره اليوم اللي اتولدت فيه.

ألقت جملتها بغلظة وقسوة وهي ترفع حاجباً واحداً على ملامح مميتة، زَمَّ شفتيه ودمدم بغضب ليهمس لنفسه بصوت غير مسموع:

- الجنازة حارة والميت كلب.

***

الحياة ورطة كبيرة تتلبسنا شيئاً فشيئاً ولا نُدرك أنّا بين أنيابها إلا حين نقع في فخها.

***

مرّ يومان آخران ولا خبر عنه.

جابت البلدة من أولها إلى أخرها تسأل عنه الغريب والقريب، وما مِن جواب، أحدثت ضجيجها المُعتاد وهي تلِج باب الدار.

التقط همهماتها ولم يُدرك ما تقول، فالتفت ناحيتها مُستشفّاً أمرها لتسأله بتحدٍ وإصرار:

- وديت جوزي فين يا يحيى؟

تنهد بصعوبة ليقف بمواجهتها...

- قلت لك ماعارفش حاجة عنيه يا عمتي.

سيطر التوتر على الجميع، لتقذفه «حُسنة» بأقذع الألفاظ وتسبّه بأبشع الشتائم.

- كانك قتلته وتاويته يا مجرم يا قليل الأصل.

زفر بقوة وخرجت كلماته حارقة:

- بعدي عني الساعة دي يا عمة الله يرضى عليكِ.

زادتها كلماته المتزنة جموحاً ونزقاً، فأمسكت بتلابيبه:

- أبعد؟ دانا هاروح فيك ف ستين نصيبة، يا عايب يا دايب يا بغل الزرايب، لميناك وأويناك وأنت تاكل خيرنا وتنحل وبرتنا، يا عرة الرجالة يا حالق راسك وواكل ناسك ومخلي الأصيل مداسك.

قرر أن يوقفها عند حدّها حين هرعت جميلة تضع يدها على فم أمها تكتم الكلمات قبل أن تخرج، ولكن هيهات، قذفتها «حُسنة» بعيدًا عنها لتسقط على الأرض وتمسك بظهرها من شدة الألم، لم تستطع ذراعاه أن تتلقفانها، فوثب بسرعة وانحنى يُحيطها وبنبرة ملهوفة ينطق باسمها:

- جميلة.

سارع بمساعدتها على النهوض بخوفٍ ولهفة، وأمسك بذراع «حُسنة» وكوّمها على الأريكة حتى تسكت وتهدأ قائلاً بتهديد ووعيد:

- ماتخلنيش أتغابى عليكِ يا ست أنتِ.

وحذّر جميلة من البقاء أمام تلك المرأة:

- اطلعي فوق أنتِ ومالكيش صالح بالقرف دا.

كان يضغط الحروف بسخط ولا يترك الاستغفار والحوقلة من لسانه، لكن «حُسنة» بلغت من الغضب مبلغاً أعماها:

- آه يا خسيس يا ابن الخرسا والله لاقطع خبرك وخبر اللي جابتك.

أمسك برأسه غير مستوعب لما تقول ليزجرها بعد أن نفذ صبره.

- ماتجبيش سيرة أمي على خشمك.

وانفجرت حُسنة كبركان حُممه تتلظى نيرانًا مُستعِرة:

- أمك المصراوية اللي خلت أبوك يبيع ناسه ويتبعها زي المجاذيب، امك اللي مقلتلهاش يوم يا امه، ياللي مكناش هنعترفو بيك، ربيناك شفقة على جدك، ياللي ابوك باعنا واشترى الغريبة، ياللي اكتبت باسم عمك، يا للي.....

تلقّت صَفعة على وجهِها أخرستها تماماً.

- اخرسي لاقطع لسانك، سدي خشمك.

تدخل هنا الجد لينهي تلك المهزلة، ولكن بعد ماذا؟

فما كان طيّ الكتمان وظنوا أنه دُفِن وبات بمأمن عن البشر؛ كشفته الأيام في لحظة جنوح مُشتعِل.

***

قد لا تؤلمنا الخيانة بقدر ما يطعننا في مقتل هُوية مُرتكبها، فالصدمة حين تكون من الأقرب إليك هي الطّامّة التي لا تُبقي ولا تذر.

***

كان يدور حول نفسه غير مُصدّق ما سمعه وكأنما انتابه جنون لحظي، كان يضرب رأسه في الجدار مرة بعد مرة.

يصرخ بقوة متسائلاً:

- يعني أيه الحديت دا فهموني يا خلق هووووه؟؟!!

وهنا تحررت الحقيقة من عُقالها، وخلعت الخديعة سِترها، وبات على من أشعل النيران أن يطفئها ومن فتح الأبواب أن يغلقها ومن بدأ المأساة أن يسردها.

دارت به الأرض، فأمسك بحفيده يسأله دعمًا وسندًا، سارع يمسك بيده ويحيطه بذراعه تجاه غرفته، أودعه الفِراش فطلب منه بخاخه الطبي، وحينما انتظمت الأنفاس تنهد بثِقل مشيرًا له أن يناوله صُندوقه الخشبي.

تصلّب جسده لحظة ربما شعر بما يخبئه له القدر، ثم نهض متعثرًا بخُطَوه، ليتلقف من يد جده ورقات مطويات بيمينه، نهاية مبتورة لكلمات نُقِشَت بحبر قديم على وريقات صفراء، عجز لسانه عن ترك سقف حلقه الذي التصق به.

مارس يحيى أقصى درجات ضبط النفس، يحاول السيطرة على غضبه، على وجعه وفجيعته، أفكاره مشتتة، عقله شارد، وقلبه مطعون بنصل حاد، واجهه جده باحثًا عن مُستهل لحديث عصي وكلمات تأبى أن تُغادر الشِّفاه.

فالنسيان نعمة، وهو يستدعي ذكرى أليمة وتفاصيل مرهقة.

تنهد الجد تنهيدة حارقة وتحاشى النظر إلى وجه حفيده وهو يقرر ويكرر على مسامعه ما قيل قبل قليل:

- أيوا يا ولدي إحنا كتبناك باسم عمك.

تغضّن جبينه وحدجه بنظرة داهشة أتبعها بصرخة وازت نهوضه بعنف ليقترب من جده أكثر في هِياج وذُعر:

- كيف يعني أبويا مش أبويا، وليه كتبتوني باسم عمي؟

دار حول نفسه وأردف:

- أني عايز أعرف كل حاجة وبالتفصيل.

لم يملك الجد من الأمر شيئاً سوى الإذعان والقبول، فالحقيقة وحدها هي المطلوبة الآن وإن لم تكن مقبولة، وإن أنكرها العقل ورفضها المنطق، أومأ رأسه بالإيجاب ليزفر بمرارة وعيناه تلتحمان بعيني حفيده

الذي أرهف السمع وأطرق النظر ليلتقط كل لفتة أو همسة أو حتى سكتة.

- من أكتر من عشرين سنة بعد ما حسن ولدي سافر واتجوز من مصر خلف ولد، وجاتنا مرته وقالت إن ولدكم مات وكان معاها طفل صغير، حسين اتجن ومارضاش يعترف بيه ورفض إننا نربوه، خلفته كلها ابنتة خاف لابن حسن يكوش على المال والطين كولاته، حُسنة كانت مريضة و عنديها اكتئاب، متطلقة وجوزها فايتها بعد كام شهر جواز وكانت فرصتها تطلع غضبها وتشفي غليلها وفضلت تزن ف ودان حسين لحد ما اتفقوا يقتلوا الولد وكان عاصم الكلاف بيقدملهم أي خدمة عفشة، وخدوا الواد خفوه وحبسوا أمه وحرموها منيه وعذبوها عشان توافق ترحل وتفوته.

تعلّقت عيناه بعيني حفيده في ضعف مُتسائلاً بهمس حزين لتخرج حروف أسمها من بين شفتيه قهراً ووجعاً:

- سندس؟

هزّ رأسه بندمٍ وأردف:

- ماكانش قدامي غير إكديه يا ولدي وربنا ألهمني بالحل اللي فيه نجاتك ونجاتنا كولاتنا.

رعشة فمه جعلته يرثى لحاله، لكنه لا يستوعب الأمر ولا يستطيع تصديقه، بل لا يستطيع احتماله.

- كانوا هيقتلوك.

- وأنت كنت شريكهم في إكده؟

بادره باتهام جديد فسارع ينفيه:

- لا والله يا ولدي عمري ما فكرت في إكديه واصل.

تشددت قبضاته بقوة قاربت القسوة ليزم فمه في حرقة:

- ليه؟

لكن الجد أغمض عينيه بألم واكتفى بطأطأة رأسه واجماً مُعلناً ندمه.

دقائق مرت هي كالجبال، الصمت فيها كان أقوى من الجميع، عاد الجد وكأن صوته قادم من جُبٍ عميق كمن ناء بخزي عظيم:

- أنت حفيدي في الأول وفي الآخر أنت ولد ولدي، يا يحيى ....

نداء خافت باسمه كأنما يستحثه أن يغفر له، صوته المختنق ونبرته المتحشرجة أوجعت قلبه لكنه مبهوت مما يسمع، عاد يؤنّبه من جديد:

- وما قولتوليش ليه ؟

لم يرد، فتقطعت أنفاسه وهو يضيف:

- وأمي ذنبها أيه عشان تعملوا فيها إكديه؟

وأضاف بمرارة:

- عذبتوها لحد ما بقت خرسا؟

لم يستطع حبس دموعه وصرخ:

- وخدّامة!؟

أخفى وجهه بين يديه وتساقط متهالكًا فوق المقعد، وأضاف باستنكار:

- ليه؟

كان جده يُدرك أنه على حق، فلا مبررات تزيح عنه الإثم، ولا مسوغات تكفي لتبرئته من جريمته، ولا دوافع تفك عنه قيود جرمه، لقد أخطأ وتعقدت الأمور حتى تحول الخطأ إلى خطيئة واستحكمت العقدة لتصير مصيراً.

تطلع إليه بضعف ووهن مُكَرِراً جملة واحدة بيأس وأسف وندم:

-ماكنش قدامي إلا إكديه.

شعر أنه بلا هُوية، حقيقته مسروقة، مُبهمة، مزيفة.

-«وُلِدتُ وكَبِرتُ في ظل الخديعة!». ثم انطلق يعدو، لا يعرف أين تقوده قدماه.

***

-١١-

القلب؛ تلك المُضغةُ التي خلف الضلوع، تلك القبضة التي تحوي كل المشاعر والأحاسيس. كيف يحوي الشيء ونقيضه! بل كيف ينقلب من حب إلى كره أو العكس!؟

فإن كان الغضبُ يُذهِب نور العقل، فإن الحقد يُطفئ نور القلب.

الحقد؛ ذلك المرض المزمن، طبقات مُتراكمة بعضها فوق بعض من الكراهية.

تدفع للانتقام وتقود للهلاك، فيضيع هنا نقاء الروح وبراءة القلب.

فكم ضاعت حقوق وفُقِدت حياة بين غضبٍ وحقد!

***

ألقوا بوجهه تلك القنبلة الموقوتة، وتركوه ليعتم المشهد بنهاية محتومة، ليته ما عرف الحقيقة، الحقيقة التي كسرته.

فقد اكتشف تواً أنه كان دُمية بيد الجميع، هدفاً يتم الزج به في معركة ليكون هو الضحية لهدف آخر،

كان يبحث في عقله عن سبب لما فعلوه به.

عن جواب لأسئلة كثيرة لا إجابة لها.

لقد سقط في الفخ وهو لا يدري!

استقل سيارته يدور بها في الطرقات مرّ بشوارع كثيرة وأماكن أكثر بلا هدف.

نيران الماضي تقذف حممها في صدره، لم تكن الحقيقة وحدها سبب فجيعته، ما مزّقه حقاً؛ كونه الجاهل الوحيد بالأمر، لقد كان الجميع يعلم إلا هو.

رجلان رحلا عنه؛ واحد هو بِضعةُ منه، من صلبه مات ولم يره، لم يترحّم عليه يوماً، لم يزُر قبره.

والآخر اغتصب وجوده وسطاً عليه ليعيش في وهم وخديعة طوال حياته،رتق به ثوب رجولته التي لم تكتمل بولد ذكر من صلّبِهِ كما يُفكرون.

ورغم كونهما شقيقين من جِذر واحد وشجرة واحدة إلا أنهما نقيضين!

***

من الأوجاع ما لا يبرأ بمرور الزمن، ومن الجروح ما لا يندمل مهما تعاقبت الأيام، حتى وإن حدث، يترك نُدبات تؤلمنا كلّما لامسناها أو تحسسناها عاودتنا نزفاً وألماً ووجعاً.

***

استقر في سيارته على جانب الطريق لا يدري أين يذهب، فكل الطرق مغلقة وكل النهايات مظلمة.

وكأنه أدرك للتو أنه كان بيدقاً في رقعة شطرنج غاب بياضها وتلبسه سواد جُرم وشؤم جريمة، فصرخ بياضها الذي اندثر رويداً رويداً حتى استسلم

وغاب، ثم ضاع.. وها هو ضائع تائه لا يدري ماذا يفعل، لقد قُدِرَ عليه أن يتحمّل المسئولية وحملها رغم ثِقلها، ألقى برأسه على مسند السيارة بإنهاك والتفت ناحية النافذة يستنشق بعضاً من الهواء، فقد بدأ يشعر باختناق.

كان كطفل ضائع يبحث عن حِضن آمن،أدار مُحرّك سيارته متوجهاً إلى مقر الشركة، حيث لا أحد يشاركه انهياره وسقوطه.

تهالك على أريكة عريضة في غرفة مكتبه، مرَّت ساعة، وساعة أخرى، وثالثة، وانتبه بعد ضِعفهن لهاتفه الذي فرغت بطاريته تماماً بعد عشرات الرسائل ومئات الاتصالات فأي كلامٍ قد يسوغ جريمة!وأي حروفٍ قد تُبرر جُرم!

استعرت عيناه بلهيب شَرِس وقام متحاملاً على نفسه ليضعه بمقبس الكهرباء وتحرك بالمكان شارداً، عقله مُشتت، عيناه حائرتان، يا لها من لحظات قاسية تمر بخاطره! ضعف ووهن، خوف ويأس،ثم رغبة عارمة في الانتقام ومن الجميع.

ما من سبيل لأمر يحتوي وجعه وانكساره، لكنه بالنهاية قرر أن يخوض المعركة ليستخدم فيها كل الأسلحة، سواء المشروعة أو غيرها!

مرّ أمام عينيه شريط مُفصّل لحياة مرت عليه، وجوده فيها خطأكعلاقته بكل من حوله.

وثيقة ميلاد، وفاة أب، عجز جد، مسئولية عائلة بأسرها وازى هذا كله جريمة دِيرت بليلٍ.

فمن أراد قتله هو أقرب إنسان إليه...أبوه!

لا... ليس أبوه، بل عمه.

هل الحقد والغضب يغرس القسوة وينبت الألم؟

ها هو يبتعد عن كل شيء، حتى من ارتبط معها برباط لا ينفصم، وطفل من صلبه تحمله أحشاؤها، يكبر بين ضلوعها يوماً بعد يوم.

فلو يُقاسُ العمر بزمن لقلنا أنه لحظة،

لحظة اكتشف فيها أن حياته كلها لم تكن سوى خُدعة!

ففي عُرْفِ السعادة؛ الجهل نعمة، والنسيان رحمة، فيا ليته ظلّ جاهلاً، ويا ليته الآن ينسى.

فما فعلوه به ذنب، والتوبة منه مشروطة بدم.

فرك جبهته بأصابع يده ومرر أنامله يحك فروة رأسه، فقد أحسّ أن الدم يفور ويغلي فيها، وضع رأسه اسفل صنبور المياه علّه يهدأ.

كان النهار قد بسط نوره على الأرض ليزيح عتمة الليل، لكن عتمة القلوب لا سبيل للخلاص منها.

سيزدحم المكان بعد قليل، فقد حان موعد العمل بالشركة.

دقّات متتاليات على باب غرفته ليهتف بمللٍ:

-ادخل

كان يظنّه أحد العاملين أو ربما الساعي، لكنه فوجئ بها تُهرول ناحيته! تضمّه بلهفة وتبكي، اخترق نشيجها ضلوعه مستسلماً حتى لان، لكنه بعد لحظات تراجع للوراء قليلاً، تصلّب جسده وشدّد قبضته، فبترت تردده وصاحت:

-ولدي، اكديه كنا مرعوبين عليك يا ولدي؟

سخِر بمرارة هزيمة لحقت به من الجميع ولا يزال يتجرع غُصّتها:

-ولدك؟! والله مابقيت عارف أنا ولد مين بالظبط.

ظهر من خلفها والدها الشيخ شيخون الذي كان يجرّ أقدامه جراً وقد بدا عليه التعب والإنهاك.

-كيفك يا يحيى؟

نظرة طويلة بائسة أعقبتها زفرة قنوط ليُدير جسده ويخفي رعشة تهزه وهو يردد:

-مجروح......تايه.....ضايع ماعارفش والله مانا عارف!

لتنكسر نبرته بألم:

ولا فاهم ....ولا مصدق اللي بيحصل.

بلمسة أبوية ربّت على كتفه.

-وحّد الله يا ولدي.

زفر حانقاً وهو يخبط سطح المكتب بقبضته مردداً بتتابع حارق:

-لا إله إلا الله.

ظلّ يُكررها وألم حارق يخترق ضلوعه.

انفك عقال غضبه ولم يملك السيطرة عليه.

-الماضي بير غويط يا ولدي، كلٍ ما غوصنا فيه كل ما غرقنا أكتر، بلاش تحمّل نفسك فوق طاقتها، بكفاية الذُل والحسرة والندم اللي مالية قلوب اللي حواليك.

توتر.. تردد.. ارتبك، لكنه بعدها حزم أمره وحسم قضيته ليبتر بقعة نور رحيمة بزغت في قلبه ويقسو على الجميع وأولهم نفسه.

-لازمن الكل يدفع التمن مش دا العدل يا عم الشيخ؟

لم يستغرب شيخون ألمه وحسرته، ولم يستنكر غضبه وثورته، بل لم يرفض شططه وحماقته، فهو بالنهاية إنسان.

-يا ولدي لو دخلت دايرة الانتقام دي هتأذي نفسك.

تلعثم لسانه بعجزٍ واضح وألمٍ موجع:

-مستحيل ....مستحيل.

كانت يداه ترتعدان وعقله يكاد ينفجر هلعاً وذهولاً وهو يضيف:

-ايه العيلة المفترية دي! اللي تكتب واد باسم عمه وتعذب أمه لحد ما تبقى خرسا وف الاخر تبقى خدامة، عاجزة تقوله يا ولدي ومحرومة تسمع منه كلمة أمي.

كانا يراقبان انفعالاته بقلق فقد يقوده الغضب لتصرف أحمق أو فعلة هوجاء.

إن كبتَ مشاعره، قد يقوده إلى انفجار عنيف لا يعلم مداه إلّا الله.

تخطت والدها لتقترب منه:

-بلاش يا يحيى القسوة تعمي عينيك.

هزّ رأسه بغضب:

-تعرفي أول فكرة خطرت في بالي؟

كزّ على أسنانه وتابع:

-القتل.

قطع شهقتها استرساله في الحديث...

- ايوا القتل.

لكنه أشار لها بيده لتهدأ وهو يهز كتفه بيأس:

-والقتل هيفيد بإيه؟ هيرجع اللي راح؟ هيخلي أمي تنطق؟ هيردلها كرامتها؟ هيرجع لها عمرها وصحتها وشبابها اللي ضاعو؟!

هي معركة خاضها رغماً عنه، لم يختر أن يحارب فيها ولم يملك أن ينسحب منها، ثم أُرغِم على الخسارة، فالهزيمة هنا هي الخيار الوحيد المتاح.

معركة الهزيمة فيها فرض عين؛لأن الانتصار سيسحق الجميع ولا مجال لتفاوض أو حتى مقايضة.

***

سكنت النافذة تنتظر عودته بحذر مُترقِب، لينتشلها من غياهب اليأس، ما بين دمعة حارقة تغادر جَفنها وأنّةً صامتة تكوي ضلوعها، مرّ الليلُ كله وهو لم يظهر بعد..

عشرات الرسائل والاتصالات بجواله وبهاتف الشركة ولم يجب، صداع حاد وألم رهيب بجسدها كله تدق رأسها كمطارق ثقيلة، فهي عاجزة عن فعل أي شيء.

عادت تتفحص هاتفها للمرة المائة ربما ردّ على رسالة من رسائلها، ولكنها لم تجد شيئاً.

كانت تحبه وتلك سعادتها، وكان عالمها ووجودها فيه قمة رضاها، شاردة هي تفكر فيه، تُشفق عليه، تخشى ردة فعله، تخشى أن يظلمها، إحساس مقيت بالعجز.

كم تتمنى لو تدور عقارب الساعة للوراء، لترفض العهد، و تنقض الوعد، وتحنث في قسمها الذي أقسمت عليه لجدها بكِتمان السر، السر الذي عرفته في لحظة سوداء لرجلين في حياتها؛ أبّ... أبّ كتب اسمها أمام اسمه في شهادة ميلاد فقط، حمّلها تاريخ خزي وعار، أبّ مفروض عليها بقوة الشرع والقانون، لا تملك حق تعديله أو تغييره.

وزوج ملك قلبها وعقلها، تكاد تفقده، بل ربما فقدته بالفعل.

زوج لم تتمنى سوى قلبه.

كان محور حياتها، بذلت الجهد والحب لإرضائه،تهتم به لدرجة العشق، لا من باب المودّة والرحمة.

تحفظ تفاصيله الصغيرة، لكن التفاصيل هنا قاتلة!

بين خطيئة المعرفة، ومعرفة الخطيئة.

بين وهم الواقع، وواقع الوهم.

انقبض صدرها وتلك الذكرى تتجسد مرة أخرى أمام عينيها، تتحداها فلا تستطيع الصمود ولا تقدر على الهرب.

فيعتصر خافقها بألم.

في لحظة ما ...في ساعة ما...في ليلة ما...

قُبيل زَفَافها، حين طلبها جدُّها في غرفته وتلا على مسامعها ذلك السر المشأوم، تطلعت إليه بتوترٍ ووجل..

كان شاردًا يتّكِئ بذقنه على عكازه الخشبي وطلب من أمها أن تتركها معه وحدها.

أومأ لها أن تجلس فاستجابت بخُطى متمهلة لتجاوره في مجلسه في رهبة وخشوع، تحشرج صوته وبنبرة جادة طالبها بالقسم على أن تصون السّر ولا تبوح به لأحد مهما حدث.

ثم بعد أن عاهدت وقصّ عليها القَصص؛ أخذ يُعدد لها الأسباب، فهي ستنقذ العائلة من فضيحة مدوية إن انكشف السِّتر وعُرِفَ السِّر، كما أنها ستحقن الغضب الذي ملأ صدر أبويها لامتداد سُلطات «يَحيى» على الثروة بأكملها.

كان وعدها له أشبه بحكم محكمة بفِراق مؤجّل بينهما، فكيف سيعيش معها بعد أن يتيقّن من أنها كانت تعلم كل شيء وأخفته عنه!

بل وربما يتّهمها بأنّ لها يد فيمَ يحدث وأنها شريكة في الجريمة. تهدّل كتفاها يأسًا وبؤسًا لتفيق من شرودها على أصوات صليل أساور أمها وقد وضعت قبضتيها في وسطها ولوت شفتيها بمصمصة ناقمة عليها:

- حزينة عليه يا خايبة؟ إن شالله مايرجع ولا يدخل الدار دي تاني.

اخترقت كلماتها أذنها بلا ردّ وقابلت كلامها بصمت،

هل هي أم لا موقع لها من الإعراب ولا أمل منها في النجاة؟

استقامت لتواجه ابتسامتها الخبيثة ونظراتها الماكرة.

في قلب كل منّا نبتة صالحة ستُزهِر وتُثمِر إن رعيناها ورويناها بالخير، وإن سقيناها شراً؛ خَبُثت وأفسدت العالم.

امرأتان

بينهما رابطة أمومة مُهترئة وذكريات ماضٍ مشأوم يود الجميع دفنه.

صورتان متناقضتان متعاكستان لعملة واحدة، أم وابنتها تتشابهان كثيراً وتختلفان أكثر؛ تتشابهان في الملامح، في الصورة، والشكل، لكنهما تختلفان في الطِّباع والسلوك، في القيم والمبادئ. كانت جميلة تستدعي كل ما تملك من ثبات وتماسُك، تعلّقت نظراتهما لثوانٍ، حملت نظراتها لوماً وعِتاباً مغلفاً بسخطٍ وحنق،أما الأخرى، فقد كانت نظراتها غامضة بلا تعبير سوى القسوة والجبروت.

ظلّت جامدة مكانها، ثم هتفت بغضب:

-ليه؟ ليه بتعملو فيا اكده؟ ليه دمرتوني وهديتول حياتي؟ وجيتي انتي خلصتي عليه وقضيتي عليه بالحبا.

حركت «حُسنة» ذراعيها باستهجان، وصاحت بحاجبين معقودين:

-وايه كمان يا بت حُسنة؟

رسمت ابتسامة جليدية فوق فمها هي أقرب لالتواء حاد، ترمقها بنظرات تحدٍ لتضيف:

-عايزة تعملي ايه؟

تخطتها ببرودٍ، لتلمح الضيق والألم يلتهمان ملامحها، فارتفع حاجباها دهشة لتُصفّق بحماقة:

--وريني أخرك يا مرة الغالي.

رفعت جميلة بصرها بغيوم تكاد تُغطي عينيها تماماً ضيقها يتضاعف بقدر صلافة الحديث.

زفرت بقنوط ويأس وهي تمسح مدامعها وقد جف حلقها.

لكن حُسنة لم تصمت وأضافت بحنكة امرأة تعرف تماماً ما تقول:

-يا مجذوبة يا مخبلة، اللي بتبكي عليه دا كوّش على كل حاجة في عِبه وطلعنا من المولد بلا حمص، اللي بتتشحتفش عليه دا كانه قاتل بوكي ولا حابسه!

كانت عيناها تتوقّد غضباً وهي تبث سمومها، تلتمع كزئبق يودّ ابتلاع الحياة.

فلم تستطع جميلة التعقيب إلا بجملة واحدة، ألقتها ومضت لتتوضأ وتُصلي:

- والله ماحد هيموت غيري من عمايلكم، حسبي الله ونعم الوكيل فيكم.

خرجت كلماتها بقسوة وكأن قاضياً أعلن الحُكم ورُفِعَت الجلسة!

***

كلّما همّ المرء بتوديع الحياة أو حتى زُهدها، فتحت له ذراعيها واستقبلته بحفاوة بالغة.

***

جلسا بمكتبة عامة وبينهما سيل من الذكريات المُفْعمة بالحنين والشجن، سمح لنفسه بالغوص في نهر الماضي؛ مذاكرته لها مادة الفيزياء وقوانين نيوتن التي قتلوها بحثاً، وسخرية نظاراتها الطبية المتعددة التي كانت تغيرها كل فترة بلون وشكل جديد،ضحكتها المميزة الخجلى بعفوية وبراءة.

كل ما فيها كان يجذبه إليها وهو لا يدري، حتّى إذا ابتعد، عرِف وأدرك أنه الحب، أمّا هي، فكانت مرتبكة قلقة وحذِرة.

رغم أنها ترتدي قِناع الحَزم والسيطرة لتتماسك أمامه، إلا أنها تنهار حين يثبّت نظراته عليها، تراجع في جلسته فتوترت، ابتسم فارتبكت، تحدث فاحمرت وجنتاها خجلًا،ثم فاجأها بسؤالٍ مُفخخ:

-تقدري تسافري وتبعدي عن الواحات يا فاطمة؟

كان يرمقها بنظرة قوية متفحّصة تحاول سبر أغوارها، تململت في جلستها وهي تُجيب:

-على حسب، المكان والزمان والصُحبة.

همّ بالحديث لكن رنين هاتفها أسكته، لتبتسم بودٍّ وتلتقطه مُجيبة:

-الو.

توترت ملامحها وتغضن جبينها، وحين أنهت المكالمة تحرّكت بغية الرحيل، فاستوقفها يطمئن:

-خير يا بت عمي طمنيني مين كان بيكلمك؟

أحسّت بثقل على صدرها فتنهدت وردّت بعُجالة:

-تعالى وصلني الموقف وهحكيلك في السكّة.

جاورها وبدأت تقصّ عليه ما أخبرتها به مُعلِّمةُ كلثوم...

-مُدرِّسة ثومة بتحذرني من سلوكياتها الفترة الأخيرة، وأنا برضك ملاحظة عليها حاجات غريبة.

-غريبة ازاي؟

-بتقعد باليومين تلاتة لا تكلم حد ولا تاكل معانا وعلى طول ماسكة الموبايل والألعاب.

-تقريباً معظم الجيل دا كدا يا فاطمة ما تكبروش الموضوع.

-لا يا فارس، دي ساعات بتقعد ليلتين ما تنامش وتطلع السطوح ف أوقات غريبة، دا غير أسئلتها العجيبة عن تفاصيل حاجات ما تهمهاش وردودها الأعجب على أي أسئلة.

-تفتكري ايه؟

تردّدت ثم قالت:

-المدرسة بتنصحني أعرضها على حد متخصص، البنت وشها بدأ يصفر وتحت عينيها يسود، دا غير الجروح الغريبة اللي في ايدها.

همهم فارس بقلق ثم توقف عن السير قائلاً:

-كدا مهمتك صعبة يا فاطمة لوحدك، لازمن تعرضيها على متخصص لأني سمعت عن ألعاب إلكترونية بتدمر اللي بيلعبها.

نظرت إليه وألقت جملتها باستفهام حَذِر:

-أنت شاكك في الحوت الازرق؟

تابع سيره وأردف مطمئناً:

-إن شاء الله تكون حاجة بسيطة، ولو حتى الجوت الأزرق، الحمد إننا اكتشفناها عشان نعالجوها.

***

للقلب حسابات مختلفة، فمعادلاته دائمًا لها نتيجة ثابتة، تلقينا الاختبارات في تردُّدٍ وحيرة، وربما تشتت،فلا نعرف الصواب من الخطأ ويغدو عسيرًا علينا تحديد القرار، أنقترب لنفوز، أم ننتظر لنخسر؟

وهي مُشتّتة لا تدري ماذا تفعل، توضأت وصلت، بكت ودعت ربها أن يفرج كربها ويرد إليها زوجها.

تلقفت وِصال وحديثها عن لقاء جمعها ووالدها بيحيى، أرادت ان تُطمئنها عليهِ فازداد خوفها وقلقها أكثر.

سارعت لتطمئن على جدها وتستأذنه في الذهاب ليحيى، كان الجد شاردًا يُحملق في صور ولديه المُعلّقة على الجدار، ضوء خافت وسكون مقبض وهو جالس بوجوم.

أضاءت الغرفة فرمش باستياء؛ فبادرت تسأله:

--كيفك يا جدي؟

رجفة لامست فكه ليتقلص ببطء وهو يردد:

-الحمد لله يا ابنيتي.

-قلبي واجعني قوي على يحيى وخايفة عليه وحاسة بيه وبعذابه.

-ما تخافيش على يحيى يا بتي، يحيى مؤمن وقوي وهيرجع لعقله، هو بس مصدوم، المصيبة تقيلة عليه.

مررت إليه مخاوفها التي كان بصدره أضعافها لكنه كان يبثها اطمئناناً تحتاجه، كانت يداه مغلولتان إلى عنقه، فهو لا يملك حلًا لتلك المُعضلة.

-بستأذنك يا جدي هاروح أطل عليه واتحدت معاه يمكن يسمع مني!

زفر بقنوط:

-روحيله يا بتي، شيخون ووصال قابلوه في الشركة وإبراهيم رايحله توًا كلميه وخليه ياخدك معاه.

أومأت بالإيجاب وهمّت بالمغادرة فاستوقفها متمتماً بأسى:

-قوليله جدك اتوحشك ومالاقيش حد يقضيله حاجته، قوليله جدك انكسر ومحتاجك يتسند عليك، قوليله جدك ندمان وماعرفش يصلح غلطته ازاي.

ونشج بحرقة ليضيف:

-قوليله ارجع لحضن جدك ...قوليله عاود يا يحيى.

أشفقت عليه وبكت، فقد احترق قلبها وهي ترى انهزامه وحسرته.

***

-١٢-

يحيى

أنا إنسان...

بني آدم مش عفريت ولا جان.

الرحمة يا ناس ...أنا إنسان.

من حقي أثور، أكون غضبان،

ودمي بيغلي من الفوران.

ومن قسوتكم حزني يبان.

أنا إنسان...

وبحناني عليكم أنا ندمان،

بخداعكم ليا مش فرحان.

وحقي هصونه مهما كان.

وعد عليا، أنا مش جبان.

أنا إنسان...

«ملك حسين»

هل تُجدي حروف نازفة لبداية مؤلمة ونهاية قاسية؟

هل تنفع كلمات مؤثرة؟

حكم ...مواعظ....مأثورات،

كلمات ليست كالكلمات!!

لا ....ليس هناك ما يعبر عن تلك القسوة وهذا الظلام الحالك،

عجز، قهر، هوان.

***

استقر بها المقام في غرفة رحبة لكنه لم يكن بها، جلست وأسندت ظهرها إلى الكرسي تنتظر عودته من صلاة الظهر كما أخبرها إبراهيم، تلتحف بالوقت وتترقب معجزة تخلصها مما تمر به.

وها قد حضر، زلزلة تؤجج أعماقها، خطوات حانقة، غضب جامح، ويبدو قرارات مندفعة!

لا يفصل بينهما سوى أنفاسها المتسارعة.

كانت تحاول أن تتخطى حاجز الصمت الذي فرضه بقسوة، رجفة جسده وصمته ثم تباعده جعلها تتمنى الموت، فاقتربت منه وبنبرة واجفة همست:

- يحيى.

تجاهل ندائها ليفرغ جامّ غضبه عليها، وبنبرة لوم فاقت الأوجاع:

- أنتِ كنتي عارفة؟

يبحث في ملامحها عن نفي لتهمة، عن إنكار أو رفض يريحه ويهدئ عقله المُشوّش ، لكنها صمتت وابتلعت حيرته لتطوف ببصرها بالمكان حائرة، لا تعرف للرد سبيلًا ،افأردف وقد تأكدت ظنونه بصمتها:

– يعني خدعتوني كلكم حتى انتِ يا جميلة يا مرتي.

وأضاف بتهكم:

– يا ستري وسري.

ماذا تفعل!؟ هي ستخسره على كل حال سواء تكلمت أو سكتت.

انقبض خافقها بينما عيناها تحوطان السماء لتُقر بإثم وقعت فيه ..سر عرفته ...وأقسمت على كتمانه.

صرخت به تحاول أن تُجهِض هجومه، أتت بكلمات غير مفهومات ثم واجهته بوهن امرأة أئتُمنت على سر زوجها وأقسمت لتخفيه عنه، عرفت حقيقته وأدركت هويته فأبت إلا الصمت والسكوت، تعلم أنها مذنبة، وأن توبتها مشروطة بفراق، لكنها تمسّكت بخيط أمل واهن فدمدمت بخفوت:

– أني ما عرفتش إلا قبل فرحنا بيومين.

استدار بلفتة مؤنِّبة:

– مين قالك؟

صمتت، فأردف متسائلاً:

– وإخواتي كانوا يعرفوا؟

وكأنه يعبث في لوحة مطموسة المعالم حالكة السواد، تتكالب عليه ظُلمة فوق ظُلمة، وجورٌ فوق جور. تسللت دمعة هاربة من بين أجفانها المتعانقة، لتمر على وجنتيها فتُشْعِل بهما النار، كانت مشاعرها مفصّلة، مفسّرة، كانت تريده هو لا شيء آخر، نظراتها تتوسل، تتمنى، تناشده ألا يتركها فيسلبها أمانها الوحيد.

توجه نحو النافذة وشرد بعينين ضائعتين، فيمَ يفكر وعلامَ ينتوي؟

نظراته مغموسة بأسى وأسف لكنها ملتزمة صمت القهر، نظرته باتت مذبوحة وعينيه الجريحتين، الحسرة تعتصر خافقها هي تحبه، ليست كلمة تقولها فحسب، بل هي ميثاق عشق عقدته معه، صك ملكية لحياتها وعمرها كاملين، قدمتهما قرباناً له.

- ماتظلمنيش يا يحيى.

التفت إليها ليرد بخفوت واعتراف قائم:

- كنتي معاهم.

تعانق جفناها بينما تنهيدة حارقة تُغادر صدرها الموجوع:

-لا، أوعاك تحطني في كفتهم أني معاك أنت.

جهرت بها في وجهه، صدحت بعذاباتها لتضيف:

- أني مرتك حبيبتك.

وأكملت وهي تلمس بطنها بحنو:

- وأم ولدك.

كان يوليها ظهره رافضاً الحديث ورافضًا حتى الاستماع. ارتعشت شفتاها وهي تتوسله أن يصفح عنها، أنفاسها بدأت تضيق بحزن ممتزج بذعر من فكرة فقدانه، دهست كرامتها لتُبادر فربما يغفر لها:

- سامحني يا يحيى.

كانت تراقب ملامحه المتجهمة لا تملك من أمرها شيئاً، تردد فتاهت، صمت فضاعت، سكت ففهمت وأدركت:

- معاك حق ...أني عارفة إن ذنبي كبير وأنك مش هتسامحني وأني عمري ما هسامح نفسي.

رغم محاولته التظاهر بالقوة، إلا أنه كان يرتجف حرفياً!

قلبه ..نبضه..جسده.. حتى أفكاره كانت ترتعد، دون إضافة ولّت الدُبر بعد أن غادرها التوجس ليحل محله الوجوم، فلو كان النسيان يُباع لاشتراه بكل ما يملك.

***

حين تمنحك الحياة قُبلتها هدية بنكهة العذاب وطعم المرار.

صدمة تبدو كطوق نجاة أو بئر هلاك.

لكن لا سبيل إلى النجاة، وحتى الموت أصبح عزيزاً!

***

جنّ عليه الليل وهو حائر، كان يريد أن يراها ويطمئن عليها، نفض رأسه بقوة يفض سيطرة أفكار قضت مضجعه ولم تغادره في صحوه أو منامه.

هاتف فاطمة يسألها:

- كيفك يا فاطمة ؟

سارعت ترد عليه وكأنما انتشلها من بئر سحيق:

- يحيى أنت فين؟ إحنا محتاجينك.

تلعثم ليُجيب بالنهاية بهدوء:

- حاضر يا خيتي هاجي ما تقلقيش من أي حاجة طول ما أنا موجود.

فرت دمعة من عينها لتمسحها بسرعة وهي تخبره بمرض جدته وتواصل الغيبوبة، ومشكلة كلثوم وبحثها عن طبيبة متخصصة.

استوقفها ليسألها عن سندس، فأجابته:

-سندس حالتها مستقرة الحمد لله.

- أقدر أشوفها؟

- طبعاً.

***

لم ينتظر حتى الصباح، وها هو أمامها على بُعد خطوات منها، لا يدري ماذا يفعل، مشاعره مبعثرة لا يعرف بأيها يبدأ.

عناق ...ضمّة...قُبلة....ربتة...بكاء...أنين ...حسرة...ندم!!

كلها جميعاً لا تكفي ولا تفي.

نبرته وجع وصوته من قلب رجل مهزوم، انهزمت دمعته تشارك نزف قلبه، دقائق مرّت زحفت بتأنٍ قاسٍ وتلكؤ مميت.

يقف جامداً أمام فراشها وهي مُمَدّدة بهدوء وسكينة كملاك بريء.

لو تعلم كم يحبها! كم هو مجروح من أجلها، كم هو محترق عليها، مد طرفه برقة يتلمس أناملها التي طالما قبّلها مُمَازحًا وابتسامتها الدافئة تمنحها له بامتنان.

زفرة ألم حارة شقت صدره وهو يتذكر تهالكها في التنظيف والترتيب، تخدم الجميع وتتبرع بمعاونة الجميع ومن دون طلب، يضرب الهواء بقبضته لاعنًا المال والقسوة والعائلة، بل ومِن قبلهم لاعنًا نفسه؛ فقد كان سبباً رئيسًا من أسباب قهرها.

ويُعلن الضمير عن حرقته فتفر دمعة من مقلته لتفض الاشتباك باقتضاب، سارع بمداراتها فما أقساه عجز الرجال! بل قهر الرجال.

انتبه مع دخول الممرضة لغرفتها تتفقد مؤشراتها الحيوية وتضخ بعض الأدوية بأوردتها

لمحته فقفزت من مخدعها لتلجمها الأجهزة المشتبكة بجسدها الواهن.

تكفّلت بمنحه ابتسامة حنونة وتساؤل بإشارة عن صحته وأحواله، تتنازعه الأفكار وقلبه يقرع بطبول حرب، ماذا يفعل؟

أيخبرها أنه عرف الحقيقة؟ وأنه سيقتص لها من الجميع؟ أيسكت ويكمل تلك المسرحية الهزلية؟

همس برجاء خائب:

- كيفك دلوقتي يااااااا... ياااااا... غالية!

تنهد بقلّة حيلة؛ فهو يعلم عذابها ولا يستطيع منحها نفحة من سعادة، عيناها تُعانق عيناه بامتنان فيسأل ربه الثبات، فهو المَدين لها بوجوده، ملامحه القلقة وتقاسيمه المرهقة جعلتها تسأله بإشارة متلهفة:

- مالك؟

دمدم ببحّة خاصة هي تعرفها عقب صمت طويل ليزداد ارتيابها:

- آني بخير المهم أنتِ..

رسم قسراً ابتسامة مصطنعة:

- وحشتيني.

قرر إصلاح ما أفسده الدهر، بل ما أفسدته عائلته في حقها وتعويضها بجزء ضئيل مما حرموها منه.

استعمر صدرها ليذوب بين ضلوعها غير مبالٍ بأحد، هي تحتاجه، تحتاج تعويض عن سنوات الشقاء، تحتاج وجوده بجانبها كـ «ابن».

لا يملك كلمات مواساة تكفي بشاعة ما حدث، ولكنه صمّم أكثر على الانتقام!

كانت ترمقه بغرابة أقرب للصدمة، وقسماتها تتغضن ببطء؛ فقد بدأت تشك وترتاب في تصرفاته، عيناها تلتهم كل تفصيلة منه ورأسها تومئ له بحنان أن ابقَ معي.

ابتسم وهو يضمّها أكثر:

- هقعد معاكِ للصبح يا ست الكل.

بعدها دس في يد الممرضة بعض الأوراق المالية لتتركه وتتغاضى عن وجوده.

شارداً على مقعد جانبي يراقبها بحنان، كان يفكر في سبيل لاسترداد كرامتها، فهو لا يملك رفاهية التنازل عن حقها ولا يقدر على التسامح والغفران.

***

هل الغرق في الذكريات درباً من دروب الهرب؟

أيكون المستقبل مؤلم أكثر من الماضي الذي كان قاسيًا فلم نعد نحتمل المزيد لنرضى بآلام الماضي.

***

أمام حاسوبها تحاول البحث عن إجابة لأسئلة كثيرة في عقلها وما تمر به أختها «كلثوم»، بحثت عن مواقع لأطباء مختصون، تركت تساؤلاتها، والإجابة: لابد من محادثة المريض.

لكن الكل يُجمع على أنها لعبة الحوت الأزرق، وهي من الألعاب الإلكترونية المدمرة،عادت إلى شاشتها وكتبت الحوت الأزرق الأعراض والعلاج.

جالت في عدة صفحات تقرأ بنهم عن تلك اللعبة ثم قررت قطع الاتصال بالنت عن الدار كلها ثم ذهبت لحجرة أختها ونوت سحب جوالها ومواجهتها.

بغرفتها كانت حين بادرتها لتجدها ترتعد، ساعة من البكاء المتواصل، حاولت أن تتحدث ففشلت، لكن فاطمة تركتها تبكي ثم بعدها قررت أن تواجهها:

- يا غبية هتضيعي نفسك وتضيعينا معاكِ.

تشتت ذهنها وازداد هلعها ولكنها لم ترد.

سألتها مستنكرة، فأطرقت برأسها تقر بفعلتها وتهرب من لقاء عينيها.

وغصّت بشهقة بكاء وهي تدفن وجهها في صدر أختها وصدمة متوقعة من خلف عيون لم تملك سوى البكاء، وبعد حين استعادت توازنها لتربت على كتفها وتمنحها الدعم والأمان.

- صارحيني يا ثومة بكل اللي حصل.

ارتبكت ..ترددت..تلعثمت.

لتضيف مؤكدة احتوائها:

- ماتخافيش يا حبيبتي محدش هيقدر يأذيكِ أبدا.

رفعت الصغيرة رأساً طال تنكيسه وبدأت تسرد على أختها من الأحداث ما يفزع، طفرت من عينيها دمعتين لفّهما الخزي والندم، استعادت البدايات، هي وحيدة صغيرة منعزلة عن الجميع وطائشة.

- حملت اللعبة من كام شهر، في البداية كانت مسلية ومثيرة بعدها بقيت بقضي اليوم كله وبعد شوية بدأ التطبيق العملي لكل الأسئلة وكل الإجابات.

شهقت بقوة وهي تسألها:

- عملي؟ أزاي؟

كانت أصابعها ترتعش وهي تشير إلى جرح بيدها وأضافت:

- بداية التحدي الرسمة دي وتكون بآلة حادة وصورة للمسئول عشان تبدأ المهمات.

أومأت برأسها بالإيجاب لأختها المتسائلة:

- مهمات!؟

- أوامر واحد ورا التاني مرة يطلبوا أني أصحى الفجر ويبعتولي فيديوهات أتفرج عليها وأسمع الموسيقى التصويرية بتاعتها، ومرة يبعتولي فيديوهات لأفلام رعب كتيرة جدا ومرة يطلبوا مني الطلوع فوق السطح بعد نص الليل، والمرحلة التانية كانت اتصال مع أدمن أو مشرف من التطبيق لكسب الثقة.

ظلت فاطمة تراقب انفعالاتها وهي تتحدث بجدية عن الأمر، ففرت دمعات دون إرادة رثاء على حالها.

تنفست بعمق وهي تسألها:

- وكلمتيه أزاي؟

- مكالمة ماسينجر جوا التطبيق.

رفعت كفيها تغطي وجهها بخوف ورعب، ولم تنبس ببنت شفة بعد ذلك، بكاء ونشيج محترق هو كل ما تملكه دون رد واحد على أسئلة أختها.

وأدركت فاطمة أن القادم من الحكي أبشع وأقسى أن تصارحها به، فاكتفت بضمّها وهدهدتها ووعدتها أن تساندها و تساعدها. وقررت أن تصطحبها باكراً إلى الطبيبة لتبدأ مرحلة العلاج.

تجلس منكمشة جوار أريكة عريضة أسندت رأسها على طاولة أمامها، أي دائرة وقعت فيها!

لقد أدمنت تلك اللعبة، وبعد أن سحبت فاطمة منها هاتفها النّقال وقطعت الاتصال بالإنترنت وجدت نفسها خاوية، تهوي من برج عملاق، لا تسمع، لا ترى، لا تتكلم، فقط تتجسد لها أيقونة الحوت الأزرق.

انتفض جسدها حين تذكرت ما لم تُصارح به أختها، آه لو علموا ما اقترفت يداها، لقد كتبت معلومات شديدة الخصوصية عن أهل البيت كلهم! كتبت عن عاداتهم، طقوسهم، مشاكلهم، مشروعاتهم.

ثم.....

يا إلهي! لقد قامت بإرسال صور عديدة للجميع وخاصّة أخواتها البنات وفي أوضاع غير لائقة.

هاجر بمنامتها الوردية الخفيفة نائمة وشعرها مُبعثر على الوسادة، رقية وهي

تبدل ملابسها وتبدو غير مُدركة أنها قامت بتصويرها، صورت الجميع حتى نفسها، التقطت بعض الصور وهي تقوم بحركات إغواء؛ مرة وهي تضحك، وهي تبكي، وهي تُرسل القُبلات، ثم... صورة لها وهي عارية تماماً!

لطمت خدها سيقتلونها إن عرفوا، كل ما تفكر فيه الآن كيف تخفي عنهم فعلتها، ويكفي ما قالته، ثم المشكلة الأكثر ضراوة؛ كيف تُكمِل مراحل اللعبة، كيف تصل إلى جهاز لوحي وإشارة نت؟!

***

كيف لتلك النهاية أن تُختم بنقطة؟!، كيف توضع بين حروفها الفصلات والوصلات؟!

كيف تخضع لقوانين البشر وهي فعل رب البشر؟!

ما عاد يُجدي اختزالها، وما عاد ينفع أيضًا الحديث عنها بإسهاب، هي النهاية وحسب.

النهاية فقط.

النهاية.

***

انقبضت أصابعه بعنف موجع حول المقود، تيبس جسده لكنه قرر في النهاية أن يذهب إليهم، سيطمئن على أخواته ويرحل، هم لا ذنب لهم ولا جريرة ارتكبوها، فلِمَ يعاقبهم ويتخلى عنهم؟

ومكالمة فاطمة أقلقته لا بدّ أن يطمئن على كلثوم.

حاول أن يتذكر أباه .....بل عمه.

لا يملك في ذاكرته أحداث تجمعه وأمه، بل زوجة عمه، من كان يشعر نحوها بأمومة حقيقية؛ هي «وِصال»، التي لم تحمله في أحشائها ولم يقل لها أمي لكنها كانت تمنحه الحنان كله.

تاه في بارحة ضمّت ذكريات وحملت من الهموم ما عجز بعدها عن الرؤية، فقد فاضت المآقي بدمع منهمر.

أشرق الصباح وها هي بداية نهار جديد ومحاولة هروب جديدة.

خزانة تحوي ملابسه والجسد غائب، هي أمام قسوته بريئة وأمام ضعفها مُدانة، هي حواؤه وهو آدمها.

أرادته .... تمنته..... اشتاقت إليه. قبَّلت أطراف ثيابه كأنما تقبِّله، كانت تريد أن يرد عليها تفاصيلها التي أخذها معه.

قلب يرتجف خوفًا بعد أمن.

ذراعين اشتاقا عناقاً بعد فراق.

نبض مُبعثر، وحياة باهتة.

ترامى إلى سمعها صوت أقدام، إنه هو.... تُقسم أنها تراه بقلبها، تشمّ رائحته وتميز نبضه.

بقدمين متخبطنين وقلب واجف اجتاز صحن الدار بسرعة وكأنما يهرب من مواجهة أي أحد.

صعد الدَّرَج بسرعة ودقّ الباب وهمس بخفوت:

- فاطمة أنتِ صاحية ولا نايمة؟

لترد بتثاؤب وهي تفرك عينيها وتفتح الباب ويدها الأخرى تبحث عن نظارتها في جيوبها، ابتسم يحيى وهو يلتقط النظارة من على طاولة صغيرة ليُلبسها إياها مُمَازحاً:

- بتفتحي من غير ما تشوفي مين.

ابتسمت بارتباك وبادلته المزحة:

- هو في غيرك يقدر يخبط ويصحينا ف وقت زي ده، ولا اللي بيبيعوا اللبن يا ابني.

- طب يالا يا فالحة اعمليلي كوباية شاي بلبن.

- عيوني يا اخوي حالًا.

جهزت فاطمة إفطاراً خفيفًا؛ بعض الكعك ومعه بعض القراقيش المحشوة بالعجوة والشاي باللبن.

نظر إليها طويلاً قبل أن يبدأ حديثه:

- فهميني بقا واحدة واحدة حكايتها أيه ثومة؟!

بدأت تشرح له بجدية كل التفاصيل.

وها هي صفعة أخرى بعد صفعات متتاليات تلقّاها واحدة تلو الأخرى، ليغوص برأسه بين كفيه. غامت ملامحه ليعترف بتقصيره:

– ذنبها في رقبتي يا فاطمة وفي رقبتكو، فُتناها لحالها ولا حد مهتم ولا متابع أحوالها لحد ما ضاعت.

استقام بفزع منتفض ليضيف:

–لا ماعتضيعش وأنا موجود على وش الدنيا ولو أقعد جارها ليل ونهار.

تجاوزها ليتجه إلى غرفة كلثوم بعد أن ألقى على مسامعها جملة أخيرة:

–من الساعة دي ثومة مسئولة منك ماتهمليهاش لحظة واحدة.

أومأت بالطاعة ليضيف:

–جهزي حالك عشان نروح للدكتورة بعد ما أقعد معاها شوية.

طرق الباب ثم ولج وأغلقه خلفه.

كانت منكمشة في زاوية من الفراش، ليبُثها نظرة طويلة ظاهرها فيه القسوة وباطنها من قِبله اللوم والعتاب.

يود لو يدقّ عنقها أو يشقّ رأسها، انكمشت أكثر لرؤيته فزفر بحرارة:

– مالك يا ثوما؟

بذهول حاولت مجابهته لكنها عجزت عن الرد، فعاد ليسلك درب التأني محاولاً الهدوء والسيطرة على انفعالاته.

وأثناء حديثه معها فوجئ الجميع بصراخ وعويل قادم من شقة «حُسنة»، التي تلقت للتو مكالمة تخبرها بالعثور على جثة زوجها.

ضربت صدرها بكفها المُتغضن وصليل أساورها يضفي لحناً غريباً في صورة ملحمية، عيناها تغيم بنظرات سوداء والتفاتة قاتمة.

وامتدت حبال الصمت تلف المكان، الشفاه مطبقة تخشى البوح، بينما العيون تفيض بمكنونات القلوب.

وصل الجميع لمصدر الصرخة وتحلقوها لتغمغم بقسوة:

- هملوني لحالي.

شيعته بنظرة حقد سوداء وهي تدمدم بحنق:

- من النهاردة أني عملك الاسود يا يحيى.

ليختفي من أمامها في لحظة.

كانت عاجزة عن البكاء، لا تملك دموعاً لترثي زوجها، تخنقها غصّة الدموع وتكاد تزهق أنفاسها، لكن عينيها كانت جافتين غائرتين وكأن الدموع جفت أو نضبت.

نظرت في المرآة، إنها ليست عاجزة عن البكاء، إنها خائفة من البكاء، خائفة أن تبكي فتُصدِّق أنه رحل فعلاً!

كانت كطفلة مرتعبة تختفي داخل جسد امرأة شرسة تدّعي القسوة والسيطرة، حتى آمنت بنفسها وصدّقت أنها كذلك. لا تستطيع أن تتخلى عن تلك الهالة الباردة والقِناع الجامد الذي ترتديه.

وها هي قد ضلّت السبيل ولا تعرف طريق العودة.

تفرّست ملامحها ثم مدّت كفها تُمسِّد وجنتها ربما تعيد إليها الحياة، فقد كانت كقبر مظلم، واستها «جميلة» بدمعات حارقات لامرأة فقدت للتو رجلها.

لكن الأخيرة كانت قد غادرت.

كانت تخطو كشبح يلتحف الظلام، هي لحظة، لحظة الموت ربما تعيد إلينا الحياة أو تنزعها عنا بلا رجعة. دقّت الباب وهي تتلفت حولها، لتدلف بخفة دون كلمة واحدة.

جدران لبنية متشققة، صحن دار خاوٍ، وغرفة فارغة إلا من بِساط بخس الثمن، أزاحت عباءتها الإضافية التي كانت تتخفى فيها.

لسان غاضب غادره الصبر وصوت مهزوز يكسر الصمت الثقيل، جاورها بعينين شاخصتين في الفراغ وأفكار قاتمة سوداء.

تبسّم بخشونة وقد التمعت عيناه بمكر ظافر:

- كيف حالك يا ست الكل؟

ردّت بقسوة:

- عاصم اتقتل يا سليم.

كان يحاول سبر أغوارها:

- مين اللي عملها؟

أجابته بنبرة محتدة:

- هو في غيره ابن سندس.

وأضافت بحقد مغوي:

- عايزاك تجيبلي خبره يا سليم.

أومأ بالإيجاب ومازحها:

-هقتله واديكي رنة.

لكنها قابلته بصلف:

- والفلوس حاضرة.

وألقت كيسًا بلاستيكياً يحوي عدة آلاف من الجنيهات، لا تُقلل من ثروتها، لكنها تغوي الآخر.

تم إبرام العقد وقد كان التحالف لكنه اشترط في النهاية أن يحصل على المال وجميلة قبله، أطالت النظر لترميه بشرر عيونها.

-عايز تتجوزها؟ دا بتك سلمى من دورها يا ناقص.

لكنه ازدرد صلفها ليرد عليها باترًا أي تراجع أو تردد:

- أني الورقة الكسبانة يا ست الناس والمهمة اللي كان مشيعني ليها عاصم واد عمي مستوية وجاهزة وطالبة الأكالة يا كابيرة.

***

-اقتحم رجال الشرطة دار البغدادي ليقتادوا يحيى الذي كان يجهز مراسم العزاء ويعد المكان لاستقبال التعازي وسط ذهول الجميع.

قال أحد الضُّباط بغلظة:

-وكيل النيابة طالبك للتحقيق.

-في ايه؟

- أنت متهم بقتل عاصم.

أمام وكيل النيابة الذي كان يتفحصه ويسأله:

- الاسم والسن والعنوان؟

ليُجيب بتوتر:

- يحيى حسيييييي.....يحيى حسسسسس...

فرك جبينه بتوتر، توقف لسانه، لا يدري ماذا يقول.

حسين أم حسن؟

أخرج بطاقة هويته ليناولها له. فأردف متسائلاً:

-علاقتك إيه بالقتيل؟

أجاب بهدوء:

- جوز عمتي وأبو مراتي.

- آخر مرة شوفته كانت أمتى؟

- من أسبوع في الشركة.

- وفاكر قولتله ايه؟

ارتبك يحيى، يبدو أنه مُتهم بقتله.

وبعد ساعات من التحقيق والاستجواب.

أمرنا نحن ...وكيل نيابة ....بحبس المتهم أربعة أيام على ذمة التحقيق، ويُراعى التجديد في الميعاد.

***

-١٣-

تعددت الأسباب والصدمة واحدة.

كثرت المسميات والمحنة واحدة.

تكاثرت المُعطيات والنتيجة دوماً واحدة.

***

بقدر ما يوجد الخير والشر توجد الحياة، والصراع بينهما دائر وحتمي طالما كانا في الأفق ...حتى يلتقيان ...فيتجسدان، ثم يتغلب أحدهما على الآخر.

صراع لا ينتهي، قوتان متماثلتان متضادتان.

صراع أزلي بينهما نتيجته تسيطر على الطبيعة البشرية.

فمن استسلم للشيطان وإغوائه كان للشر أقرب، أما من حارب وجاهد لينتصر عليه، فهو للخير يومئذ أقرب.

صراعه الذي لم ولن ينتهِ، رغبة في انتقام تبلغ أوجّها حتى تلتقي في لحظات قليلة بقوة أكبر منها، تتصدى لها وتتغلب عليها.

فيسترد انسانيته ويستعيد اتزانه، تلك كانت ذكرياته الجميلة مع شقيقاته، جده، جدته، وصال، وزوجته جميلة..

هنا يتغلب الخير على الشر.

وحده بين أربعة جدران باردة كالحة وكئيبة، مرت الساعات لا تكاد تخلو من تحقيقات واستجوابات، كيلت له الاتهامات، والدافع انتقام، والمبرر ثأر قديم. حتى انهار وصرخ يُطالب بقسطٍ من الراحة.

وأي راحة يرجوها وهو يستعيد كل تفصيلة؟ ربما بها نجاته وبرائته، فمَن المُستفيد من قتل عاصم وإلصاق التهمة به؟

سخر من سؤاله المستفهم وهو أدرى الناس بتاريخ عاصم وعلاقاته المشبوهة وماضيه المُشين.

من مشى على عِوجٍ فطريقه ضلال ورفيقه سوء المآل، دربه مظلم طالما صاحب هواه، والوصولُ بعيد المنال.

هو يعرف عنه الكثير، فلم تُفاجئه المعلومات التي قدّمها له أحد رجاله عن عاصم وانحرافاته، حتى تورطه بصفقة مخدرات مشبوهة لم تفزعه فهو يتوقع منه الأسوأ، ومرّ أمام عينيه شريط مفصّل لما حدث قُبيل اختفائه.

خبط على جبهته وهو يتذكر «دوابة»!

ربما لها علاقة بمقتله؟ ربما اختلفا؟ ربما تعاركا؟

غاصت رأسه بين كفيه يُناجي ربه أن يلهمه الصواب، أن يُفرِّج كربه وينير دربه ويهديه طريق الرشاد.

سحب شهيق طويل، آه يا يحيى، إنها مافيا لتجارة المخدرات والرقيق الأبيض، أوقعك حظك السيء معهم حين أفسدت عليهم صفقتهم الأخيرة.

وقد كلّف يحيى رجاله بالبحث وراء عاصم ومن معه حتى علم بمكان البضاعة التي أخفوها داخل شحنة الغلال، فقام رجاله بتسليمها للشرطة ليفَوِّت الفرصة على عاصم الذي اختفى بعدها مباشرة.

وهنا قرر يحيى إبلاغ وكيل النيابة بتلك الواقعة وحمد ربه أن أرقام المحاضر والبلاغات التي تم بها العثور على المخدرات وتسليمها كانت معه، والفضل يرجع لجده في هذا الترتيب حين استشاره يحيى بشأن عاصم وما يدبره له.

***

في معارك البطولات لا اعتراف بهزيمة ولا مجال لفشل، الانتصار فقط هو الحل، والسقوط خارج نطاق التفاوض.

***

وصال وشيخون بصحبة إبراهيم ومعهم محام مرموق ليطّلع على أوراق القضية، أفسح له إبراهيم المجال ليتقدم لمكتب المُحقق العام بينما جاورت وصال والدها على أريكة عريضة في ساحة الانتظار.

لتلف نفسها بذراعيها شاردة في عالم آخر،

أي ذنب جنيته يا «حسين» ليجلب الشقاء للجميع!؟

زفرت في قنوط تُغمغِم بهمهات غير مُفسَّرة بينما يُتمتم الشيخ شيخون ببعض الأذكار والأدعية.

ظهر يحيى بملامح مُنهكة مُبهمة وقد نبتت لحيته بدون تهذيب فنمت أسفل شاربه. كان بصرها يحوم فوق وجهه كأنها تبحث عنه، وصال التي منحته من أمومتها المختزنة ما يكفي ويفيض.

الصمت هو حليفه في معركته الأخيرة، والدوافع كُثرُ والمُبررات أكثر.

هل نستطيع أن نولَد أكثر من مرة؟ أن نحيا مرات ومرات؟

كان يحيى جديراً بثقتها التي زرعتها فيه، ليكون رجلاً قويًا، عمره يُضاعف ذاك الشاب، وقد ألبسته الحياة ثوب المسئولية وعلمته كيف يكون رجلاً بمعنى الكلمة.

يشعر بحاله على وشْك السقوط وحوله حمم نيران مستعرة، انتشل حاله قسرًا وهو يُبادلهم السلام، ليضمّه شيخون بمواساة قائلاً:

- ربك رب قلوب يا ولدي، قادر سبحانه يفرج كربك ويجبر كسرك يا يحيى.

وبعد وقت قصير دلف لمكتب التحقيقات، منح عقله جَرعة من تريث وصبر، بعدما خطا خطوات وئيدة نحو مكتب المُحقق الذي أرهف السمع والبصر، عقد ساعديه أمام صدره ينتظر حديثه متوجسًا، وبعد شرح مُسْهِبٌ وازاه اطّلاع على تقارير وصور من محاضر رسمية تثبت كل شيء، فرك جبهته قليلاً قبل أن يأمر بالقبض على «دوابة» ورجالها والإفراج المؤقت عن يحيى.

***

كان صامتاً، عيناه ثابتتان على الطريق بينما تدور برأسه الطواحين، ما إن توقفت السيارة حتى اندفع للخارج وكأنما مُنِحَ فرصة للهروب من الجميع، يشعر كأنما الكون على اتساعه يضيق به، جده ينتظره في ساحة الدار بعد مكالمة مُطَمئنة من الشيخ شيخون علم فيها بما جرى، دقائق مرّت كدهر طويل، يدعو ويبتهل إلى الله كي يرد عليه حفيده سالماً.

رفع إلى السماء وجهه بكفين نَقش الزمان تجاعيده فوقهما ببطء ، قائلاً:

– حمدا لله على سلامتك يا ولدي.

ظلّ مكانه يُحدّجه بعينين عاتبتين، وقد كسا وجهه عَبوس مغلف بتعب:

– الله يسلمك يا جد.

تهدّج صوته وهو يسأله مُشفقاً:

– أنت كويس؟

القلق والخوف بنبرته استقبلهما بفتورٍ حاد، تفرس ملامح وجهه في صمت ثم مدّ كفه يُمسِّد وجنته:

– الحمد لله.

كان ينظر إليهم والألم ينقش ندوبه على ملامحه المقتولة والغدر كان سيد الموقف.

هزّ رأسه ليتخطاه بسرعة واختار الهروب أيضاً، خطواته المتوترة توجهت ناحية غرفة مكتبه، فهو لا يريد التحدث مع أحد.

***

الزمن كفيل بمُداواةِ الجِراح، لكن هنا الزمن ليس في صالحه، وفي شريعة القلبِ؛ الحنينُ مُباح.

***

كانت تجبر أهدابها على افتراق يكشف عن عيون دامية ونظرة أسى وأسف، تخبره أنها لن تتخلى عنه، وأنها لم تشكّ به لحظة واحدة، واثقة هي من براءته.

نظرة زوجة متوسلة لزوج، منحته فرصة العزلة، لكنها تعلم كم هو بحاجة إلى رعاية واهتمام، تقدمت بخطوات متوترة تختلس من سكوته أملاً ومن قربه أماناً.

دقائق احترق الصمت فيها بينهما، نبرة خافتة غلفتها رهبة:

- حمدالله على سلامتك يا يحيى.

واجهها بصمت مراقِب وعيون مُجهدة ليهز رأسه فتابعت:

- تعالى نام في فرشتك، أنت تعبان ومحتاج حمام دافي.

خيط ضعيف يفصلهما وميثاق غليظ يربطهما، وكانت الغلبة للميثاق.

تبعته بخطوات فرِحة فوق دَرَجِ المنزل، قلبها ينبض بسعادة بالغة، لامست يدها الحانية كتفه في حنان لا ينضب فجذبها برفق ليغرس وجهها في صدره.

بكت حتى ابتلت مقدمة ملابسه، بكت كما لم تبكِ من قبل، بكت بيأس.. بحرقة.

كان قلبها مُبعثر الأحاسيس بين رجل رحل وآخر يمدّ لها طوق النجاة،

بين ماضٍ يحمل الخزي والعار، ومستقبل مشوش لا تعلم كيف تخوض غماره، أحاسيس متضاربة وعقل حائر.

أخرجها من لُجّة أفكارها ليسألها بضعف:

- صدقتيهم أني قتلت ؟؟

سارعت تضع سبابتها على فمه كأنها تحجز كلمات لا تريد سماعها:

-لا، لا يا يحيى أوعاك تقولها تاني.

ثم أضافت بحنو:

- لو الدنيا كلها صدقت إلا أنا عمري ما أصدق عليك كلمة إكديه.

هو مُرهق مُنهك لم يكد يدلف إلى الحمام حتى فوجئ بدق عنيف.

انفتح الباب لتدخل «حُسنة» موجهة إليه سعير نظراتها المُتّقدة وفحيح لسانها الهادر، دس كفيه بجيوبه وهو يلتفت لها بينما قبضتها تضرب صدره بكل ما أوتيت من قوة:

- خرجت منيها زي الشعرة من العجين؟

واجهها بصوت فارغ من الصبر:

- عايزة إإيه؟

عيناها تتحداه بنظرة قاتلة:

- قاتل القتيل وجاي تمشي ف جنازته؟

كان يراقب انفعالاتها المحتقنة ونبرتها الشرسة ليهتف بحنق:

- بكفياكِ عاد غل وحقد يا شيخة حرام عليكِ ضيعتي الدنيا كلها بعمايلك السودة، اللي مات مات ماليش صالح بقتله ولا ليا يد فيها أني مش مجرم، بعدي عني وفوتيني لحالي.

تقهقرت للخلف في خطوات متباطئة وهدرت بكل سخط:

- والله ما هتفوت ببعملتك، والله لتدفع التمن غالي وحياة أبوك الغالي لتدفع التمن من دمك.

أخرسها بقسوة ثقبت أذنيها:

- ليييييه؟

- عشان أبوك وأمك.

قاطعها بحسم وهو يرمقها بتشكيك

-اني ما مصدقش والله إنك عمتي أخت أبوي؟ ليه بتكرهيني اكديه.

والتفت حانقًا ليضيف بنبرة هادرة بسخط:

-عملت فيكِ إيه عشان تعملي فيا أكديه؟

ارتفع حاجبيها بدهشة لتهتف بسعير محموم:

-عشان بكرهك، بكرهك زي ما كرهت أبوك وأمك والبغدادي والناس كلها، بكرهكم كلكم ....بكرهكم كلكم.

ظلّت ترددها وهي تخفي وجهها بكفيها ونشيج دموعها الحارقة يخترق الجدران لتضيف:

- وهنتقم منكم.

لم تكن جملة عابرة، بل طعنة مُصوُبَة وبمهارة، لم يتفوه بكلمة واحدة بينما تماسكت هي واستمرت تردد:

- لسه الحساب ما خلصش.

توسعت نظراته بذهول لا يكاد يُصدِّق ما يسمعه، بل لا يفهم أصلاً السبب وراء تلك النيران المشتعلة بصدرها ليسائلها باستنكار:

- ليبييه؟

زفر بغضب حين كان ردها صمت ابتلع الجميع.

ليرفع قبضته اليمنى أمام فمه يُهدِئ من ارتعادة فكه ويخرج انفعالاته وحمم أنفاسه الهادرة كبركان انفجر وبدأ يضرب كل ما تطاله يداه من تحف، لآنية كريستالية، لموائد جانبية وطاولات صغيرة، كل شيء تحول إلى شظايا وصراخ هيستري:

- همليني لحالي، فوتيني بقا أنا تعبت منيكم.

لم يُبقِ مقعداً ولا منضدة في مكانها، كان كثور هائج يحطم كل ما يجده أمامه يضرب ويركل، بينما جميلة تضُم أذنيها بباطن كفيها وهلع يشارك هياجه

كادت عروقه النافرة في جبهته أن تتمزق، اختلط العويل بالصراخ وجميلة كأنما طُعِنت من كل اتجاه.

لتدخل شقيقاته في تلك اللحظة في هلع وخوف عليه يطالبنها بالرحيل ويتحلقن الشقيق الذي علمن أنه ابن العم لكن مكانته في قلوبهن بعمق يفوقها بمراحل.

كان ظهورهم القشّة التي قصمت ظهر البعير ليتهالك يحيى خائر القوى كمن يُصارع موج مظلم يكاد يبتلعه، علاقته بشقيقاته علاقة نقية لا شوائب فيها لم تُدنّس أبداً، لكنه لا يريدهم في هذا الحوار فهتف بحُسنة حانقاً:

-ابعدي عن وشي الساعة دي.

رمقته بنظرة متحدية وقد ازدادت إصراراً على ما عزمت عليه.

عبرات وُسِمَت بقهرٍ على ملامحهن، جميلة التي استجمعت نفسها ودحرت ضعفها لتواجه أمها:

-يحيى جوزي وهيفضل جوزي طول العمر ما هتخلاش عنه ولا عمري هشك فيه.

كانت كلماتها حارقة تشق الصدور، بين شقّي رَحى وأمرين أحلاهما مُرّ.

صاحت محذِّرة أمها أن توجه أي اتهامات إلى زوجها، لكن الأخيرة لم تأبه لحديثها .

-إلحقني يا يحيى...

صاحت فاطمة في وجهه ترجوه الغوث بقسمات كساها الفزع، بينما هاجر ورُقية أمسكا بكلثوم قبل أن تسقط أرضاً لينتقل الرعب إلى الجميع.

بعد إفاقتها طلب يحيى منهم تجهيزها لزيارة الطبيبة فقد تأخروا كثيراً في هذه الخطوة.

بدّل ملابسه على عجل بينما ترك جميلة وهاجر ورقية يقومون بتنظيف المكان وإزالة آثار التحطيم والتكسير السابقة.

دلفت لعربة أخيها لتسكن النافذة وبجوارها أختها فاطمة، وأولى رحلات البحث عن العلاج.

حركة أهدابها الرتيبة وسكوتها التام يبدو مزعجاً مُقلقاً، أغمضت عيناها تمنع عبرات أردن السقوط رِثاء على حالها، فها هي تتجرع غصّة غبائها وجهلها بل ضعفها، قطع صمت المكان صوت يحيى الهادئ يُساندها:

- ماتقلقيش يا ثومة إن شاء الله حاجة بسيطة وهتعدي يا بت أبوي.

وأكملت فاطمة مواساتها بما قرأت في الشبكة العنكبوتية عن مراحل علاج تلك اللعبة.

توقفت العربة لتقطع سيل أفكارها، بينما طلبت الطبيبة من يحيى الانتظار بالخارج حتى تنتهي من الحديث معها.

عقد يحيى ساعديه فوق صدره في صرامة وأجاب بنبرة متفهمة:

- تمام.

وغلّف نبرته بثقة واطمئنان:

- هستناكم اهنيه.

في غرفة الطبيبة جلست فاطمة قُبالتها بينما كلثوم تلتصق بالجدار، لا تريد الاقتراب، حيّتهما بابتسامة بشوشة ثم واجهت كلثوم:

- أنتِ مش عايزة ترجعي لطبيعتك الاجتماعية يا ثومة؟

استقامت واقتربت منها لتضيف وهي تربت على كتفها بحنو:

- مش عايزة تبطلي اللعبة دي؟

سحبتها برفق لتجلس على أريكة وتجاورها في ود:

- تعالي أشرحلك اللعبة دي عبارة عن أيه وعملت في مخك وفي مشاعرك أيه؟

-اللعبة دي يا ثومة بتسيطر على الأطفال والمراهقين وتتحكم في مشاعرهم وانفعالاتهم وواحدة واحدة بتخليهم ينعزلوا عن العالم الخارجي ويعيشوا في فقاعة اسمها «الحوت الأزرق».

بتبدأ تسيطر عليهم حرفياً وتُعرضهم لاضطرابات نفسية وعصبية وتُدمر خلايا في المخ وتقضي على العواطف والانفعالات ويبقى إدمان بالمعنى الحرفي.

زاغت نظرات الصغيرة حتى سكنت وجه أختها لتُبادر بقلق متسائلة:

- والعلاج أيه يا دكتور؟

ثبتت الطبيبة نظراتها على وجه كلثوم المُكْفَهِر لترد بحسم:

- هنبدأ سلسلة جلسات علاجية جماعية ومنفردة وهنشارك في مجموعة أنشطة تربوية واجتماعية ولازم نمارس رياضة يا ثومة، وهنمنع وسائل التواصل الاجتماعي فترة وهنرجع بالتدريج نندمج في العالم الواقعي ثم الافتراضي.

وبالفعل بدأت كلثوم مع الطبيبة أولى الجلسات العلاجية لحلقة من الفتيات تحكي كل منهن تجربتها مع اللعبة وتنتهي الجلسة بثرثرة منحتها نوعاً من الهدوء فألهت ذهنها عن الخوف والقلق.

في طريق العودة بعد أن اطمأن يحيى من الطبيبة مباشرة على حال شقيقته،

كان يمازحها بنبرة مرِحة:

- بقى هو العلاج الرغي يا حزينة؟ طب والله لاصدعك كل يوم يا فقرية.

ابتسمت بخزي وصوت يتردد بانكسار:

- ماتحرمش منيك واصل يا أخوي.

وأضافت بندم:

- كنت بهرب من الوحدة والخوف.

كادت كلمات التقريع تنهمر من فم فاطمة لولا همس يحيى الحنون:

- اوعاكِ تخافي واني عايش على وش الدنيا.

نظرات كلثوم بدموع حبيسة ألهبت مشاعرهما فربتت فاطمة على كتفها برقة.

عيناها القلقتان هدأتا بينما ظلت العبرات متعلقة بأهدابها، حتى همس لها يحيى مداعباً:

- ايه رأيك في قعدة ع النيل وجيلاتي؟

أومأت رأسها موافقة، فأخذها إلى الشاطئ.

جلسوا ثلاثتهم على حافة السور المواجه للنهر ثم جلب لهم يحيى المُثلجات.

كانت تتلذذ بطعمها كطفلة في الخامسة، فأقر يحيى أنهم جميعًا قصّروا في حق الفتاة.

أحاطها يحيى بذراعه حتى مالت فوق كتفه وبكت. عضت شفتها واعتذرت له:

- حقك عليا يا اخويا أنا عارفة إنك مش ناقص هموم و...

- هششششش.

قالها يحيى وهو يضمها بحنو وابتسامة عذبة، لتبادله ابتسامته الشجية وتُكمل المُثلجات خاصتها في مرح طفولي.

تلحف بالصمت وهو ينظر إليها ويعاهد نفسه أن لا يتخلى عن شقيقاته مهما حدث.

***

ها هي الأيام تدور، وتتضح الحقائق، وينكشف المستور، ليعيد لكل ذي حقٍ حقه.

***

أمام وكيل النيابة كانت «المعلمة دوابة» تدلي باعترافاتها حول مقتل عاصم،أنكرت معرفته في البداية، ثم ما لبثت أن انهارت حين واجهها المحقق بالشهود والأدلة والمحاضر التي تثبت ضلوعها في مقتله انتقاماً منه على إفساد الصفقة.

هدرت بحنق عارم:

- كان لازمن يدفع التمن عشان جبنه وندالته ماتفوتش بالساهل يا باشا.

- والتمن إيه؟

- عمره، ولو أنه ما يسواش.

نظرات قاتمة تبادلتها العيون، حرّك رأسه مستفهماً:

- قتلتوه إزاي؟

ردت بقسوة:

- عيار واحد وخلصنا من زنه ، أصله كان زنان قوي يا باشا.

فأمر بحبسهم أربعة أيام على ذمة التحقيق.

***

في تلك اللعبة ليست كل البيادق خاسرة.

***

ظن نفسه الحصان الأسود والورقة الرابحة ليُملي عليها شروطه، جميلة والمال، والمُقابل؛ رأس يحيى.

لكنها لم تعلم بعد تلك الخطة التي دُبِّرت بليل بين عاصم وابن عمه سليم، سليم الهواري طباخ السيدة دلال وابنته سلمى التي كانت تساعده.

كيف تمت سرقة الأوراق الخاصة بأملاك العائلة وكل المستندات والملفات تم الحصول عليها لأمر كان يدبره عاصم.

شَهقت حُسنة في وجهه:

- هو كان باعتك حداهم عشان تسرق الأوراق ولا عشان تجيب الأخبار أول بأول.

رمقته بغضب وهي تضيف:

- أوعاك تكون بتجود لحالك يا سليم!

ضحك بخشونة وقد فهم مقصدها:

- يا ست الكل أجود إيه عاد وأني ما عارفش هو كان عايز يعمل إيه بالأوراق دي؟

غامت بعينيها نظرة ضبابية لتهمس له بثقة:

-أقولك أني نعملو أيه بالأوراق، قرب واسمعني مليح وافهم حديتي زين.

***

-١٤-

ثم أما بعد:
وبعد الشوق وبعد الحنين،
أولا تعلمين؟
أنك حين تتركينى وتبتعدين،
تظلم سماوات عينى وقلبى وروحى أجمعين.
فأُغمض عيناى لأهرب من صخب السكون فى غيابك ،
فأراكِ ببراءتك ..بنقائك،
بوجه يُنافس القَمر حين تبتسمين.
تقفين ببراءةٍ بنجمات روحى تعبثين.
كيف لا؟
وقد جمعتِ بين راحتيكِ
كل تفاصيلك.
فأخذتِ رائحتكِ التى تسكن أنفاسى
وعيناك
وضحكة تُنير ظلماتي.
آلا تعودين؟
فبغيابك يقتلنى الحنين.
«رشا سعد»

***

ويحدث أن تنقلب الحياة رأساً على عقب، فتختل الموازين وتتشابك الأمور ويتبعثر العالم من حولك.

***

رحل الأب بماضٍ مُكدَّس بالخطايا والأخطاء، تُريد أن تبكيه، لكنها بقيت شاردة داخل صومعة انعزالها، لم يواسيها أحد لفقده، مات وقد واراه التراب وتركها تحيا في شرنقة من صمت.

تراقب كل شيء بسكوت مطبق فلم يعد الكلام يفيد، تنهدت ومشاعرها تنزف، لا تدري كيف تتعايش مع تضارب أحاسيسها وتخبطها، نكست رأسها وبصرها يُعانق الأرض في حزن وهو يراقبها بصمت.

لمحته لكنه تركها تخرج من قُمقُم الحزن الذي تسجن روحها فيه قسراً وإن لم تُصرِّح به، همس برقة:

- بكفاية يا جميلة.

يعلم أن الساعات القادمة عسيرة عليها وقد بدأ الأهل والجيران يتوافدون للعزاء.

نبرتها بالكاد تصل إليه بغُصّة مريرة:

- مش عارفة أحزن عليه ولا أحزن على نفسي؟

ثقل العبرات هاجم الأجفان لتضيف بنفس الغصّة:

- مافاتليش ولا ذكرى حلوة أترحم عليه بيها.

رفع ذقنها ليجبرها على مقابلة دفء عينيه ليهمس برجاء خفي:

- انسي يا جميلة عشان تقدري تكملي حياتك.

دمدمت بيأس وهي تمدّ أناملها لتمسح بقايا دموعها.

- مش قادرة.

وأكملت في قلة حيلة:

- إحساس فظيع إني مقدراش أسامحه ولا أغفرله.

لتنتهي جملتها فوق صدره وهي تمسك به بقوة:

- أنت راجل مفيش زيك، أنت خسارة فيا.

وأضافت بانفعال مُتحشرِج:

- أني ما استاهلكش يا يحيى كفاية أبويا وسمعته وأمي و.....

ضغط على رأسها بقوة وهي بين ذراعيه لتواصل نحيبها ودقات قلبه العاصفة تتزايد ليهمس بعد تنهيدة حارقة:

- مقدر ومكتوب يا جميلة.

أنفاسها المضطربة بدأت تهدأ لتنزع نفسها من بين أحضانه وتُتَمتِم وهي تعيد ترتيب خصلات شعرها.

- يعني ما عتفوتنيش واصل؟

ابتسم لحزنها الطفولي الذي يأتي فجأة ويختفي فجأة:

- لا يا ستي ماعفوتكيش إلا لو أمك قتلتني.

لكمت كتفه بقبضة يدها واستنكار يرتسم على ملامحها لتردد بعفوية:

- بعد الشر عنيك.

خمد بركان غضبه وأعلن سكونًا لكنه هدوء ما قبل العاصفة، بعد ثورة جامحة أتت على الأخضر واليابس، فهل سيستمر السكون أم أن هناك المزيد؟!

المزيد من الوجع.

المزيد من الألم.

المزيد من الأحزان.

كان يتأرجح فوق حد سيف يخاف المُضي ويهاب السقوط، في عنقه أمانة هو مسئول عنها ولن يضيعها.

أمانة تركها رجل قاسٍ عبث بماضيه وبعثر حاضره واستباح مستقبله.

أمانة عائلة كاملة بأفرادها بمصالحها بمشاكلها وهمومها.

الحيرة تأكل قلبه، لكنه يعي جيداً قوله تعالى: {ولا تَزِرُ وازرة وزر أخرى}

وجميلة أيضاً، ما وزرها في وزر والديها؟

لا ذنب لها ولا جريرة، سوى أنها ابنتهم، تحمل اسم أبٍّ مُدنّس وأمٍ حقود، سيطر الوجوم على ملامحه ليجاوره توتر وقلق فالقادم قاسٍ.

- لازم نستعد عشان العزا اللي اتأجل كام يوم

- حاضر.

هزت بها رأسها وهي تضيف بلا روح:

- هاروح أشوفهم في المطبخ عملوا ايه؟

بخطوات رتيبة كانت تشرف على إعداد الطعام.

ففي الصعيد الأحزان كما الأفراح؛ تُصاحبها الموائد العامرة.

***

يبقى الموت هو الحقيقة الوحيدة الصادقة في هذه الحياة، الموت هو النقطة التي نضعها في نهاية السطر وبعدها الختام.

***

- البقاء لله.

ألقاها سليم وهو يصافح يحيى بحقد دفين جاوره غل لم يستطع فرض سيطرته في إخفائه، ثم توجه لأفراد العائلة المصطفّين واحدًا تلو الآخر وفي مقدمتهم «البغدادي»،

الذي امتعض من رؤية سليم لتدلف ابنته سلمى لرواق السيدات.

خطوات سار بها على درب الغدر والخِسّة، ليكمل عدة الكراهية وشريكته تغلي فوق مراحل الانتظار.

وبعد لحظات، حضر أيمن وبصحبته عمه حسّان، حضرا لتقديم التعازي.

هي الشدائد التي تكشف لنا معادن الرجال، وأيمن كان رجلاً بمعنى الكلمة، يقف من بعيد لا يفرض نفسه ولا يهين حاله لكنه على أهبة الاستعداد للمساعدة المخلصة،

وكذلك كان عمه حسّان.

***

نظرات كسهام مسمومة تتوغل حناياها، همسات تكاد تخترق أذنها، حلقات نميمة وغيبة لتجمعات نسائية في مناسبات اجتماعية، والعزاء فرصة جيدة للبعض للخوض في الأعراض تارة، وتفريغ الأحزان تارة أخرى.

همهمات وغمغمات على من كانت قبل أشهر ضحية حادثة أليمة، كانت حديث الصعيد كله.

حاولت الإفلات من أعينهن لكنها لم تفلت من غمزاتهن ولمزاتهن، بعد أن قضت شهورًا حبيسة المرض ثم العلاج النفسي، النظرات تقتلها والحوارات السمجة ثقيلة الدم تستنزفها، هرولت لفراشها تنزع حجابها وتلقيه بعيدًا.

انكمشت بوضع جنين وليد لا يقوى على الصمود، ثم تكومت وانطوت على نفسها بضياع.

لمحتها وصال فلحقتها ودلفت الغرفة ترمقها بنظرة عطف وحنان وتبتسم بود ومؤازرة:

- هاجر.

نادتها وهي تحتويها بعينيها في أمومة رؤومة، لم تعد تدري هل هي قادرة على خوض غمار تجربة الزواج أم أنها لازالت جريحة؟

هل تتحمل المخاطر والتحديات؟

هل ستتمكن من تجاوز المحنة وتخطي العَقبات؟

هي تدّعي القوة والصمود لكنها تشعر بهشاشة روحها مهما كابرت، لكنها تُعاود وتتمسّك بالأمل وتتطلع لغدٍ أفضل.

- خايفة من نظرة الناس ليا وبالذات أهل أيمن إذا كان أهلي وجيراني وقرايبي محدش منهم رحمني.

آهة شقت صدرها وأحرقت حلقها، ضربت صدرها بعنف لتضيف بنبرة مختنقة:

- ميت لسان وألف تعليق على البنت اللي فقدت.....

وانهارت في بكاء مرير تبتر استطرادة خزي.

لتجيبها وِصال وهي تضمّها لصدرها:

- دي حياتك يا هاجر ولازم تواجهي ومتهربيش، أيمن شاب زين ومؤدب وعاقل وأهم من دا كله راجل هيعرف كيف يحميكِ، وبعدين يا بتي اللي هيتبع كلام الناس ماعيكسبش.

لم تستطع الرد ولم تقاوم سيل العبرات الجارف وهو ينهمر على وجنتيها حافراً أخاديد العذاب، والسيوف التي تطعن قلبها فيئن وتنزف جراحها المثخنة.

***

وكما كان العزاء فرصة للبعض للثرثرة، كان فرصة لها لتحصل على مُبتغاها، اتفقت مع صديقتها للحصول على هاتف جديد قامت بشراء شريحة لها وشحنته بمبلغ مالي حتى تتمكن من متابعة مراحل اللعبة.

فقد سقطت في أول اختبار لم تستطع المقاومة والصمود حين أخبرتها الفتاة عن المراحل المتقدمة التي وصلت إليها. والطيش قادها إلى العودة!

- ها جبيتي اللي اتفقنا عليه؟

همست بها كلثوم لرفيقتها وهي تستقبلها وتدير عينيها في المكان من حولها خشية أن يفتضح أمرها.

دسّته في خفية عن العيون بجيبها بعد أن التقطته من يدها المرتعشة خوفاً وقلقاً، ثم هرولت ناحية الحمام لتوصد بابه جيدًا و تدلف عبر تطبيق اللعبة إلى عالم موازٍ.

***

ها هي تتأرجح كفتي الميزان بعنف، تميل حيث يميل القلب، وحيثما يميل الهوى. بعض تفاوض.... مساومة.

ثم الجميع خاسر.

***

كان يريد الاطمئنان عليها، فهو يتحاشاها تماماً، لا يمر من طريق يعتقد أنها ستمر منه، كان يُعاقبها، لكن نيران الهجر طالته قبلها.

وفي العزاء التقيا فرفرف فؤاده خفقاً متوالياً، لا يستطيع إخفاء سعادته لرؤياها فقد تكبّد من المعاناة ما يكفيه في بُعدها.

كان يتناول منها صواني الطعام ليرصها أمام المتوافدين، تلعثم قليلًا حين حيّته بتحفظ وعيونها تفضح ما تُحاول مداراته:

- كيف حالك يا إبراهيم؟

- الحمد لله، طمنيني عليكِ أخبارك ايه؟

- تمام والله بس الظروف اللي بتحصل دي ملخبطاني ع الآخر.

- كيف؟

- اللي بيحصل دا كله مقدراش استوعبه، مقدراش أصدق إن يحيى مش أخوي وإن أبويا عمل اكديه.

وقبل أن يجيبها أضافت:

- شوفت بقا كان عندي حق أني اكره الواحات والصعيد كله.

- اصبري بس يا بت الناس ما تخديش بظواهر الأمور.

- ظواهر؟

وابتسمت بسخرية وهي تضيف باستنكار:

- دا كل حاجة كانت مخباية ومدفونة ما فاتوش حاجة واضحة.

استدارت تواجهه وهي تستطرد بخزي ووجع:

- أنا خايفة أصبح ألاقيني مش بنتهم ولا خاطفيني.

- لا حول ولا قوة الا بالله.

- إبراهيم أنا موافقة ع الارتباط بس نبعد من هنا خالص.

صمت وهو لا يدري يفرح أم يحزن؟ لتدلف في هذه اللحظة «سلمى».

تتبرع بمساعدة غير مطلوبة لكنها لمحت ما يحدث فقررت ألا تفوت الفرصة، تنحنح إبراهيم مغادرًا بعد أن ردّ تحيتها، لترمق رقية بنظرة ماكرة تُبطِن أكثر مما تُظهِر.

***

ما بين الحقيقة والخيال، الحماقة والحكمة، الخفة والرزانة، البلاهة والوقار، الرعونة والحُلم، الجهل والفهم.

تدور الحياة بطواحينها.

***

انفرد بيحيى في حديث جانبي قرر أن يخوض غماره:

- معلش يا يحيى اسمح لي يا واد عمي ما ينفعش علاقتك بالبنات تفضل أكديه.

أشاح بوجهه ومنحه تأملًا طويلاً يبحث عما وراء الكلمات.

ليضيف إبراهيم:

- مش حلوة في حقك ولا حقهم دخولك وطلوعك عليهم أكديه ف أي وقت!

بركان اشتعل بصدره فأمسك بذراعه بقوة ضاغطًا عليه كما ضغط على الحروف لتخرج من بين أسنانه:

- دول أخواتي وهيفضلوا اخواتي طول العمر وهفضل مسئول عنهم، أراعيهم وأشوف مصالحهم لحد ما أموت.

كزّ على أسنانه بقسوة وهو يضيف:

- اخواتي يعني لحمي ودمي وعرضي حتى لو ماكناش شقايق كيف أفوتهم لحالهم؟

بحمائية كبيرة أضاف:

- والله ما هيحصل لحد ما اتطمن عليهم.

رفع كفه في إشارة تسليم يُهدأ من انفعاله:

- أكيد يا يحيى وكلنا عارفين ومتأكدين من أكديه بس الناس ماهاش إلا الظاهر ومايصحش تدخل وتخرج عليهم أكديه وأنت يعني... اعذرني وسامحني مش محرم ليهم، لا شرع ولا دين يبيح أكديه ولا يجوز إنك تطلع عليهم وينكشفوا عليك.

كانت مواجهة صريحة وإن كانت مؤلمة لكنها ردّت الأمور إلى نصابها.

لتصل الرسالة إلى يحيى واضحة صريحة ومباشرة.

لا يجوز.

لا يجوز.

لا يجوز.

ظلّت العبارة تتردد أمام عينيه مرات ومرات كأنما أصابته في مقتل، هو فقد هُويته، تعثّر في ماضيه ليقف عند مفترق طرق لا يدري أين يسير ليعود لنقطة البدء، وبالفعل قرر الذهاب إليها علّه يجد نفسه الضائعة بين أحضانها.

انتهى العزاء وانصرف الجميع.

***

هل يمكن أن يختلط الوهم بالواقع ؟

العين شاخصة ترى، لكن القلب يسكنه سكون وظلام، الأنفاس تتعارك حتى تخرج، سقوط في جُبٍّ عميق لا قاع له، ورغبة في نجاة ومصارعة الأمواج.

***

كان هو بهيئته بملابسه غير المتناسقة، وقسماته المخيفة، أسنانه الصفراء ورائحة فمه الغثّة.

تتذكر كل التفاصيل، قبضته القوية ولهاث أنفاسه، صرخت وهو يقترب منها، تبغي استغاثة وازتها حركة سريعة منه نحوها لينتزع حقيبتها بعنف فتسقط هي على الأرض، قدماها لا تحملانها فتيبست بضعف.

ذلك الخوف الذي يتلبسها وقد احتلها الصمت بعد عويل وضجيج وزِحام.

كانت تستصرخه ليتركها، تستعطفه ليرحمها ويدعها وشأنها.

لكنه تمادى في غيّه، صرخت فكمّم فمها وقيّدها، ودّت لو تبتلعها الأرض وينثروا فوق رأسها التراب، ودّت لو دُفنت في قبر وتلاشت.

لحظة عُري وانتهاك لآدميتها وأنوثتها، يشلها مكانها وحرارة جسد غادرها منذ فترة ولا زال يستعمر خلاياها.

حتى وإن سلخت جلدها ومزّقت ملابسها المُدنسة بحُمرة برائتها، لم تقتلع المشهد من أعماقها.

انتفضت تستدعي ثباتاً ضائعاً كي تواجه العيون التي تحملق فيها دهشة وشفقة على حالها، جاورتها شهقة حزن وغُصّة فقدانها لعذريتها، لتخفي وجهها بين كفيها وتنتحب بحرقة، كانت تشهق بقوة وأنفاسها المتلاحقة في سباق محموم دون وعي ولا إدراك لما حولها، فقد عاودتها الذكرى لحادثة أليمة مرّت عليها شهور متعاقبة ولم تمحِ أثرها بعد من نفسها، ليرتسم المشهد كاملاً أمام عينيها مرة أخرى.

بينما في الواقع لِصٌ يسرق حقيبتها ويفر مذعورًا، عيناها تابعتا ابتعاد خطواته ليغيب وعيها تماماً هذه المرة.

فلم تشعر كيف حملتها ذراع صديقتها لمتجر بالقرب من ساحة انتظار الحافلات فهن في طريق العودة من الجامعة، بعد أن استفاقت مضت بخطوات واهنة ووجه لم تجف عبراته.

كانت تأمل في معجزة، فأتتها صفعة الخذلان عند أول مواجهة مع الواقع، طوفان من الوساوس والظنون لكل همسة.

لكل نظرة.

لكل كلمة.

هاجر..هاجر.

تردد اسمها مرّات عديدة حتى انتبهت من شرودها وذكرياتها التي غاصت فيها لتجبر عينيها على التفاتة باردة وملامح صديقتها القلقة:

- طمنيني بقيتي أحسن؟

- الحمد لله معلش كنت سرحانة.

تنهدت لتضيف برجاء:

- بلاش حد في البيت يعرف اللي حصل عشان مايقلقوش عليا، وربنا ستر الشنطة ماكنش فيها غير الفلوس وشوية حاجات ملهاش لازمة، الموبايل والمحفظة في جيبي

هزّت الفتاة رأسها حمدًا لله ومنحتها بسمة امتزجت بشفقة وقلق.

اكتفت بما أعلنت وتغاضت عما رأت وادّعت تصديق ما حكت، وقررت هاجر زيارة طبيبتها وهي تتابع الطريق بنصف عين ونصف عقل ولا عزاء للطيبين.

***

قد يكون جزاء ما اقترفت يدانا من الماضي هو ذلك الحاضر القاس بمرارته وأوجاعه، ينال مِنّا على مَهَل قَصاصاً عادلًا لا غبن فيه، لنتجرع مرارةً الهزيمة قطرة قطرة عقوبة مستحقة.

الظلم ظُلمات وكما تدين تُدان.

***

تلك المقولة التى تنطبق حرفياً على ما حدث لعائلة الدكتور رائف وزوجته السيدة دلال.

الرجل الذي حارب شرع الله بميراث قسّمه على بناته حياً حتى لا يرث أهله مليماً من ثروته كما أقسم من قبل.

ظلم ولم يتُب، بل لم يعتبر، فغدا القَصاصُ واجبٌ ولو بعد حين، وردّ الله كيده على عائلته التي تفرّقت بها السُبُل وتمزقت شر مُمزقٍ.

ابنة مريضة ودائها لا دواء له، وأخرى مقهورة سُلِبت منها راحتها وحياتها وقبلهم ولدها.

وأخرتان عماهما الطمع والجشع عن الرحمة بأمهما وأختهما، وملأت قلوبهما القسوة حتى فكرتا بالاحتيال للاستيلاء على باقي التَرِكة!

«وسلام على بحرين غرقت في أحدهما لتنتشلني ضفة الأخر بحنان، على عينيك ألف سلام.»

صباح الخير.

اهتز الهاتف بنغمة صوتية لرسالة ففاجأتها الكلمات، اختطفت مشاعرها قبل نظراتها.

مرّت الأيام الأخيرة بلا رسائل، والآن هي في طريقها للمشفى حتى تُقابل طبيب «سندس» وتُباشر علاج «عُلا».

ابتسمت، وربما تلقى فارس.

بترت فرحتها بلوم وعتاب، إذ كيف تتمادى وهو لم يُصارحها بشيء بعد، ولكنها تمنعه من المواصلة، بل وتلجّمه إذا أراد الحديث.

دقائق وكانت أمام حجرة سندس التي تلقفتها عيناها بسعادة وهي تسألها بإشارة من يدها عن يحيى، طمأنتها وتلت عليها ما أخبرها به أنه سيمر عليها اليوم.

مرّت بغرفة علا واطمأنت من والدتها على حالتها لكنها لم تجده، زفرت بقنوط وغادرت، لتستقبلها ابتسامته الودودة مُرحباً:

-كيفك يا فاطمة؟

- الحمد لله كنت لسه همشي.

- لا أنا عايزك في موضوعين مهمين.

- خير؟

- خير يا بت عمي تعالي نبعد شوية عن أوضة علا.

أولاً: البقاء لله.

بدأ بها ثم أردف:

- بصي أنا شاكك إن الخالة سندس تبقى بنت الست دلال.

دُهِشَت فاطمة! لكنها ابتلعت الكلام كله واحتفظت بصمتها حتى يُكمل:

- هي كانت حكتلي عن بنتها اللي اتجوزت واحد من الصعيد ومات، وحدتتني عن عيلته وكيف إنها واعرة وجبارة، وإنهم كانوا رافضين الجوازة، ولما مات جوزها بعد ما خلفوا ولد، اختفت هي وولدها.

شهقت فاطمة وقاطعته:

- إحنا عرفنا فعلاً إن خالة سندس تبقى أم يحيى، لكن معقول تبقى بنت الست دلال!؟

سبحان الله! له في خلقه شئون، شوف تدابير المولى.

- ونعم بالله.

- صحيح قبل ما انسى هات رقمك الجديد بدل ما بحتاس على ما اوصلك.

ارتبك فارس وحاول الردّ فلم يجد له سبيلاً، لتمتد أناملها تسحب هاتفه الذي كان مضيئاً برسالة، قرأتها وهي مبهوتة!

***

الحياة لا تسير على وتيرة واحدة، وفنونها لا يتقنها الجميع، فبينما يحصد بعضهم الغنائم، يتجرّع الآخرون مرارة الانهزام.

***

وهي كانت من المهزومين وبجدارة، توجهت بخطوات واثقة نحو فراشها، استرخت عليه لترسم حواشي خطتها وتحبك خيوط جريمتها، ثم استقامت لملاقاة ابنتها التي لا تزال تجتر أحزانها.

جلست إلى جوارها بهدوء لتسألها بتهكم لطالما كرهته:

- هو سبع البورومبة لسه ما رجعش؟

اعتدلت في جلستها لتواجهها بعينين ضائعتين وهزت رأسها بلا رد.

عصرت حُسنة جَفنيها لتسقط عَبرة وحيدة سارت ببطء متهالك على وجنتها وهي لمحتها باندهاش وازاه استنكار.

فحُسنة لا تبكي، قد تندب، تولول، تغضب، تسُب، أما الحزن والبكاء ليسا في قاموسها.

مسحت دمعتها بقسوة.

لتقذف بسهام نيرانها الحامية ولا يعنيها مَن ستُصيب،

وإن كانت ابنتها.

***

- ١٥ -

«حُسنة»

والاسم عكس الأصل، حُسنة

تحمل من المصايب حُزمة،

وقلب أسود من قلوب الكهنة.

أم الجميلة لكنها، للقُبح قمة

حقد وحسد ولا عندها ذمة.

وقلبها أبداً ما يعرف الرحمة،

وعلى يحيى تقول إنها حُمة.

تحتار فيها ولا حسبة برما.

يكفيه شرها دي مش عمة.

«ملك حسين»

ويحدث أن يكون الخُذلان أُمّ!

فما تكاد تُصدِّق أمانيك في مشاعر فياضة، حتى تُفاجأ ببركان يُدمر كل هذا عنوة، وبلا سابق إنذار.

***

مرّرت يدها على تجاعيد وجهها، فها هو العمر يمضي، وعِقدها الرابع شارف على الانتهاء.

مطلّقة ثم أرملة، تلك حصيلتها من الرجال. تنهدت بعمق...

من تنصل الأهل لمشكلتها النفسية، بل وحبسها وحيدة بين جُدران باردة تجّمد قلبها حتى كساه الجليد وغلّفته القسوة.

كانت تُريد منهم الحنان الذي فقدت، والونيس الذي أمُلت، والسند الذي حُرِمَت،

فما وجدت سوى الخُذلان.

طلاقها المشأوم وسمها بين أهل القرية بأبشع الصفات؛

العروس التي طُلِّقَتْ بعد أيام قليلة لا تكاد تُعدُّ على أصابع اليدين،

رحيل زوج بلا كلمة واحدة لتلوك الألسن سيرتها وتخوض في عِرضها.

استخدمها كورقة، لعب وألقاها بعيدًا بعد أن سحب أموالها وسرق مصاغها.

كم عانت ظلمهم وظلام قلوبهم! لتقع فريسة في دائرة اكتئاب لم يُعالج، تفاقم حتى صار رُهاباً مرضياً من أي مشهد وِدّ، أو قصة حب، أو حديث عن وفاء.

تكاد تُجن إن صادفها رجل يحب زوجته وهي التي زهد فيها الجميع لتتذوق صُنوف المرار،

أسرة تراها وصمة عار، أو عبئا في أحسن التقديرات.

التمعت عيناها بعبرات تجمدت وأبت الهطول على وجنة كصحراء مُقفرة لا زرع فيها ولا ثمار.

تجهمت قسماتها بانفعال حين لمحت ابنتها تراقبها عن بعد لتصرخ فيها:

-بتتجسسي عليا يا بت بطني؟

فزعت جميلة وارتبكت لرد فعل أمها، فهي قلقة عليها وتخشى أن يصيبها مكروه من عزلتها التي فرضتها على نفسها الفترة الأخيرة.

ضربت بكفها فوق المائدة ليزداد سعير نبرتها، بينما ابنتها تنتفض بجوارها مُبعثرة مُشتتة،

لا تدري بمَ ترد ولا علامَ تُجيب.

زفرت بحرارة لترتحل الأهة بعسر، وبلا أحرف، بل تنهيدة مريرة تُغادر صدرها بصمتٍ

لتسألها بقلق:

-مالك يا اماي؟

-مالي يا بت حُسنة شايفاني بقطع ف شعري ولا باكل ف هدومي؟

-عايزة الحقيقة أنتِ فظيعة.

بركان اندلع في جوفها لتظهر توابعه وآثاره على العالم كله حولها، لكنها استقامت تخطو في عباءتها السمراء.

تجاوزتها وبترت حواراً آثرت ألا يبدأ.

***

ماذا لو كان الخُذلان من الواقع؟

كل ما حولك يتآمر عليك، حتى قلبك الذي بين جنبيك، فتعيش في وهم خادع وتغادرك الراحة وتذهب الأماني أدراج الرياح.

اثنان اجتمعا تفوح منهما رائحة الخيانة، شريرة حقودة في ثياب سيدة ثرية،ولص محترف في ثياب رجل فقير.

والكثير من الخطايا تدور مع الطمع والجشع.

اقتراف الذنوب مُباح طالما اتبعنا الهوى ليعلو وجيب القلب المثقل بالمعاصي، وبالعين قتامة تشي بظلام القلب وظلمة الروح.

***

دلفت إلى بيته بثقة تُحسد عليها، سراج ضوء ضعيف هو كل ما أُتيح ليشق ظلام الليل.

استقبلها بنظرة انتصار وكأنها قدومها موافقة ضمنية على مطالبه.

وكان قبلها يتقلب على مراجل قلق وانتظار.

سحب نفسًا طويلاً من سيجارته وهو يشير لها بالدخول، بينما يخرجه بتأنٍ مقيت، لم تُضع الوقت بمجاملة أو كثير كلام، فقد كانت عباراتها حاسمةً حازمة وقاسية:

-أنى فكرت زين ف كلامك وموافقة عليه كله دا اللي يخصني فلوس أرض إنما جواز من بتي دا اللي مليش فيه.

رفع حاجبه بإدراك أنها رفضته ليخبرها ببديهية:

-إذا ما اتجوزتش جميلة هاخد عمرك.

كتّفت ذراعيها بتحدٍ وهي تستمع لتهديده المُعلن:

-طب ما تاخده دلوقتي.

-لا مانتي ما شفتيش الوش التاني لسليم، أحسنلك ما تخرجيش شياطيني.

استعرت نظرتها وهي ترمقه بسخط:

-لو على الشياطين فاطمن دول عِشرة ما عيفوتوكش واصل.

هز سليم كتفه وصوته أكثر حِدّة:

-خلاص يا ست الناس خالتي وخالتك واتفرقو الخالات، شوفي جحش غيري يسرقلك فلوس الست دلال ويقتلك واد أخوكي ويروح في حديد.

ابتسمت بسخرية وهي تستمع لهدره...

-معنديش حديت تاني واوعاك تفكر اني هحتاس من غيرك.

اقتربت منه خطوة وأطلقت فحيحاً ملتهباً على شكل جملة صغيرة:

-انى حدايا رجالة ياكلوا الزلط.

وتابعت بلا اكتراث:

-انى بس ما عيزاش حد يتدخل بيناتنا، إحنا برضك أهل.

-لا والله صحيح ونعم الأهل يا بت البغدادي، يا ستي إحنا فين وانتو فين؟ انتو مستقلينا ومستحقرينا، حتى النسب عترفضوه.

-يا سليم اعقل وافهم، البت مقدراش عليها راسها ناشفة زي ابوها خلينا إحنا نشوف مصالحنا وبعدها يحلها الحلال .

أشارت له باتهام لتستطرد:

-ولا انت ماعيزش تكمل الشغلانة؟

هزّ رأسه نافياً:

-يا ست الكل انى طوعك وتحت أمرك بس ما تأخذنيش لازم أحفظ حقي والفلوس والأرض مش كل حاجة.

لوت شفتها باستهزاء وهي تعيد دفة الحوار لما كانت تبغيه منه:

-ناخد من المصلحة اللي نقدر عليه كله والباقي هيجي على مهله وكله يتعوض.

دهس عُقب السيجارة في الأرض بقدمه وفكرة متحايلة خطرت بباله، فابتسم بمكر وهو يقذفها كقنبلة في وجهها:

-خلاص لو الصغيرة ماعجبهاش الجواز، يبقى الكابيرة تقبله.

انزلقت من شفتيها شهقة فَجِعة وتفرَّق جفناها باتساع صدمة ولم تلبث أن تقدمت منه خطوة.. اثنتين وفي الثالثة... منحته صفعة قوية على وجهه،وهي تمرر الحروف بسخطٍ من بين أسنانها:

-اكديه مالكش دية يا سليم ودمك راح هدر.

أمسك أناملها التي غادرت وجنته تواً ليدهسها بين أصابعه بعنف.

-اللي يطلع العفريت لازم يصرفه يا ست.

***

من المعارك ما كانت الهزيمة فيها فرض عين ...لكنك تخرج مرفوع الرأس بكامل إنسانيتك، إذ أنك لم تُدنِّس سيفك بالأثمان الفادحة.

***

فاجأتها الرسالة! فهي ذاتها رسالة هاتفها المجهولة الهُوية>

إذًا إنه هو من يراسلها! كادت تُنكر ما ترى، نظراتها مُبعثرة كدقات قلبها تماماً ولا سبيل إلى هدوء، تُقلِّب بصرها ذات اليمين وذات الشمال، كم مرّ من الوقت وهو يخدعها!؟

لا زالت غير مستوعبة لما يحدث، الأمر برُمته يكاد يكون مزحة سمجة، والغموض كان من أركان علاقتهما، ولا يزال قائماً.

تتنازعها الخواطر، أتهرب منه الآن؟ أم تبقى وتطالبه بتفسير لما حدث؟ أم تستعين بأحد ليكون شاهداً على ما يحدث؟

اثنان والسكوت ثالثهما.

همسته أتت بعد صمتٍ طويل:

-ممكن تهدي؟

دمدم ببحّة خزي ليتابع:

-أرجوكي اديني فرصة أفهمك.

رسمت ابتسامة مصطنعة، فهي لا تدري ما سر الغموض الغير مُفسَّر لما فعله، هتفت بضيق:

-تفهمني ايه؟

طالعها بنظرة اعتذار واستعطاف ليُغمغم:

-كنت خايف من رد فعلك، خايف تحرجيني.

قابلت اعترافه وملامحه المتغضنة باستنكار حانق.

-ازاي تعمل اكديه وانا بت عمك!

زاغ بصره ليطلق زفيراً طويلاً، جاهد بعده ليخرج صوته هادئا ولتكون نبرته متزنة:

-والله ما كانت نيتي وحشة.

انتفضت، فتابع بتوتر: - أرجوكي اديني فرصة أشرحلك.

اهتز كفها وهي تشير له.

-أرجوك انت فوتني لحالي واقفل السيرة دي خالص.

رفع رأسه بكبرياء مذبوح.

-تجربة إبراهيم ورقية رعبتني خفت يكون مصيرنا زيهم، خفت تعملي فيا اللي عملته أختك في أخويا، وكمان ظروفي الأخيرة وعدم استقراري خلوني أخبي عنك مشاعري بس ماقتدرش أقتل خواطري كان لازم تحسي بيها حتى لو مجهولة، المهم توصلك

رقّت لكلماته التي تقطر صدقاً، لكن كرامتها تأبى الاعتراف.

الأكثر من غضبها وسخطها كان خجلها من نفسها وخزيها مما فعلت.

هي لم ترد على الرسائل قطعاً، لكنها كانت تفتحها...تقرأها، بل كانت تنتظرها!

ماذا سيظن بها؟ فتاة طائشة حمقاء وهي التي سلكت درب الاتزان والحكمة أمام الجميع،

تعاظم غضبها فهتفت باستنكار:

-أنت خدعتني وأحرجتني، مش أنا البت الملهوفة ع الحب والجواز، ولا أنا البت اللي بتفرح ويطير عقلها من كلمتين حلوين.

ارتبكت وقد اكتشفت أنها اعترفت ضمنياً بحلو كلامه لتستطرد بانفعال:

-لا يا واد عمي غلطتك كبيرة ف حقي وف حق البغدادية.

أبعدت نظراتها عن وجهه لتخبره بقسوة:

-ومن هنا ورايح مالكش صالح بيا.

حاول أن يراعي مشاعرها قدر الإمكان، فهو يفهم تفاصيلها، وهو قد أخطأ...

-أنا آسف.

كانت أناملها لا تزال تقبض على هاتفه، تعتصره في انفعالاتها المتتالية، لتضغط بالخطأ زراً فتُضيء الشاشة بخلفية خرافية!

حافظت على ثبات نبرتها التي كانت تضج باندهاش وتعجب وهي تسأله مشيرة إلى خلفية شاشة الهاتف التي كان يضعها، كانت رسمة غاية في الرقة كلوحة فنية بديعة ألوانها صافية وتفاصيلها شديدة الخصوصية، فها هما حرفا اسمهما، الفاء والألف.. وانتبهت أنهما يتشاركان في ذات الحرفين يبدأ اسمهما بهما. نصف ابتسامة بترتها عند زاوية شفتها لتتابع الصورة في تعجب وازاه إعجاب، قلبها يخفق بشدة، كانت صورة لقلب يميل على جانبه، رأسه حرفاهما المشتركان. وضلعه الأول راء وسين باقيٍ حرفي اسمه ...ف ا ر س» وضلعه الآخر بقية أحرف اسمها «ط. م. ة» لتتعانق تاؤها المربوطة مع سينه المفتوحة، ويُغلق القلب برقة متناهية.

لا تنكر أنها أُخذت من تلك الصورة بل ظلت مدهوشة فترة قبل أن ترد عليه هاتفه.

سحبه منها وكأنما بعد اعتصارها له أجهزت عليه فنزف بعشقه وباح بسره فكان كجمرة مشتعلة، لينفلت من بين أصابعهما ويسقط صارخًا من قسوتها.

انحنى يلتقطه وحين استقام كان بمواجهتها، شعُر أنها دهست قلبه، فقرر أن يحافظ على البقية الباقية من كرامته المُهدرة:

-الصورة دي اعتبريها اخر حاجة هتشوفيها مني، وأنا آسف مرة تانية لو كنت ضايقتك.

استدار عنها بخطوات أشبه بعدوٍ، يحمل فؤاداً جريحًا، ويترك فؤادًا لم يعد مستريحاً.

زفرت بقوة وقد تغضن جبينها، فهو رجل أحبها فصدته ثم رحل عنها ففقدته.

لكنها استفاقت على وحدتها بين جدران المشفى الباردة فهرولت باتجاه الراحل علها تدركه وتصلح ما أفسدته .

***

الأخوة ليست مجرد كلمة أو حتى بطاقة هُوية مسجلة بأوراق رسمية نتشارك فيها ذات الأسماء،

***

الأخوة بالنسبة له إحساس ...مشاعر....هن شقيقاته أخواته ولو خارج إطار القانون ولو بعيداً عن الشرع.

لكن في شرعهم هو غريب عنهم. على قيد انتظار.

أجبر نفسه على وضع لا يريحه ولم يألفه، جاهد ليبتعد.

سعى ليقنن علاقته بهم ويحجّم تواجده معهم، وبخضم سعيه غفل عنها، الصغيرة التي كانت بحاجة إليه، الورقة الخاسرة في تلك اللعبة.

هزّ رأسه بأسى وهو يُردد في نفسه ساخراً :

- الورقة الوحيدة!؟ يبدو أن أوراقك كلها خاسرة يا يحيى.

-لا حول ولا قوة الا بالله العظيم

أستغفرك يا ربي وأتوب إليك.

غمغم بها يحيى وقد قرر أن يهرع للصلاة ففيها أنسه وراحته، ثم سيذهب لسندسته يطمئن عليها قبل أن يعود للمنزل، وهناك سيرى ما يمكن فعله حِيال «ثومة» وما وصلت إليه.

فقبل ساعة هاتفته رقية:

-الحقني يا يحيى ثومة معاها موبايل معارفينش جابته منين ولا ازاي.

من بين نشيجها أردفت:

ولا عارفين عملت بيه إيه.

هدأها بنبرة مطمئنة

-طيب اهدي يا رقية، وخديه منها خبيه وخلي عينك عليها لحد ما أرجع.

-دي ما بتردش على حد واصل عتبحلق فينا وما عتتكلمش، ماعارفاش جرالها ايه.

-وفاطمة فين؟

فاطمة في قنا، راحت المستشفى النهاردة.

الوحدة و الاحتياج شعوران قد يدمران الحياة.

فاض كأس وحدتها بمزيد من الاحتياج، إحساس مميت أن تكون بينهم بينما أنت وحدك، وهي وحيدة بينهم.

***

تسللت من فراشها لتلقي نظرة على هاتفها الذي تُخفيه عن الجميع، تتأكد أنه بمكانه ولم يلحظ أحد وجوده بين طيّات ملابسها في الخزانة، لتعود وتستغرق في نوم عميق بعد أن ولجت إلى لعبتها فأمرها التطبيق بمقاطعة الكلام لأربعة أيام بالتمام والكمال، وها هو اليوم الثاني مرّ بسلام.

وحين دخلت رقية تحمل بعض ملابسها لتصفها بالخزانة أضاءت المصباح:

-أرصلك الهدوم يا ثومة ولا افوتهالك تظبطيها أنتِ؟

لم ترد، كانت بالفعل نائمة.

فوضعت رقية الملابس وهمّت لتغادر، لكنها اقتربت من أختها لتحكم الغطاء حولها ففزعت حين لامست يدها بشرة المستلقية:

-مالك يا بنتي كانك بتحلمي؟

هزّت رأسها وقد اعتدلت في جلستها والهلع يرتسم على مُحيّاها بالفعل كان كابوسا مخيفا.

كأنها تقف فوق جبل مرتفع تفرد ذراعيها ثم يأتي أحدهم ويدفعها لتسقط وتتهشم عظامها.

لم تستطع ذكر حرف واحد من هذا الكابوس بل عجزت حتى عن الرد على أختها التي تكاد تموت قلقاً عليها.

ضمتها رقية وربتت على ظهرها بحنان:

-احكيلي يا ثومة كنتي بتحلمي بايه؟

هزت كتفها وهي تسحب نفسها من بين ذراعي أختها مدّعية التثاؤب لتعود للنوم، أشفقت عليها رقية، لكن الحيرة والدهشة تملكتها، همّت لتغادر، فتراجعت لتصف الملابس بالخزانة فتلك الفتاة رأسها مُشتت.

وضعت صفاً وأخرجت ما كان معوجًا لتقيمه فسقط الهاتف أرضاً وصيحة دهشة واستنكار غادرت شفتيها بجزع.

***

دقات ساعة الجدار تصرخ مللاً، اعتدلت جميلة في جلستها لتسحب جهاز التحكم في قنوات التلفاز، دارت بين قنواته تمرر قناة بعد أخرى، فيلم عربي.

قناة طبخ.

قناة إخبارية.

ثم استقرت أخيرًا على قناة أطفال وبرنامج رسوم متحركة.

تتحسس بطنها المتكورة بأصابعها وكأنها تُشارك صغيرها المتابعة، ثم قررت إلقاء نظرة على جدتها «يامنة» ريثما يعود يحيى.

مبهوتة بجوار فراشها وقد أفزعها المشهد، الجدة مُتكومة في أرضية الحجرة وقد استفاقت من غيبوبتها، لكن ملابسها مبتلة، يبدو أنها حاولت النهوض ودخول الحمام فخانها جسدها وسقطت على الأرض.

صرخت جميلة:

-مالك يا جدة ؟ اسم الله عليكي.

-كنت عايزة أدخل الحمام يا بتي لقيت الدنيا بتلف بيا، نادمت عليكوا محدش سمعني.

ثم نظرت بخزي إلى ثيابها المبتلة ولم تكمل.

كان أقسى مما حدث لها تلك النظرة البائسة التي ارتسمت على محياها لمجرد أن حفيدتها رأتها هكذا، أخفت دموعها وابتلعت إحراجها، وهي تغمغم محوقلة.

-عايزة اتوضى يا بتي.

***

ويحدث أن يكون بعض الظن حباً!

***

وحبه كان حبيس صدرها، ظلّت تنكره وتتنكر له حتى هاجمها بقوة أربكتها، قلبها؛ تلك المُضغة التي تئن بين جنبيها فتمزقها وتشتتها.

لا تريد التورط فتحتمي خلف حاجز من برودة وجمود، لكنه هدم هذا الحاجز بصبره وتفهمه ومن قبلها بحبه وحنانه.

كانت لا تريد أن تكون تابعة كل وظيفتها تربية الأطفال وتلبية رغبات الزوج، لا تريد أن يهمشها، أن يستخف بوجودها وطموحها.

لكنه فكّ طلاسمها ومنحها الأمان بعقلانيته والتزامه.

ذلك الخوف القابع في أعماقنا؛ يحرمنا متعة الحاضر ويهدينا بصمة الكون للاعتياد، التي استجلبتها النفس من معرفة بدايات الترف ونهايات الشغف.

فتمسكت به حتى طغت.

لينتهي بنا المطاف إلى الزهد في كل شيء، الخوف الذي صار لعنة، فإذا أردنا التحرر من قيوده لنحيي قلوبنا من جديد؛ فعلينا أن نواجه خوفنا ونتحدى ضعفنا، لننال شغف الفرصة والتجربة ومتعة الاختيار والجرأة.

الجرأة التي تجعلنا نفك قيود القلب التي كبلناه بها، ونسعى بقوة لنولد من جديد.

رن هاتفها بنغمته التي خصصتها له.

-ازيك يا رقية، طبعا أبوي وعمي سمحولنا نتحدث بعد ما قروا فاتحتنا يعني كلامنا دا رسمي نظمي فهمي.

واستطرد بضحك:

- لا سحر ولا شعوذة.

وكان الجميع قد آثر أن يتم الأمر بهدوء وبلا صخب مراعاة للأحوال التي تمر بها العائلة.

صمتٌ طويل من جهتها أقلقه، استطرد بلهفة:

-مالك يا رقية في حاجة حصلت؟

-تعالى بسرعة يا إبراهيم، عايزي نودوا ثومة للدكتورة.

***

حين تتشابك الدروب وتتشابه السُبل، نمضي ولا ندري أصوابٌ أم خطأ، أحق أم ضلال، أحياة أم موت.

حتى تصل إلى مفترق طرق فيكون لزاماً علينا الاختيار.

لندفع ثمن ما جنت يدانا، هي متاهة دخلناها قسراً ولا سبيل إلى خروج.

***

أقام الدنيا ولم يقعدها برأسه عقب حوارهما الأخير.

كانت له رحلة طويلة مع تلك الأنفاس الهادرة عبر أرجيلته أو حتى لُفافات تبغه المكتظة، ورأسه يتثاقل لزخم ما يحشوه بها مع اكتظاظ أفكاره.

حضور خاوٍ ووجه لا تعبير فيه، لا يرى، لا يسمع، لا يتكلم.

أفكار كعلقة تلتصق برأسه، تمتص ثباته وتحوله إلى بيدق في رقعة شطرنج، قام من مجلسه يترنّح وقد قرر أن يستضيفها في مخدعه الليلة، بل حتى ينجز المهمة.

***

-١٦-

معذور بالجهل فتردد وتلعثم.

معذور بالمرض فارقد وتدثر.

معذور بالتعب فاقعد وتعللّ.

لكن،

إن أحببت، فلا عذر للهمس.

وإن اشتقت، فلا معذرة للدمع.

***

بين أروقة المشفى كان يبحث عنها حين كانت حجرتها فارغة منها، سندسته الحانية اقتربت منه على حين غرة وربتت على كتفه معلنة عن قدومها بعد أن يأس في العثور عليها أو حتى على فاطمة أو فارس.

فقد وصل متأخرًا وهي كانت بغرفة الأشعّة كما أشارت له، بنصف جلوس احتلت فراشها بعد أن أمطرها يحيى بسيل جارف من الأحضان والقُبَل، وكأنه يعوض نفسه قُبلها عن أيام خلت لم يمنحه الواقع البغيض جرعة حنان بطعم الأمومة.

مررت أناملها على صفحة وجهه فأمسك بها بقوة وقبلها مرة بعد مرة، لينهل من دعواتها الصامتة ما يطيّب روحه ويهدئ روعته:

- قلقتيني عليكِ يا ست الكل.

ربتت فوق ظهره بحنو بعد أن جاورها في جلستها وابتسمت له في وداعة، كانت عيناها تتلألأ ببريق حُرِمَ منه، لطالما عرفه وشاهده وكان شاهدا عليه.

أشارت إليه أن « كيف حالك «

كانت قلقة عليه فوجهه الشاحب وعينيه الغائرتين تُنذران بخطب جلل، لكنه يراوغها حتى لا تحزن على حاله، فحين تدفق في خافقه نبض أدرك أنه بعض نبضها اكتفى بها عن العالم كله، وتعهد لنفسه قبلها ألا يريها بأساً قط طالما استطاع.

لم يكن يخشَ شيئاً سوى الغدر، يخاف أن يُغدَر به مرة أخرى ولا يدري من أين تأتيه الضربة هذه المرة، هو يريد أن يُجنبها أي مواجهة قادمة.

ابتسم بحنان وهو يشرح لها:

- هتخرجي قريب من المستشفى وهدلعك آخر دلع يا سندسة.

انشرح صدرها لحديثه العذب، لطالما كان بلسماً لجراحها، رأى عبر الممر المقابل لغرفتها هرجًا وحالة من الهلع تجتاح الأطباء ومساعديهم وحتى قسم التمريض والمُسعفين.

استقام ليلقي نظرة، فإذا المكان يعج بالكثير من المرضى ومرافقيهم، حث خطاه ليتقدم نحو مركز تجمعهم وعلا الوجوه الفزع.

بينما سيدة كبيرة في السن تصرخ طلباً للمساعدة، كان عددًا من قسم التمريض يحاول تهدئة الجمع، لكن الذعر سيطر على الجميع وكان الهلع سيد الموقف.

ترامى إلى سمعه همهمات البعض تختلط بصرخات العجوز أن الصغيرة كانت تطارد قطة فانزلقت قدمها وكادت تهوي لولا أن تشبثت بسور الشرفة، تحرك يحيى إلى الجهة المُقابلة ليمرّ عبر عدة ممرات ليصل إلى الحديقة الخلفية لحجرة الصغيرة.

وبسرعة تسلق السور وصعد بحذر حتى استطاع الامساك بجسدها وعاد أدراجه مرة أخرى وهي بين قبضتيه.

كان حلقه جافاً وهو يسلم الصغيرة إلى الطبيب، الذي سارع يتفحص نبضها وتنفسها ثم بدأ يتفحص جسدها كله.

تنفس يحيى الصُعَداء وهو يرى إشارة الطبيب إلى العجوز أن الأمور مستقرة، بينما العجوز تمطره بوابل طيّب من الدعوات المباركات.

- تسلم يا ابني ربنا يحميك لشبابك ويبعد عنك ولاد الحرام.

انحنى يُقبل يدها وهو يتمتم بخفوت:

- قد ايه أنا محتاج الدعوة دي يا أمي.

مسّدت شعره بحنان وقد استشعرت شيئاً ما يربطها به، يجذبها إليه، يُرقق قلبها عليه.

أرادت ضمّه مائة ضمّة وضمة لكن الحرج منعها وأعادت النظر إلى القابعة في فراشها تشير إليها:

- أنا وعلا مديونين لك بحياتنا لأن حياتي هيا حياتها، الله يخليك لوالديك ويرزقك برهم يا ابني.

التفت إليها وقد بدأت الفوضى تنفض من حولهم، و عاد المرضى إلى غرفهم وقد نال الدعاء والامتنان من كل الحضور.

الحب عطيّة من عطايا الحياة.

السعيد متمسكّك بها والشقي من أعرض واستنكر، وهي أعرضت واستنكرت بالبداية.

***

لم تستطع اللحاق به فجمدت في موقعها للحظات.

انتبهت من شرودها على صوت الحافلة فألقت بنفسها داخلها وغاصت بأحد مقاعدها وهي تمسك الهاتف تعيد قراءة رسائله السابقة مرة بعد مرة.

لم تكن مجرد كلمات، كانت رسائل قلبية، إشارات من روح عاشقة.

زفرت بحنق تُكلم نفسها:

-غبية، أزاي محستيش إنه هو وكل كلمة بتصرخ وتقول أنا فارس.

فندت الرسائل واحدة واحدة وهي تتبع توقيت كل منها، زفرة طويلة شقّت صدرها ليحملها الهواء عبر النافذة.

منذ غادرها وهي مرتبكة مشتتة ضائعة، ماذا عليها أن تفعل لتسترده مرة أخرى؟

رفعت رأسها إلى أعلى واستحضرت كل ذكرياتها سوياً لتتنهد بوهن مرة على قلبها الحزين وأخرى على عقلها الضائع، وألف مرة على فعلتها الحمقاء، ثم خطرت لها فكرة،

وضعت منشورًا صغيراً عبر حسابها الخاص في مجموعة انضمت إليها منذ فترة طويلة كلها فتيات.

ترتاح لمشاركتهن بعض الأحاديث ومناقشة بعض القضايا أو حتى الثرثرة والمزاح.

سألتهم عن الموقف الذي حدث معها وطلبت استشارتهم وكأنها مشكلة تخص صديقة لها.

«صديقتي اكتشفت مؤخراً أن ابن عمها يُرسِل إليها رسائل عبر رقم مجهول منذ أكثر من عام، وقد وقع تحت يديها رسالة في هاتفه كان قد أرسلها ورأتها قدرًا، كيف تتصرف وقد اختلطت مشاعرها بين إحساس بالخزي، وشعور جارف بشغف محبة تقتحم حياتها، لا تنكر أنها كانت معجبة به لكنها لم تتوقع أن يصدر منه هذا الفعل».

واختتمت المنشور بسؤال آخر كيف تسترضيه وقد صبّت عليه جامّ غضبها وأنذرته وحذرته من الاقتراب منها مرة أخرى.

لم تكن تعلم أن سؤالها الثاني أجاب ببداهة عن سؤالها الأول، بل كشف مشاعرها وفضح ما تكنّه له.

وتتالت ردود العضوات:

-تتصل به وتسترضيه.

-توضح له أنه فاجأها وأربكها.

- إن كان يحبها بصدق سيسعى لمحاولة أخرى كي يقترب منها.

- تترك الأمر تماماً فهي علاقة آثمة لا يبيحها الشرع.

-تطلب منه أن يتقدم لخطبتها إن كان جاداً.

وزادت حيرتها أضعافاً، لكنها أجمعت أمرها وفتحت رسالته الأخيرة وكتبت:

-وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، مرحباً بابن عمي، انتظرك غداً في المشفى لمتابعة حالة علا وسندس.

تنفست الصُعَداء وهي تضغط زر الإرسال .

***

هاتفه الراقد في مكمنه يتعالى طنينه، فمنذ عاد إلى مسكنه وهي تحتل أفكاره بصراخها وغضبها، بحيائها وخجلها، حتى برفضها لما فعل واستنكارها لمشاعره.

لقد زاد احترامه لها أضعافاً واستصغر فعلته وما قاده لذلك سوى حماقة لم يستطع كبح جماحها،

جبهته التي تتفصد عرقًا تمنى لو يصفعها بأقرب جدار، كيف سمح لنفسه أن يفعل هذه الفعلة الحقيرة!؟

هل ستُخبر العائلة، وكيف يتلقون تلك الخبرية عنه؟

وكيف ستتغير نظرة الجميع له، سيحتقرونه لا ريب.

مئات الأفكار تتصارع في رأسه الذي كاد ينفجر، خاطر بشع تقافز إلى ذهنه وهو يرى والده مُنكّس الرأس بسبب فعلة ولده الأهوج.

***

يقولون أن البكاء رحمة!

ليت العبرات تريحنا، تغسل خطايانا، تمحو ذنوبنا، إذاً لبكينا بدل الدموع الدماء.

***

في طريقهم إلى الطبيبة كانت رقية ووصال يجاوران كلثوم بينما يقود السيارة إبراهيم بعد أن استدعته رقية على عجل.

استقبلتهم الممرضة لتقود كلثوم إلى غرفة الجلسات الجماعية وكانت الطبيبة قد بدأت الحوار، الفتيات يتحدثن عن تجاربهن مع تلك الألعاب الإلكترونية، كلثوم التي ظلّت تحدِّق بالجميع وعيناها مسكونتان بضباب.

تحدثت فتاة:

-أنا اسمي مها، بابا وماما مسافرين الإمارات ومعاهم أختي الصغيرة، أنا قاعدة مع جدتي.. كل حاجة ممنوعة خروج ..صحاب...نادي...مفيش، حياة مملة بدأت أدخل النت ومرة ف مرة بقيت أحمل الألعاب الإلكترونية لحد ما وصلت للعبة الحوت الأزرق كانت ممتعة ومسلية جدا وبدأت أوصل لمراحل متقدمة فيها، وفي أجازة الصيف رجع بابا وماما وبدأت المشاكل وعرفوا اللعبة بس بعد ما كنت اتورطت فيها لحد كبير، معلومات عن عيلتي وأسرار عن فلوس بابا وشغله وصور ليا ولأختي ولماما، حسيت أني ف كابوس كنت عايزة أفوق منه.

وهنا صرخت مها وهي تردد بجزع:

-عايزة أفوق، عايزة أفوق.

وهنا ربتت الطبيبة على كتفها وطالبتها بالتوقف:

-كفاية كدا يا مها المرة دي.

وأشارت لأخرى لتتحدث:

-أنا بقا اسمي شذا، نفس حكاية مها لكن أنا بقيت أسرق فلوس من ورا أهلي عشان أشحن وأعمل باقة لأنهم منعوا عني المصروف وسحبوا الموبايل، وف مرحلة من اللعبة طلب مني التطبيق أني أعمل من حبل الغسيل مشنقة وأعلقها ف أوضتي وأنتظر إشارة منهم وألف الحبل وأكمل، أنا اترعبت ورفضت، هددوني بالصور والمعلومات لكن بابا لاحظ حالتي وجابني هنا في الوقت المناسب واعترفتله بالحاجات اللي عملتها كلها، زعل شوية بس تفهم وسامحني بعدها، أهم حاجة أني انتصرت على خوفي.

رفعت كلثوم وجها غير الذي دخلت به، وسألت بتردد وصوت خفيض:

-يعني أنا ممكن أحكي لأهلي ويسامحوني.

ابتسمت الطبيبة وهي تجيبها:

- أكيد يا ثومة هيسامحوكِ ومهما كان رد فعلهم عمره ما هيتساوى مع فداحة الثمن لو كملتي.

نظرت لها كلثوم نظرة مُفعَمة بالأمل.

وحين وصل يحيى ولحق بهم طلب مقابلة الطبيبة على انفراد ليعرف منها أسباب انتكاسة أخته.

عادوا إلى دار البغدادي، فآثر يحيى أن يطمئن أولًا على جده ثم جدته.

طرق باب الغرفة مرة ثم مرة ولما لم يصله رد أدار مقبض الباب ليفتحه وقد وجد جده يجلس على أريكته بجوار الشرفة وحين التقت النظرات استدعت العبرات ليشيح الجد بوجهه وهو يمسك عصاه بيد مرتعشة ووجه حمل من تقاسيم الوجع ما زاد وفاض.

تجمعت الدموع في عيني الجد ليخفيها بسرعة عن حفيده الذي كان يتحاشاه طيلة الفترة السابقة مما آلمه وحز في قلبه.

عز عليه أن يتجاهله لعدة أسابيع وهو الذي كان يتفقده صباحاً ومساءً، ابتعد عن مواجهته فاستقام نحو الشرفة لتخونه أقدامه وهو يسرع الخطى، ليختل توازنه ويسقط أرضاً.

سارع يحيى يمد ذراعيه لجده يساعده على النهوض، لكن الأخير رفض بقسوة أية مساعدة، اعتدل مستنداً على عكازه ليداري ذلته وهوانه، بينما يحيى يعتصر الألم فؤاده ولا يملك له من الأمر شيئاً.

حاول استرضائه فهتف يمازحه:

- دا ني كنت غايب بادورلك على عروسة أرجع ألاقيك أكديه.

وأضاف بغمزة مشاكسة:

- خارج نطاق الخدمة.

لم يستطع الجد كتم ضحكته فوازاها سعال شديد، ارتبك يحيى وقدّم لجده كأساً من الماء وهو يقبل يديه:

-ما اقدرش على زعلك يا جد سامحني.

***

ويحدث أن يكون للغياب ألف باب ويأتي الحنين من شق عتبة.

***

هو مهما غاب ظل الحنين يناوشه للعودة طوال غربته، ظل يحلم بيوم الرجوع ليعود إلى جذوره، ثم وصلته معلومات أكيدة من قيادة أمنية لها صفقات مشتركة مع شركته.

علم أن اسمه لم يعد مُدرجاً في قوائم المطلوبين أمنيًا، وأن اسمه مُحي منها والمقابل تم دفعه كاملًا لتلك القيادة، فهكذا تُدار الأمور.

خذ وهات.

ابتسم بمكر وهو يهبط درجات سُلّم الطائرة، ارتحل من مطار استطنبول وها قد وصل إلى مطار القاهرة الدولي، نظر نحو القابعة بجواره، زوجته «إيناس المسيري»، ابنة صاحب الشركة التي يعمل بها وصار مديرها التنفيذي الحالي.

والساعد الأيمن لوالدها، سعد شيخون البغدادي.

«سعد شيخون البغدادي»

ظل رجل الإستعلامات يكررها حتى انتبه من شروده وسحب جواز سفره وهو شارد

كم كان لزاماً عليه أن يُقدِّم من التنازلات حتى يصل لذلك المنصب، نظرت نحوه «إيناس» نظرة فارغة وقالت بلا مبالاة وبعض غطرسة:

-الجو تراب ورطوبة عالية، أوووف.

ظلّت خواطره حبيسة صدره، فتلك التي ارتبط بها لا تعنيها مشاعر ولا تهمها أحاسيس.

هي فتاة عملية تعرّف عليها في العمل على الرغم من أن والدها رجل الأعمال المُحنّك «عزيز المسيري» يمتلك الشركة إلا أنها تعمل بها وتبدأ السلم الوظيفي من أوله حتى تتعلم كل شيء.

تذكر كيف كان ملتزماً محبوباً من الجميع.

كيف كان شعلة نشاط وسراج خير في سنوات غربته الأولى.

لكن..

وآه من ثلاثة أحرف قاتلة.

لكن ..تقلب الأمور رأساً على عقب.

لكن..صفعة قوية تُزلزلنا.

لكن...تضعنا في مواجهة ما نخشى.

لكن....تفتح الأبواب على مصراعيها والنوافذ عن آخرها.

لكن،،،،يناقض ما بعدها ما قبلها.

لكن.....تغير الزمان والمكان والشخوص والنفوس.

وهو قد تغير لا ريب.

***

اتكأت على باب شرفتها شاردة وقد مرّ وقت طويل وزوجها لم يعد بعد، غاص قلبها بين ضلوعها وهي تراوغ اشتياقها إليه ولهفتها عليه بينما هو بدا زاهداً فيها.

تُرى ما سر تغيره!؟ شعرت بخطوات تقترب من خلفها لتستدير وتجدها.

«سلمى»

تلك التي باتت تحتل الدار ليل نهار بحجة خدمتهم وقضاء حوائجهم، لكن الحقيقة غير ذلك، لقد كانت تتلصّص على الجميع.

-اسفة يا ست جميلة خبّطت ومحدش رد فخفت عليكِ.

تمتمت جميلة بغير رضا:

-في حاجة؟

-أبداً يا ست، أجهز العشا؟

وأردفت بنظرة ماكرة:

-سي يحيى وصل وقاعد مع جدي ف أوضته.

***

على طيف الأحبة عزفت تراتيل لقاء لم يحن بعد، وحين أُقيمت شعائر الحنين؛ غادرنا الشوق

أسدل الليل أستاره لتزداد العتمة الموحشة في الأرض وفي القلوب.

***

ظلاماً مهيباً لم يترك فرصة لبصيص ضوء فيجبر الأنفس على الهلع والذعر، انكمشت بجسدها وكانت ترتجف، تتسابق دقات قلبها في تعثر محموم.

دارت بعيونها في المكان تستكشفه علها تتبين هويته فلم تفلح، خلف باب موصد وحيدة بقلب واجف، لم تعِ كم مر من الوقت وهي هكذا، ساعة.. اثنتان.. ثلاثة.

دجنة عينيه وقتامة نظراته اخترقتها، تجمدت فرائصها في رعب وهي تراه يحكم وثاقها لتصدر نشيجاً باكياً، تلاه أنين وتأوه.

من شرفة حجرتها قفز وتسلل بخفة حتى اقترب منها وكمم فمها بيد ويده الأخرى تطبق على أنفاسها بمنديل دسّ فيه مخدرٍ ما.

واستمر يعتصرها بين ذراعيه حتى سرى الخدر في أوصالها وسقطت في غياهب اللاوعي، ليتم ما بدأه، بلُفها في شرشف كبير ويرفعها فوق كتفه وينسحب من المكان في لحظات.

ارتسمت فوق شفتيه ابتسامة نصر.

لمزاته الحقيرة لا تعيها وهي حائرة تحاول ربط الأحداث وتسعى لتجمع الخيوط من أطرافها.

-مرحبة بالغالية بت الغالي.

شهقت بفزع حين كشف عن وجهه بكل جراءة بل وبتحدٍ بغيض:

-عم سليم؟

جسدها ضاق ذرعًا بقيوده فصار يتلوى باحثاً عن حريته مطالباً بانعتاق، نفث دخان تبغه في وجهها وهو يضيّق حدقتيه ويردف بملامح متوعدة:

-انا قلت تقعدي حدانا يومين تغيري جو لحد ما نخلص مصلحتنا.

صمت برهة وأضاف:

-واديكِ شايفة يا حلوة لو صرختي من اهنيه لبكرة ماحدش هيحس بيكِ، نهنهاتها المتقطعة بدأت في الخفوت حتى تلاشت.

***

-١٧-

ثُمَّ _ أَنِّي!
ثم أنِّي إليكم
ما زلت أنتمي
ثم أنِّي عنكم
قد أردت اعتكافكم
فكأنّني ما عدت منكم
وكأنني ما كنت نطفة أحدكم
فقط...
ذروني بوحدتي
تلك ملاذي الآمنِ
هي أمني و مأمني
هي سكني وسكينتي
هي ذاك الفؤاد الساكنِ
هي كل ما أردت دونكم
ولأنكم
غبتم وغابت روحي لديكم

فكأنّما
ما عُدت إلا خواءً واهيًا
متقلبٌ، ملفوظ دومًا
جِراء قلوبٍ قاسيه...
ما عدت إلّا خيال مآتةٍ
تزروه ريحَ شمسٍ عاتيه
موؤدةً، مكبلةً
بأغلالٍ من حديدٍ قُيدَت
مشطورةً، مكسورةً
بهمزات ولمزات وُئِدَت
مجروحةً، مجلودةً
بسياطِ كلماتٍ قُتلت
فبأي ذنب جنيته
قد أزهقتم رَوْحِي ودُنْيَتِي
وبأي جُرْم ها هنا
بِخِنجَرٍ مسمومٍ
طعنتم خافقي
فكأنما ما عدت منكم
وما كنتُ أبدًا نطفة أحدكم
ألفت سلام.

هاجر التي كانت تحاول التغلب على النعاس، تقاومه بينما عيناها تتشاجران تمسك في يد كتاب وفي الأخرى كوب شاي ثقيل.

والشاي الصعيدي غير ....

«فهو عبارة عن ماء و شاي يوضعان في قدر منتفخ يسمّى «بَرّاد» ثم يُحكم الغطاء فوق موقد قد يكون من الفحم، وهو الأفضل أو من الخشب أو أي مصدر للنار. ويُترك يغلي على مهل حتى يتضاءل حجمه فيثقل ويركز ويغمق لونه إلى الأسود ويصير شايًا صعيديًا بجدارة».

كانت تسير على تعليمات الطبيبة النفسية حين نصحتها بالانخراط في جو الأسرة ومشاركتهم كل الأحداث مع ساعة تريض ونشاط اجتماعي آثرت هاجر أن يكون في دار الأيتام، أما الأدوية؛ فكان منها أقراص عديدة معظمها مضادة للاكتئاب، حذرتها من العزلة فما حدث كان ناقوس خطر!

دمعت عيناها وهي تتذكر ما حدث، بينما تخبط على ساقيها بكفيها بقوة، وأمسكت هاتفها النّقال بعد أن أصدر إشارة بورود رسالة، إنها من أيمن.

أخذت نفسًا عميقا قبل أن تفتحها لتحاول السيطرة على انفعالاتها:

-السلام عليكم هاجر والدتي تريد رؤيتك فهل تسمحين لها بالزيارة؟

صدمها سؤاله، واكتشفت أنها عاجزة عن الرد غير قادرة على تقرير ما تريد.

الليل الذي يلف الجميع بستره وستاره يغدق على الكل عطاياه، الطيبون يمنحهم هدوئه وسكينته، يطبب جراحهم، يمنحهم الأمل في غدٍ أفضل.

الأشرار ينتظرون قدومه ليستر ذلاتهم ويحفظ أسرارهم، فلا يبوح بهزائمهم ولا يفضح خطاياهم.

هذا ما يظنه الجميع.

لكن الحقيقة الخالدة؛ أن كل شيء يُحاك ليلاً إلا العتمة، تعلن عن قدومها مع أول لحظات الغروب، واضحة هي رغم ما يخفى بداخلها وما يرتكب بسترها، قوية هي شديدة البأس فلا تشي ولا تخون.

لكنها بالنهاية أسيرة أول شعاع فجر سيلوح في الأفق لتغادر بلا مهادنة وترحل بلا مهاودة.

***

لم تمضِ عدة ساعات حتى انقلبت الدنيا رأساً على عقب،

حاول يحيى السيطرة على غضبه لكن الدم كان يغلي في عروقه رغماً عنه،

زوجته مختطفة! أحدهم جرؤ على اقتحام دار البغدادي وخطف جميلة.

كان منفعلاً حد الشطط، فلماذا يدفع الأبرياء ثمن الخطايا!

لماذا يتحمل الضعفاء فَداحة الأخطاء التي يرتكبها الأقوياء!؟

احترق عقله مائة مرة وهو يتخيل حالها الآن، ضرب الجدار بقبضة يده التي عجزت عن حمايتها سابقاً وتعجز عن إنقاذها تواً. أطلّت عليه بحنانها المعهود، ومَن سواها يقدر على اقتحام خلوته الآن!

-وحد الله يا ولدي.

-لا إله إلا الله.

الحزن والقلق الذي بدا في عينيه هالها! فبرغم ما مرّ به من مآسٍ لم تره أبداً بهذا الحال، لقد أوشك أن يفقد عقله!

لم تستطع أن تضيف كلمة واحدة فأي حديث هنا بلا معنى، بلا قيمة وبلا جدوى،سقطت البريئة بين شباك الغدر وحبائل الشيطان.

وجهه راحت منه الحياة وقد تلوّن بكل ألوان الطيف قبل أن يستقر على لون واحد قاتم مظلم، يكاد يموت بحسرته عليها، نبضات قلبه تدوي في جنون آآآه .... يود لو يصرخ بها مدوية، لكنه كتمها.

على بُعد خطوات وفي مكان ما، تقف تراقب الأمور بتوتر، تعمّدت إخفاءه ورسمت على مُحيّاها قناع شفقة زائف، إنها سلمى.

***

تلك العواصف العاتية قادرة وبقسوة على إطفاء كل قناديل حينا،

حتى تلك الأفواه الجائعة لن يملأ بطونها فُتات خبز الطواغيت،

وتلك الخُطى المُتعثّرة التي طالما ارتجفت واهتزت، لم تجد صراطها فضلّت الطريق

وهي ضلّت طريقها.

***

تلك الحرباء التي تُجيد نصب الفِخاخ لتغنم بمبتغاها ولو كان شيطانياً، امرأة تُعاني رُهاباً مرضياً فرض سيطرته بقسوة على حياتها فأحالها جحيماً خالصاً، تُرضي غرورها الجريح بسحق الجميع والانتقام الأهوج من كل قصة حب أو وِدٍّ أو وفاء،تنفث سمومها في حياة الجميع، والحيّة لا بد من قطع رأسها حتى يرتاح الجميع.

تلقّت الخبر بذهول وازاه استنكار، بينما العبرات تغادر سجن الأجفان بلا وعي أو إرادة.

لتتجرع كأس الفقد قطرة قطرة.

ولتحصد ما زرعت يداها جُراء ما اقترفت.

لتُعايش الحزن وتتذوق مرارته، فكم سقت قلوب بسعير انتقامها!

تجمعت عبرة ثقيلة وازتها نظرة خاوية حين حطّم الباب وهمّ أن يفتك بها، فشكوكه لا تقوده لسواها، بخطوات مندفعة واجهها.

كانت ترمقه دون رؤيا، فلم يدرِ أيرثى لحالها أم ينقم عليها. هزّت رأسها بلا معنى، عاد بصره يحوم فوق ملامحها يستجدي أمومة ضائعة وأم بلا عاطفة.

-بتك اتخطفت يا عمة.

لم يكن بياناً بقدر ما كان استبياناً

حيّة ملعونة ضيّقت الخناق على الجميع، حتى ضاق الحبل على عُنقها وعنق مَن تُحِب فكاد يشنقهم جميعاً.

ضاقت عليها الدنيا بما رحبت.

فقد حشرها «سليم» بخانة اليك، لم يترك لها فرصة أو خيارًا .

افترق جفناها على عين ضائعة ونظرة زائغة.

يلوي ذراعها بعنف وهو يكاد يفقد عقله:

- قوليلي أذيتي مين وبينتقم منك في بتك؟

عيناها متسعتان بجحوظ بينما جسدها متجمد وبكاء منهار يعلو ويخفت كل حين،انقطع تلصّصها بشهقة عنيفة وهي ترى قبضتي يحيى تطوقان عُنق حُسنة، يضغط على نحرها يهز جسدها هزًا.

وصراخ هائج:

-هيا فين؟ هاقتلك لو حصلها حاجة.

هتفت حُسنة وأصابع يحيى تعتصر رقبتها:

-هملني وفوتني يمكن أعرف أرجعها.

بهت يحيى وسألها مستنكراً بنفاد صبر:

-يعني عارفة مين خطفها؟

هزّت رأسها باستسلام، وشهقت بحدّة وهي تلطم خدها:

-واه يا مرك يا حُسنة.

جنّ جنونه وصاح بوحشية:

-مين ابن ال.......اللي عمل اكده.

قاطع صراخه زمجرة هاتفه الخشنة ليضغط على أزراره بتوتر ويُجيب:

-نعم.

-لو عايزها ترجعلك تنفذ اللي هقوله من غيرما تنطق.

-اخرس يا حيوان، أقسم بالله لو مسيت شعرة منها لأخليك تكره اليوم اللي اتولدت فيه.

-استهدى بالله واتأكد إن اللي عيكلمك فاقد، مقطع بطاقته، ومباكيش على شي واصل.

قاطعه ليقول بلهجة آمرة:

-اه يا سافل يا حقير والله لاوديك في ستين داهية، انت مين يا واد؟ ومكانك فين؟

ضحك بمكر وخبث وقد أيقن أنه سيصل لمراده حتماً، فنبرة الزوج الموجوعة تشي بكل شيء.

بنبرة ميتة ذكرت حُسنة اسمه قبل أن ترحل.

-سليم.

ارتجف جسد سلمى بعنف وهي تسترق السمع من وراء الجُدُر، لم ينتبه أحد لوجودها، فهي كالهواء بالنسبة لهم، أسرعت بالخروج مغادِرة دار البغدادي.

قبل أن تمر حُسنة عبر البهو استدعاها الأبّ، أفسح لها مجالاً لتدخل بخطوات مترددة، صمتٌ متوتر صاحبه نظرات أكثر توتراً.

واجهها بصرامة، فلطالما غضّ الطرف عن قبيح أفعالها، أما اليوم فلا مجال لتهاون ولا سبيل إلى مهاودة.

سألها بحدة ولم يترك لها مجالًا لهروب ولم يمهلها لحظة فرار:

-عايز اعرف الحدوتة كلاتها من أولها واوعاكي تكذبي يا بت يامنة.

اتسعت عيناها بصدمة، فهي المرة الأولى في حياتها التي يناديها بأمها، كان دومًا يقول لها: «يا بت البغدادي»،

وكأنها يتبرأ منها الآن ومن أفعالها التي لم تعد تُحْتَمَل!

عيناه تتركزان عليها بلا طرفة رمش واحدة، ينتظر إجابة الذاهلة أمامه.

رفع كفّه وصفعها بقوة بعد أن طال صمتها وتعثّرت الكلمات على شفتيها لتخرج حروفاً متقطعة، لا معنى لها.

نظرة زاجرة لاعنة، بل قاسية ومميتة.

استنكار وازاه قسوة ليبتر ترددها ويجبرها على الكلام بينما أناملها تتحسس وجنة تلتهب بجوار قلب أوشك أن ينفجر خوفًا.

شملها بنظرة احتقار من رأسها لأخمص قدميها، بنبرة حزينة مقهورة وحروف خجلى تُحاول ما استطاعت مداراة ندمها وحسرتها قصّت عليه ما حدثمنذ أرسل عاصم زوجها الراحل ابن عمه سليم ليراقب عائلة سندس

ويتتبع أثرهم مروراً بصفقة عُقِدَت مع الأخير لتتخلص من ابن أخيها وتستولي على أموال عائلة سندس، وانتهاء باختطاف ابنتها.

وهنا شهقت و قفزت كالملدوغة فابنتها في قبضته، تركت والدها تفترسه الحيرة وتعصف برأسه الأفكار، متى تحولت ابنته إلى مُجرمة قاتلة!؟

متى ملأ السواد قلبها فأعمى بصرها وطمس بصيرتها!؟

ما كاد يهتف باسمها لتعود حتى أظلمت الدنيا من حوله وضغط على صدره براحته ثم أطلق صرخة توجع مكتومة، سقط بعدها في موضع جلسته!

***

أتدرون ما التلبيس؟؟

أن يحاول أحدهم

خداعك بصدقه،

وإقناعك بحبه،

وإيهامك بإخلاصه،

أما التدليس؛

أن تخدع نفسك أنت وتصدقه

رغم حقيقة أفعاله.

هاتفته سلمى لتخبره بمُستجدات الأمور.

المقايضة بالمال مقابل سرقة الأوراق لم تصمد طويلاً أمام طمعها وشَبقه للتركة، وجموحه للاستيلاء على الثروة كاملة.

فكان الوعد بزواج.

المحامي الشاب يعرض سلعته واحدة تلو الأخرى، لخادمة صغيرة!

-الووو أحمد لازمن تاجي الواحة وتشوف بنفسك الدنيا اتلخبطت على بعضيها.

-ايوا يا سلمى يا حبيبتي ضروري هاجي بس قوليلي ع السريع إيه آخر الأخبار؟

-أبويا خطف جميلة بنت عاصم وحُسنة عشان يهددها بيها، وسندس طلعت بنت الست دلال وهيا ما تعرفش لحد دلوقتي.

-أوبااااا دا كدا مية فل واربعتاشر يا بت وإمضا صغيرة من سندس القضية هتبقى متقفلة ضبّة ومفتاح والتركة تبقى في ايدي وبالمرة نخلص من يحيى والدنيا تزهزه.

-طيب تعالى بسرعة بقا هستناك.

ضحكة خبيثة كانت الرد عليها قبل أن يغلق الهاتف ويستعد للسفر.

فالأرض خالية له الآن.

أماني منشغلة بزوجها الذي تزوج عليها رغبة في الإنجاب وهي تحاصره حتى يعود.

أمل خضعت لإشراف طبي في المصحة لمعالجة الاكتئاب.

فكل ساقٍ سيُسقى مما سَقى.

وهُم نبُت لحمهم من سُحْتٍ ولم يردّوا الحقوق لأصحابها، فصار لِزاماً عليهم دفع الثمن.

***

وحين تورطنا في تلك المشاعر،والمُسميات المعقدة؛ لم نستطع أن ننهي تلك العلاقات كما ينبغي وبشكل يليق بها.

فغدونا نُكابد رهق العداء، وبقينا نلاحق أسر الودّ، وظللنا في المنتصف.

ورطة!

ونعيش عمراً فى خوف على أشياء نملكها ......خوفاً أن تضيع، وأشياء لا نملك.. خوفاً أن لا تأتى.

ما أبشع الخوف فى الحالتين!

***

نظراته التي كانت تتلكأ فوق ملامحها الغاضبة ضاعفت توترها فهتفت بغيظ:

-ما تبصليش كدا يا فارس.

ابتسم بشقاوة ونظرة انتصار تملأ حدقتيه:

-أوامرك يا ست الدكتورة

أخفت ابتسامة داعبت شفتيها وهي تُشير له أن يتقدمها لبوابة المشفى.

-يلا بينا حدانا حاجات كتيرة عاوزين ننجزها.

-حاضر.

اتّشحت شفتاها ببسمة خجولة وازت التماع عينيها بسعادة، فتقدمت تتبع خُطاه.

***

البداية قد تكون مواجهة كمواجهة مخاوفك التي تستحوذ عليك، تقهرك، تمنعك من الاستمتاع بالحاضر والخوف من المستقبل.

وحدك من أعطيتها الفرصة لتكبر وتتعاظم لتصير وحشاً يكاد يفترسك.

الخُطوة الأولى هي المواجهة لكسر حاجز الخوف.

***

قلب الأمّ يرى ما لا نراه.

يسمع ما لا نسمعه.

يرصد، يحسب، يُدقق،

يتوقع الأشياء قبل حدوثها.

يستشعر المخاطر قبل وصولها، فيرى... لا بعينٍ؛ بل بقلب أمّ.

ويسمع... لا بأذّنٍ، بل بخفقة فؤاد.

كانت تتنقل ببصرها فوق ملامحها، حين مرّ الاسم على مسامعها؛ خفق قلب الأم خفقة استشعر فيها حنين القُرب ولوعة البُعد.

حنين جارف يجتاحها، وحركة واهنة تُخفي عَبرة فرّت من خندقها لتعبر بفرحة وامتنان.

تركت لها من الوقت ما تستجمع فيه شتاتَها لتدحر ضعفها وتُخفي قهرًا وسم جبينها.

***

كومة خشب مُحترِق ... دُخَان أرجيلته، وحصار امرأةٌ قابعةٌ في فراشِه،

عيناهُ كصقرٍ تحومُ حول المكانِ.

وها هي تخطو نحوه، تطأ أقدامها أوراق شجرٍ جافة فتُحدِث خَشْخَشَة يحفظها جيدًا،

حديقة أشواك تمرُّ عليها، كالتي زُرِعَت بقلبها تماماً. لتقترب من ساحة حربٍ بطلُها وقح، ومُحاربته أفعى وسجينة بائسة.

عراك محتدم، جلَبة صادرةُ مِن بقعة مجاورة لتنكشف كل أوراق اللعبة.

-مرحبة يا مرحبة، اللعب بقى ع المكشوف يا كابيرة.

كانت تستند على الجِدار، تستمدّ عوناً منه حتى لا تخِر صريعة ما يحدث.

باغتها في لحظة، فسألته بقسوة:

-فين بتي يا سليم؟

تمتمت بعدها بذُعرٍ وازتهقلةّة حيلة:

-هي ماهاش صالح باللي بينا يا سليم.

فتحت عينيها ببطءٍ تُحاول أن تستكشف ما حولها، رؤية مشوّشة، ووعيٌ شبه غائب.

كانت الجُدران رطْبة، والأرض لِزجة تفوح منها رائحة العَفَن.

كان عليها النوم فوق تلك البُقعة من الفِراشِ الرَثِّ، بعدما أنهكها البُكاء وأعياها الصراخ دون جدوى.

لكنها استجمعت قوّتها حين رأت خُطواته تقترب منها،

وهتفت بشجاعة زائفة:

-حابسني ليه يا عم وعايز مني ايه؟

والإجابة صمتٌ طويل ونظرات وقِحة تفترسها.

-إحنا هنشيلوكي على كفوف الراحة.

-ماعيزاش منك حاجة، فوتني أروّح بيتي الله لا يسيئك.

-مايصحش يا غالية لازم نريحوكي.

جسدها يرتّج هلعاً، والدموع تتسابق حارة على وجنتيها.

حاولت أن تتوسّل له، ترجوه أن يعتقها ويتركها لحال سبيلها.

كانت تمسح دموعها، ثم ما تلبث أن تنهار في بكاء مرير.

***

هرع الجميع إلى غرفة الجد، بعدما أخبرهم خادمه بوقوعه على الأرض وعدم استجابته لنداءاته المتتالية.

صوت الطبيب خرج مُتحشرِجاً ونبرته حزينة وهو يُخبرهم بموته...

-البقاء لله.

صاح يحيى:

-مات!!

بُحّ صوته واختنق وهو يُنادي عليه ولا صبر له على هذه الفاجعة.

لقد صرت وحيداً في هذه الدنيا يا يحيى،

بلا سندٍ وقد صار ظهرك عارياً.

الموتُ بُباغِت بلا استئذان، بلا موعد، بلا سابق إنذار.

هكذا وببساطة ينتزع الروح من الجسد ويمضي.

صدْمته جعلت الأفكار تعصف به، بينما عاد إلى رشده بعد حين،

مُحوقلاً مُستغفراً حامدًا للمولى على كل حال.

ذاك الراقِد مُسْجى في فراشه ينتظر ضمّة القبر.

بينهما خُطواتٍ ...وكذبة، بل جريمة ارتُكِبَت بحقه.

صمتٌ مُطّبق...

ورقة ميلاد تغير فيها من كان يسكن خانة الأب، والأداة إضافة حرف،شرطة تحتها نقطتين.

من «حسن» ... إلى «حسين».

نقطة دمّرت الماضي، وأخرى قضت على المستقبل، ليُستبدل الأبّ بالعمِّ، والنهاية فاجعة!

ملعون هذا المال، وذاك الإرث الذي يقودنا إلى الهاوية فتُنتزع الآدمية، وتُسحق الإنسانية، فنتحول إلى وحوش كاسِرة لا تعرف غير لغة القوّة وسطوة النفوذ.

والقسوة لا تميز بين طيّب وشرير، هي نار تقتلع في وجهها الأخضر واليابس.

***

- ١٨ -

الحياة فصول؛

منها ما تأنس فيه وتطرب،

ومنها ما تبتئس منه وتضجر.

منها ما ترشف فيه الشهد، أو تزدرد العَلقم.

فإذا ما توسدت ثراها، والتحفت أرضها، وتعلقت عيونك بسماها...

اخلع عنك ثوب الحِقد والغل والحسد، تنعم بزهرة الحياة.

تستمد من نورها ومضات، بارقة أمل، لحظات مُشرِقة

تغور في باطن أعماق النفس، وتجول بالفكر في الآفاق، تمنحك السكينة والهدوء والسلام.

***

لم يُصدّق نفسه، وولده أمامه بشحمه ولحمه، غاب سنوات عديدة وها هو يعود من جديد...

«وِصال» وقفت مذهولة، تجمّدت للحظة قبل أن تُدرك أن الواقف أمامها هو «سَعد» الأخ الغائب، قُرّة العين وحبة القلب.

إبراهيم جاء مهرولا.

عاد «سعد» بوجهٍ غير الذي رحل به.

تُراها تغيرات الظروف وتعاقبات الأيام؟ أم تُراها شيئاً آخر؟

احتضنه الأبّ بقوة وكأنه يستعيد ما مرّ مِن سنوات الفِراق، كم تألّم في بُعده!

كم تمنّى عودته!

وها هو يعود إلى حِضن والده و دفء العائلة من جديد.

ضمّته وِصال طويلاً، كتمت دموعها، وصرخت بفرحة عارمة:

– خوي.

امتدت يده بعد أن استراح في جلسته لكأس ماء بارد ارتشفها دفعة واحدة، وبدأ يتحدث عن عمله وزواجه ومشروعاته.

***

لا مفر مِن إلقاء الحقيقة بوجه الجميع، فتلك هي الطريقة الوحيدة التي يُدرك جديتها.

ارتد والده بمقعده للخلف ليستوعب ما سمع من كلمات،

أغمضت وصال عينيها وكأنها ترفض ما تسمع،

ترفض الواقع الذي أتاهم بغتة.

هو لم يجد من يحتويه، يرشده، يأخذ بيده؛ فخضع لهوى شيطانه.

طال شروده وهو يُفكر كيف آل حال ولده، هتف بحنق:

-لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هو دا اللي رجعك يا حزين.

واستطرد يُدمدم بوهن:

-يا ريتك ما رجعت... يا ريتني مت قبل ما أشوف اليوم دا.

هزّ رأسه باستخفاف:

-الدنيا مصالح، هات وخد، والقوي بياكل الضعيف.

رد بغيظ:

-تغور الدنيا اللي تنسينا الآخرة.

لكنه كان مُدركًا لما يفعل، ومُصراً على تنفيذ ما سبق وخطط له؛ سيستحوذ على الأرض كلها ليبني مشروعهِ العملاق، وتباً لكل الأخلاقيات التي تمنعه عن تحقيق حُلمه.

اعتدل قائلاً:

-دي فرصتنا عشان نكبر ويبقى لنا كيان في السوق العالمي مش المحلي بس،هنعمل أكبر منتجع سياحي وصحي وفنادق وكومباوندات.

سرح بعيداً وهو يستقيم ليلف حول والده بخطوات وئيدة، ويُردف:

-أكبر مشروع سياحي في مصر.

لم يستطع أن ينال اهتمام أحد، فهُم أبعد ما يكون عن لغة المال.

عاد لصمته يستحث أحدهم أن يتكلم،لكنهم لم يستجيبوا. بينما يرمقه والده بصمتٍ يبحث في قسماته عن ابنه الحقيقي ولم يجده.

سارع إلى غرفته ليختلي بنفسه مُردداً أذكاره وأدعيته.

أمّا وِصال؛ فآثرت الذهاب لإعداد الطعام.

وبقي إبراهيم، شاركه الجلسة فبدأ سعد يشرح له تفاصيل مشروعه الجديد، وأخرج من حقيبته بعض الملفات والأوراق بحماس...

***

شبيهتك أنا؛

في عنادي وغروري،

بمزاجي المتقلب وجنوني،

بتسلطي خلف رداء طيبة زائف.

شبيهتك في ضعفي وخذلاني،

تحت قناع بطولة خائف.

شبيهتك في شموخي واعتزازي،

رغم انكساري.

كطير يخشى لحظة انعتاق،

فيغدو شريدًا مُطاردًا من الصيّاد.

شبيهتك...

في شغف البدايات

وحنين النهايات،

وحرارة الوداع

ودهشة اللقاءات.

شبيهتك...

كنبتة صحراء، لا مورد ماء ولا زخّة رِواء،

ارحل رغماً عني، وفات أوان الرجوع فأصابني الجفاء.

أقف بكبرياء أتدثّر وشاح الأنين.

أحتاج ضجيج حب، ترنيمة أمان.

في مدن المنفى ومرافئ الترحال.

***

دخلت غرفتها وقد انتابتها الحيرة وتلاعبت برأسها الظنون،

ما الذي يحدث؟

وكيف تعقّدت الأمور؟

وكيف لعائلتها أن تقف صامدة أمام تلك الأزمات المتتالية؟

فمنذ لحظات؛ كان على الجانب الآخر مَن يتجرع مرارة الانتظار لتبقيه فوق مراجل من قلق، أما هي؛ فكانت بين المطرقة والسندان.

هي في مُعضلة لا تدري ماذا تفعل، تخشى أن تفقد رصيدها لديه، وتخاف أن تتسرع بإجابة طلبه قبل استكمال شفائها، وظلتّت على حيرتها حتى دقّ هاتفها برقم غريب، أجابت:

-الو.

-ايوا أنا والدة أيمن، معايا هاجر؟

ارتبكت، تخبّطت، فعلا هدير أنفاسها التي كانت تتقافز لترد برجفة:

-أهلاً بحضرتك.

جاء الرد مغلفاً بحنان:

-البقاء لله يا بتي.

-ونعم بالله.

-كنت طلبت من أيمن اجي اعزيكم واتعرف عليكي.

صمتٌ طويل لا إجابة بعده لتردف الأخيرة:

-ولا انتي ما عايزاش تشوفيني؟

تلجلجت هاجر ولا سبيل لهروب:

-لا سمح الله، أبدا والله، دا حضرتك تنورينا، إحنا بس ما عايزينش نتعبوكم.

- تعبك راحة يا بتي، هاجيكم عشيّة بأمر الله.

-مرحبة وأهلا وسهلا.

-في رعاية الله.

-مع السلامة.

انتهت المكالمة، لكن طواحين الأفكار تتصارع في عقلها،

فماذا ستفعل؟

***

الموت هو الحقيقة الوحيدة الخالدة

التي لا يستطيع أحد إنكارها أو رفضها أو حتى مفاوضتها.

***

نقلوها إلى غرفته حتى تودِّعه الوِداع الأخير.

جلست بجوار جسده المسجى تتحسس جبينه،

تسد وجيعة قلبها في فقده بلمسات متتالية لكل موضع من جسده،

لتنفجر ينابيع الحزن داخلها كما انهالت عليها الذكريات.

هي التي لم تعُد تقوى على الحِراك، رحل وتركها بعد أن قاسمته رحلة حياته وشاركته عمره كله، ظلّت حيثُ وضعوها بجانبه تتلو الآيات ومن بينها شهقات ونحيب،

كانت تحتل طرف الفراش ليفيض الهم من مآقيها.

ويستأذن يحيى في الدخول محاولاً التخفيف عنها مُنهياً المشهد الصعب الذي لم يعد يحتمله أحد، فهو الذي كان يتّبع جده بخطى حثيثة، يسير على دربه، ينتهج نهجه بكل دأب، وها هو يدرك أن حياته كانت زائفة وعمره أضحى كذبة كبيرة.

لكنه عاد وفكر بحكمة وهدوء، ليكن مُنصِفاً، فقد أهداه جدّه فرصة جديدة للحياة، منحه عمراً كان سيُهدر إن نُفّذَت تلك الجريمة، بل وأعطاه شقيقات ملأن حياته بهجة وأنسًا، وعائلة أحبها بصدق.

لقد حال جدّه بينه وبين الموت بالفعل، وهو مَدين له بحياته مرتين؛ مرة لإنقاذه، وأخرى لتربيته ورعايته.

لكنّه يشعر أن العالم يقف على صدره يجثو عليه، كل الجُدران تُطبق على أنفاسه وتقبض قلبه وهو يتحسّس هاتفه، كلٌّ قليل بانتظار مكالمة تُعيدها إليه، فما ذنبها وما جريرتها؟!

ولِمَ تدفع هي ثمن أخطاء الجميع؟

لقد رحل عاصم بكل دنسه وأوزاره، رحل بكل حماقاته وخطاياه.

فلماذا يعود طيفه ليُدمِّر حياتهم!؟

وفي هذا التوقيت، ليتضاعف شتاته وتكتمل بعثرته، مُمزّق هو بين الجميع، لا يدري ماذا يفعل؟

***

ماذا لو استطعنا محو الجزء السيء من الأحداث؟

أو طمس البقعة التي تُؤرقنا من الذاكرة.

***

وقفت مذهولة تُتَمّتِم بكلمات غير مفهومة، تتحشرِج أنفاسها وينعقد اللسان، عادت من عند سليم خالية الوِفاض، تحمل شتاتاً مُضاعفاً، وعت ما حدث لوالدها بنصف عقل، وبدأت تَجهش ببكاء حار.

تغضن جبينها وهي تتذكر أنها السبب في موته، افترق جفناها على سواد يغشى كل شيء،جسد مُسجى وقرآن يُتلى، وصرخات تعلو وتخفُت، وتأوهات تشقّ الصدور.

مات الوتدّ، مات السند عمود العائلة وعميدها.

وفي غرفته صمتٌ مُطّبق، سكون قاتل لِفراشٍ يحوي جسداً بانتظار مراسم الدفن، غُسل وصلاة وقبر ينتظر اللحد.

صياح الحفيدات يرجّ أركان المنزل، صراخ متأوه، بحَّ له صوتهن، وكان كفيلاً بحرق قلوب الجميع عليهن.

هالة حزن غلّفت قلوب الجميع قبل وجوههن، أمّا هي؛ كان العجز حليفها في تلك المرحلة القاسية، أنفاس لاهثة ووعيٌ يُصارع غياهب الظلمات.

بين صحوة وإغفاءة افترق جفناها عن ظلام لا تدري أهو حقيقة خادعة، أم كابوس مُفزِع.

انتفض جسدها مع شهقة رعب شقّت صدرها.

هي ابنته الوحيدة، قُرة عينه، قطعة فؤاده، لم تستطع أن تُسامح نفسها، واستحضرت صورتها وهي مُسجاة بنفس الهيئة تنتظر لقاء المولى ليحاسبها عما اقترفت يداها، تأوهت بعنف وهي تُدرك ما جَنَت، وتعلم عاقبتها ومآلها.

فكيف سترد على خالقها حين يسألها: لِمَ أجرمتِ في حق الجميع ومن قبلهم في حق نفسك؟ لِمَ تركتِ شيطانك يَقودك إلى الهاوية وسرتِ خلفه مُغمضةُ العينين مسلوبة َالإرادة؟

لِمَ اتخذتِ من الحقد والغلّ والشر سبيلاً تطرقين فيه كل الأبواب التي لا تفتحَ إلا على نار جهنم؟

وتذكّرت النار ولهيبها وهي تحرق جسدها والعباد يقتصّون منها أمام رب العباد، ففزعت وانتفض جسدها بقوة لتسقط مغشياً عليها .

فور علمه بالخبر هرول مُسرعاً لدار أخيه،للمرة الأولى يراه القوم يبكي؛يبكي فقدان أخ أكبر، يبكي رحيل كبير العائلة. ويُدرِك أنه ما مُنِحَ وقتًا للتكفير عن ذنوبه وإصلاح ما قد أفسده في زمان ولّى.

«البغدادي» يرقد مسجى بلا حِراك، لا حول له ولا قوة!

ظلّ بعض الوقت جالساً قُبالة جسده، فقد أراد أن يفعل أشياء كثيرة قبل أن يودّعه، أراد أن يكون عمله الصالح في الدنيا من بعده، فهو بمثابة ولده الذي ربّاه ورعاه.

وأخيراً حزم أمره واستقام ليستعد لمراسم الغُسل والتكفين، والتي أراد أن يُشرِف عليها ويقوم بها بنفسه، ومن سواه يفعلها؟

لكنه طلب من الجميع أن يمهلوه بعض الوقت لينفرد بأخيه.

قرأ عليه السّلام، ثم تلا الكثير والكثير من الآيات القرآنية والأدعية والأذكار، أعقبها بالدعاء الطويل له والابتهال إلى الله أن يُخفّف عنه.

توسّل إلى المولى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، أن يعفو عنه ويرحمه، ويوسع قبره ويكرم نزله وييسر حسابه.

حتى إذا استحضر ما مرّ من الذكريات، ارتمى برأسه على صدره، وأجهش بالبكاء.

وأمام فِراش الموت أقسم له أن يعطي الحقوق إلى أصحابها، ويردّ الأمانة، ويُعيد لكل ذي حقٍ حقه، حتى لو على حساب نفسه.

رددها لنفسه قبل أن يُرددها له قائلًا:

-استريح يا اخوي في تربتك وربنا يقدرني أصلح كل اللي فات وأكون عملك الصالح يا واد أمي وأبوي.

رغم انقباضة صدره وهو يُردد وعده ويُكرر قسمه، ألا أنه استراح حين أعلن ما يعتزم عليه.

واختتم الأمر بتنهيدة طويلة قوية خرجت من أعماقه وكأنه أراح الراقد أمامه وحمل عنه ما كان يُثقل كاهله.

مرّت دقائق حتى استعاد رباطة جأشه، واستعد للغُسل.

***

وإني أُزاحم مرارة الأيام بحلوها، ثم أدفع أبغضها بأجملها، عسى يتقن القلب بعد الإخفاق عودة، وبعد الهزيمة انتصاراً، وها قد ارتضيت بانتصاراتي الصغيرة، فربما استطعت بها مواجهة الهزائم الكبرى.

***

احتوتها بين ذراعيها تبُثّها شيئاً من أمان وتهديها بعضًا من حنان.

-يا حبيبتي يا بنتي ياللي عمري راح من غير ما أشوفك ولا أطمن عليكي.

دمعت عيناها وهي تعتصرها بأحضانها.

-خلاص يا سندس ربنا جمعنا ومحدش هيقدر يفرقنا تاني أبدا، ربنا يقدرني وأعوضك السنين اللي ضاعت من عمرك.

رسمت سندس فوق شفتيها بسمة حزينة، فما الذي سيُعوضها عمراً رحل وعذاباً قاسته كل يوم، وجراحاً لا زالت تنزف كل حين.

ترقد بفراش المشفى وتجلس قُبالتها والدتها، تنظر إليها بحسرة وندم، بينما عينا الأم تهديانها أمناً وسكينة.

تمتمت تُحرك شفاهها:

-ماما..

والردّ كان اعتصاراً طالما اشتاقت إليه:

-حبيبة قلب ماما.

دمدمت بنشيج باكٍ:

-أنا آسفة يا بنتي على كل اللي حصل، آسفة على كل اللي جرالك، آسفة اني اتخليت عنك وسيبتك.

واهتز جسدها برعشة وازاها ألم حارق.

فأمسكت دلال بوجه ابنتها بين كفيها كأنما تستعيد ملامحه وتسترجع تقاسيمه،

فاختلطت العَبَرات بنزف فؤادٍ أدماه البُعد.

***

الحزن لا يُفاوض...لا يُقايض ...لا يُهادن.

هو كأس تدور على الجميع، عليك أن تتجرعها كاملة وحتى النهاية.

***

هي دائماً على الهامش، لم تكن أبداً فاعلاً، ولكن حين رحلت، رحل كل شيء، حتى روح الجد.

كانت تُراقب الشمس عبر فتحة صغيرة في الجدار، سترحل كما رحلت بالأمس ولا شيء يُبدد الظلام فكل القناديل فارغة وكل السُرُج جافة لا زيت فيها ولا حياة، بل ظلمة وظلام.

وهي الوردة المُتفتحة صارت شاحبة ذابلة وكأن روحها ترحل عن جسدها رويدًارويداً، دار بصرها بين جنبات الغرفة، بجبين مُتغضن تنهدت تنهيدة طويلة حين جنّ عليها الليل وأسدل أستاره، انقبض صدرها فانكمشت بجسدها وقدخيمّم الصمتُ والسكون على المكان عدا صوت الغِربان الناعق مُنذِراً بفاجعة جديدة.

لملمت طرف ثوبها وحشرت نفسها في زاوية باردة تضم جسدها بذراعيها.

تستعيذ بالله من شياطين الإنس والجن، ولم تبرح تُتَمتِم بالحوقلة والاستغفار وتتلو ما تحفظ من سور قرآنية، حتى اقتربت أصوات خُطاه التي صارت تحفظها عن ظهر قلب.

ظلت على وضعيتها تُشيّعه بنظرات قاتلة، يُقابلها هو بابتسامة لزِجة صفراء:

-البقية ف حياتك.

شهقت بصدمة ذُعر وهلع وهي تتفرس ملامح وجهه باحثة عن إجابة، دَمدم مُردِفاً وهو يهز رأسه بتأكيد:

-جدك البغدادي تعيشي أنتي.

ضمّت رأسها بين كفيها تُحاول الثبات، لكن برز الحزن رغماً عنها وهي تبتلع غصتها بمرارة.

-مات؟

لفظتها بصوت مُتهدّج بينما الدموع الحارقة تُغرق صفحة وجهها، وصدرها يجيش بهمهمات مكتومة:

-الله يرحمه مطرح ماراح بقا بكفاية حزن.

زفر بقوة وقد نفد صبره ليُردف:

-ما تحسسنيش إنه صغار ولا ما دوبش توب الفرح، دا ميت من زمان.

أشاح لها بذراعه ساخراً وتركها ورحل، وفي أذنها طنين كلماته الفجّة.

أرجعت رأسها إلى الوراء تنظر إلى سقف الغرفة بضياع.

رحل الجد، اقتنصه الموت وغادر بلا وِداع، كان لديها الكثير لتخبره به.

نثروا فوق جسده الثرى ولم يُمهلوها وقتاً حتى تضمّه تعانقه، تقبله، مُكبلة هي هنا بأغلال حِصار وعجز وهوان.

مرت ساعة بعد ساعة وبدأ يترامى إلى سمعها أصوات تُهمهم على مقرُبة منها، التقطت أذنها طرف حديث دائر لتسترق السمع إلى حوار يجري وجريمة تُعد على قدمٍ وساق،كانت سلمى تحادث والدها تخبره ما استجد من أمور.

-عملتي ايه مع أحمد المحامي؟

-كلمته وقال إنه هيوصل عشية.

-طيب تمام كدا هناخدوا حقنا مرتين مرة منه، ومرة من عيلة البغدادي.

-وهتعمل ايه يا ابوي ويا جميلة؟

ضحك بخبث وأجاب وهو يهز كتفيه بلا مبالاة:

-ولا حاجة هيدفعوا زين هترجعلهم بألف سلامة، هيعصلجوا هنريحوها.

كان لا يعي من الدنيا غير لغة المال، سار بدرب الجهل ما حاد عنه حتى وصل إلى أبواب الخطيئة ساحباً ابنته فلذة كبده إلى مستنقعه الآسن، قست نظرته واستطرد بلهجة متسائلة:

-وسي أحمد ما قالكيش هيتجوزك ميتي؟

تلعثمت سلمى وأجابت بحذر:

-أيوا يا بوي هيطلبني منك لما ياجي.

صمت لبرهة، وردّ بجفاء وغلظة:

-والله لو ما اتجوزك لادفنه حي.

خطوات كانت تفصلها عنها، لا تعرف كيف تتعامل مع الأمر أو تتصرف، صولات وجولات لأفكار تُزاحم عقلها والنتيجة صفر كبير.

لم تتقدم خطوة واحدة، رعشة طفيفة عبرت جسدها المتخشّب بجوار الجدار البارد، بضع كلمات صدرت عنهما عرفت ما ينتويان عليه وهي لا

تملك من أمرها شيئاً.

هي كعادتها لا تستطيع اتخاذ قرار، مُذبذبة إلى أبعد حد، لا تثق بحالها مثقال ذرة.

تابعت الحوار بقسمات متجهمة لتطل عليها سحابة كئيبة وازاها خوف عميق.

***

ويحدث أن؛

نقامر بما لدينا من رصيد سعادة قليل لنحصل على كل الغنائم الممكنة، فتدور بنا الدائرة لنخسر كل شيء وبضربة واحدة.

***

بحضور باهت وجلوس ملول ونظرات رتيبة تتلكّأ فوق أوجه الجميع، حضرت لتُقدم واجب العزاء ومن ثم تتعرف على أسرة زوجها.

«إيناس»

ضجر بادٍ على مُحيّاها بعد مرور دقائق في صِوان العزاء.

لكنّ نظراتها للمكان كانت تحمل الكثير والكثير، كانت تعلم أنه على الطرف الآخر هناك من يماثلها، يحتل مقعداً في صِوان العزاء وعقله يُفكر فيما تم ترتيبه.

ولكن المسار الخاطئ لن يقود إلا إلى نهاية سيئة.

دجنة أفكارهما ألقت بظلالها على المكان ليقابلها هدوء ثقيل وسكون خانق.

عاد صوت القارئ يصدح عبر مُكبرات الصوت ليُعيد الزخم للمكان.

خطوات واثقة لرجل اقترب من يحيى معزّياً هامساً في أذنه بعبارة اتسعت لها أحداقه قبل أن يجيب وهو يهم بالانصراف:

-يلا بينا.

***

-١٩-

وهاجر

حفرت حروفها

بين ثنايا قلبي..

فهاء ..

تنتهى بها حين أرى عيناكِ آهاتى ..

وألف..

أكاد أذوب إن رأيت البسمة..

تتراقص على شفتاكِ ..

وجيم..

جنون عشق اشتاق للقياكِ..

وراء..

روح تتعذب فى جحيم الاشتياق ..

ف والله أشتاق ..

ولكنى كذبت.. حين قلت..

أستطيع الانتظار

بقلم: رشا سعد

في قانون الحياة لا ضرر ولا ضِرار،

وفي قانون الحب كل شيء مُباح؛

الضرر والمَضرّة والضِرار.

***

حين جلس قُبالتها لم تكن تلك الفتاة القوية التي عرفها، الفتاة التي تحدّت الجميع واجتازت العراقيل.

كان يلمح ارتعاش شفتيها واهتزاز جفنيها بصورة واضحة، بينما تفرك كفيها بتوتر واضح.

لا تملك الفرار من حصار عينيه فتتعثر الكلمات وتتوه فوق الشفاه:

-هاجر مالك؟

ظنّت أنه قرر نيابة عنها، اتخذ قراره وأجمع أمره ولم يترك لها سبيلاً لاختيار، وإلا فلِمَ أحضر والدته وطلبت مقابلتها؟

مدّعية ثباتاً مفقوداً أجابت:

-أنا بخير ما تقلقش.

هزّ رأسه رافضاً إجابتها:

-في ايه؟ حاجة حصلت؟

هتفت باستغراب:

مفيش حاجة حصلت يا أيمن، أنا طلبت منك تديني فرصة أضبط حالي بس الظاهر إنك مستعجل على خطوة الجواز.

وأضافت بوهن:

-وأنا لسه مش مستعدة للخطوة دي!

واجهها بنبرة مطمئنة:

-أبدا أنا مش مستعجل خالص أنا بس عايز أكون جنبك وانتي بتتخطي أي أزمة غير كدا على راحتك لو عايزة تأجلي سنة أنا معاكي.

سألته بقلق:

-ووالدتك؟

أجابها برقة تُغلفها طمأنينة:

-والدتي حبتك من كتر كلامي عنك وكانت عايزة تشوفك وتعزيكي وبس.

زفرت بحزن:

-سامحني يا أيمن عارفة إنك هتتعذب معايا.

أجابها بمشاكسة:

-يا ستي أنا راضي عذبيني ولا يهمك.

ضحكت بخجل..

-لازم أكمل جلساتي مع الدكتورة النفسية عشان أقدر أكمل حياتي، فاهمني؟

أسكت قلقها وحيرتها بكلماته الدافئة:

-هتكملي جلساتك وترجعي أحسن من الأول بأمر الله وهفضل جنبك، أمن وسند وحماية إن احتاجتيهم ف أي لحظة هتلاقيني.

***

فوق أرض المعركة كل شيء مُباح، ماذا لو كانت معركة غير نزيهة؟ والطرف الخاسر هنا هو أقرب الناس إليه، إذاً فالغنيمة علقم، والربح شوك، والانتصار موت لا حياة فيه.

***

قبضته كادت تقتلع ذراعها وهو يمسكها بانفعال.

صرخت برعب فريسة وقعت في شَرك صيّادها، فشهقت تستمد بعض هواء وهي تحاول الالتصاق بظهر الفراش لتبتعد عنه،لكنه كان يحكم قبضته عليها أكثر وأكثر فتنغرس أنامله بقسوة في ساعدها ليهدر بنبرة شرسة:

-جوزك جاي ينقذك مني..

تابع بهمس كالفحيح:

-على جثتي يا ست الكل.

هربت الكلمات من بين شفتيها دون ترتيب تتوسله:

-اوعى تأذيه الله يخليك يا عع، طب انا هخليه يدفعلك كل اللي تطلبه بس فوتنا نرحل من اهنيه.

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تنظر له بيأس، واستطردت بعد حين بنبرة واجفة وانكسار موجع، بينما دمع جارح يُغادر مرفأه:

-هو ذنبه ايه؟

دفعها بقسوة، فصرخت.

صرختها نصفها تستغيث، والبقية تتمسك بالحياة.

صوتها الباكي ناشده توسّل إليه أن يرحم زوجها، تمتم بشفاه وقِحة:

-والله لامرمغ بكرامتكم وشرفكم الأرض يا بغدادية.

امتدت ذراعه تلتف حول خصرها وتشدّها لصدره، كجدار فولاذي أصم،وكفه تُكمِّم فمها بشريط لاصق، ويعود ليقيّد كفيها بحبل غليظ.

شلّها تماماً عن الحركة.

تأوهاتها التي تفيض بدموع حارقة لا تنقطع، وما عادت تملك سوى نشيج باكٍ سُرعان ما خفُت وتلاشى.

***

أنا إنسان...

هنا أكتب

هنا أبكي

هنا أجلس

هنا أحلم

هنا وهناك

فبين الأمس واليوم

ترى شتّان

هنا أضحك برغم الجُرح

هنا أبكي برغم الفرح

هنا وهناك أنا إنسان

هنا لحظاتي موجودة

وُلدت بيوم ماثِلٍ

لجُدرِ الصمت محجوبة

ولدت كأني ما عُدت

للحظةِ صدق مرجوٌ

ولدت هنا ولكني،

برُغم الحق موأودٌ

مشطوبٌ من القيدِ

مفقودٌ من القلبِ

ورغم الخوفِ قد مِتُ

منسوبًا لهذا الذي

قد كان يومًا كالأبِّ

بالاسم عمرًا فاقدِ

والروح تأبى الخافقِ

فهناك وُلِدْتُ

وهنا وُئِدتُ

وها قد مات نسبي وانطوى.

فهناك وُجِدْتُ

وهنا وَدَدْتُ

أن أرى أبي قد دنَى

أنا إنسان...

هنا كلماتي معدودة

مُحاصرةٌ ومرفوضة

مُقيدةٌ ومكروهة

مراهَنَةٌ ومغلوطة

أنا إنسان...

رُغم الماضي

ورُغم ما كان

يَملُكنِي هناك كيان

أنا إنسان

ألفت سلام

***

حذّره الضابط تحذيرًا شديد اللهجة أن يتهور ويذهب لوكر سليم وحده، وطمأنه أنه بصدد استدعاء قوات الشرطة للقبض على هذا الـ«سليم» وإنقاذ «جميلة».

لكنه لم يستطع صبراً فاصطحب اثنين من رجاله وذهب باحثاً عنه بخطوات ملهوفة، ومشاعره تُسابقه عَدْواً غير حذِر.

دفع الباب بقوّة بينما صاحبيه يحذرانه مما هو مُقدِم عليه، لكنه أوقفهما

بإشارة من كفّه آمراً اياهما بمراقبة الطريق والانتظار بالخارج، لم يجدا معه سبيلاً لإثنائه عن الأمر أو حتى مرافقته، فاستسلما ووقفا يترقبان...

أما هو؛ فتمنّى أن يراها سالمة وكفى.

تقدَّم مُتلفتاً حوله لصحن الدار؛ المكان خَرِبْ ولا أثر فيه لحياة.

خطوة.. اثنان.. ثلاثة.. وكانت المواجهة!

هي أمامه! سبقته لهفته عليها ومحاولة لإعانتها على الوقوف ونزع القيد عنها، فهتفت:

-يحيى حاسب..

لينتبه على ضربة فوق رأسه أفقدته الوعي فسقط مغشياً عليه.

صرخت بجزع وهي تحاول التشبث به والصراخ حتى يستفيق، لكن الآخر كان قد أجهز عليه بضربة أخرى واستعدّ ليُقيّده، صوتها الخافت عاود احتلال أذنيه، وشجّ رأسه بدأ ينزف بغزارة.

كانت تنادي اسمه ولا تصلها إجابة، لا شيء سوى صدى صرخاتها العاجزة، وسيل سُباب ولعنات ممن يوليها ظهره ويُقيّد زوجها.

أصابها جزع لجزعه واعتراها ضعف لضعفه، في لحظة يأس دفعته بخشونة لكنه لم يعيرها التفاتاً حتى أكمل مهمته بتقييد الغائب عن الوعي.

برق لها بغضب أخافها ووضع سلاحه جانباً قبل أن يقترب منها وكأنه ذاهب إلى نُزهة على الشاطئ!

أمسك برُسغِها بقسوة يجبرها على الاقتراب منه بجذبة قوية لا سبيل لِفِكاكٍ منها.

فكّ قيودها وتحرّك حول الفراش ببطء ماكر!

انتفضت ضلوعها ولم تملك قدرة على حِراكٍ تبتعد به عنه.

فقد كانت في لحظة بين قبضتيه!

شعور مُرجِف بالغثيان وهو يقترب منها، بينما الدنيا تدور بها فتجبر نفسها على اليقظة، فالاستسلام موت.

نظرة على زوجها المُكوّم على الأرض ودماؤه تُغرق المكان، حرّكت رأسها للخلف رافضة قُربه، لكنه رفضٌ قليل الحيلة، وأنين مُرتعِش يخرج من جوفها ينذره ببؤسها لتقول بمرارة:

-لو لمستني هقتلك واقتل نفسي.

فضمّها بتحدٍ أكثر..

زعقت بما تبقّى لها من قوة عِرض يُريد تدنيسه:

-الحقوني يا ناس غيتوني يا خلق هوووه.

زعقتها وازت سقوطها، ليلتقطها سليم بسهولة.

صوت دخيل يقتحم المكان صدر من أحدهم يأمره بتسليم نفسه ورفع يده.

بينما يرمقها سليم بعيني ذئب فرّت فريسته من بين أسنانه، ليرد بنبرة تحمل فحيح انتقام:

-والله لانتقم منكم كلكم ماتفكروش إن الحدوتة خلصت دا لسه ياما في الجراب يا حاوي.

تتالى وصول رجال الشرطة للمكان ليلقوا القبض على سليم ويقتادونه إلى المخفر.

سارعت تنتشِل الغارق في دمائه تكتم جرح رأسه بطرف وشاحها، وتربت على وجنته تُحاول إفاقته.

تقدّم رجال يحيي يرفعونه عن الأرض وقد بدأ يسترد وعيه، كانت خُطواتها نحوه إحداها حياة والأخرى موت، وبينهما سقطت في غياهب اللاوعي، ليُسدل السِتار على الفصل الأخير في حِصارها.

***

حين تمرّ على أحدهم ترفّق به، فداخل جُدران قلبه هموم لا يعلمها إلا الله وحده.

***

صمتٌ طويل وليل ساكن لدار ساكتة، لا حس فيها ولا خبر.

ولا جديد يُنتظر.

فالوضع على ما هو عليه.

الدار التي تتشبث بالبقاء حتى يأتي ربيعًا يعود لها بأنفاس الحياة.

يحيى بالمشفى وكذلك جميلة، وكل جرحه ينزف، عسى برأ لجرح القلب يحدث.

كانت تراقب الجميع وقد أمسكت بدفترها وقلمها تسجل كل شيء، ابتسامة هادئة ارتسمت فوق ثغرها، فبعد عِدة جلسات مع طبيبتها وبعض الأحاديث الجماعية بين الفتيات؛ اكتشفت أنّ لها موهبة في السرد وصِياغة العَبارات الأدبية الجميلة.

فكان خيرُ مَخرج لتلك المُعضلة.

جاورتها رُقية في جلستها وانضمت هاجر إليهما:

- ها وصلتي لغاية فين يا ثومة؟

هتفت بها رُقية بمرح.

وضعت ثومة مؤخرة القلم في فمها وضغطت عليه بين أسنانها الأمامية مستغرقة في التفكير:

-عمّتكم حُسنة لازم تتكلم وتحكي دا هيثري الرواية جداً.

وهنا قامت الفتاتان بإلقائها على الفراش وضربها بالوسائد بمِزاح.

رفعت ثومة يدها إشارة باستسلامها.

-خلاص خلاص إن شاالله ماتكلمت.

ابتسمت الفتيات بمرارة، فما يهون المُصاب الكبير سوى الاستخفاف به.

شردت هاجر قليلاً لتبث أخواتها قلقاً ينتابها:

-تفتكروا صح ولا غلط أحكي عن اللي حصلّي؟

وهنا فرّت دمعة حزينة من حِصنها لتتلقفها أناملها وتمسحها بسرعة.

أشفقت عليها رقية فضمّتها بشدة تبثها أماناً مفقوداً، فلم يعد بيت البغدادي يحمل بين أروقته ثمة أمان!

قطعت ثومة شرودهما لتذكرهم:

-سلمى اختفت فين يا بنات ؟

نظر ثلاثتهن بقلق، وعاد الصمت من جديد.

***

على بُعد خطوات كان هناك جسد مُثقَل بآثام عظيمة.

أفاقت، أحسّت بوجع لكنّها اختلت بنفسها في عزلة اختيارية تلوم، تعاتب، تحاسب، ثم تترك الدموع التي تكاد تحرق عيونها، علّها تتطهر من ذنوبها.

لفظها الجميع فلم تجد موضعاً يتقبلها سوى سجادة صلاة.

فردتها لتسجد بين يدي خالقها تطلب الصفح والمغفرة.

نفسها الغارقة في لُجّة الظلمات تُدفِّق إليها نور الحق لينير عتمة سريرتها.

كانت تجلس في موضع صلاتها بنفس مهزوزة وعيون مختنقة بالدموع، هروبها كان كاملاً دام لأيام، غاصت في نفسها حتى النخاع.

قاطع خلوتها حركة بجوارها،

جاورتها وِصال في جلستها تُتَمتِم برفق:

-كيفك يا ام جميلة؟

بهتت حُسنة من لقب كهذا! لم تُنادى به طيلة حياتها، الآن وبعدما ضيّعتها يُذكرونها بها!؟

دمدت بأسى وأسف:

-جميلة.

-إن شاء الله هترجع دارها سليمة هي وجوزها.

-يا رب. عايزة أرجع يا وِصال، عايزة أتوب.

واغرورقت عيناها يدموع حارقة.

-باب التوبة مفتوح فى كل وقت وربك رب قلوب يا خيتي.

بكت واهتزّ جسدها ورجفت أطرافها بشدة، فضمتها وصال وأخذت تُهدهدها.

-أعمل ايه عشان يسامحوني، تفتكري هيسامحوني؟

-أكيد يا حبيبتي دا ربنا غفور رحيم يبقى لازم نغفر ونسامح، بس نرد الحقوق لأصحابها، وهوني على نفسك، استغفري وقربي من ربنا رحمته واسعة وكرمه مالوش حدود، اتصدقي بنية التوبة وبنية تطهير نفسك وأهلك ومالك.

دمدمت باستغفار ونشيج باكٍ يجتاحها كلما تذكرت ذنوبها، لم تُقدم لأهلها سوى الخُذلان.

هي ذنبهم، وهم توبتها.

فزعت إلى صلاتها تطلب الرحمة والمغفرة.

***

الجدة يامنة

قالوا يا يحيى جدك مات

سندي اللى عدى واللى فات

راحت وياه أحلى حكايات

كنا فيها عايشين وذكريات

والنهاية... الجد مات

ساب لك يا ولدي ،البنات

همّ بكتافك وحتى المات

دول دمك ،ولو مش إخوات

والعمّة عامية، فى موات

قالوا يا ولدي الجدٍ مات

بظُلم أمك شاف حسابات

وغصب عنه كان السكات

خاف عليك عضّة الحيّات

والعمر راح وكأنه ساعات

وخلاص الجد مات.

ملك _ حسين

***

بين أروقة المشفى التي احتوت الجميع، يحيى بجُرح رأسه ونزيف قلبه، جميلة بضعف جسدها ووهن حملها.

سندس بعجز لسانها، وأمراض استعمرت روحها قبل جسدها.

دلال بشيبة عاجزة وإثم أوقعهم في شَرك المعصية، عُلا بجسد يكبر وعقل عاجز، وأمراض شتّى.

وقفت فاطمة تراقب مدخل البوابة الرئيسية تنتظر فارسها، خلعت عويناتها الشفّافة زافرة بهدوء بينما أناملها تُمسّد أعلى أنفها.

كانت تنتظره لتستند عليه، فما يحدث فاق كل التوقعات.

وقد حضر من بعيد قادماً بخُطى مُسرعة.

ففي المرة السابقة قاما بالحديث مع السيدة دلال وأبلغاها بما توصلا إليه بشأن سندس وأنها ابنتها التي أختفت منذ سنوات عديدة.

واليوم اتفقا على كشف باقي أوراق اللعبة؛ بعد ما علم الجميع بما فعله أحمد المحامي بتركة السيدة دلال.

لكن قلق فاطمة انعكس على وجهها وهي تقول:

- «الست دلال يا فارس عجوزة ويتهيألي ما تستحملش أخبار زي دي».

***

-٢٠-

يا شواشي النخل قولي أيه طلعك في العالي

شمس العصاري تلفحك وتهزك ريح تسقط تمرك الغالي

قاللي طبعي أرقب ولاد الاصول مقامهم عالدوام عالي

وأشوف بعيني ناس التوب مداريها ما تنكسر ولا ينحني عنقها العالي

وتتهز الشواشي أتمايل ألمح ناس قلبها من الهموم خالي

وناس التوهة وخداها لا بتحلم ولا تقول تعالو انظرو حالي

تجوع ما تشكي صابرين ما اشتكوا جوع ولا توب بالرُقع بالي

وناس تعجبك كما البدر وفعلها سو وعالناس تتعالي

وناس تاكل عيشك وملحك وتحلف إنك في الغلا غالي

تمكر تبات قلوب سودا عايزاها للصدى جالي

عرفت ليه طبعي ومسكني بعيد الخلق يحلالي؟

لا يصيبني أذى وإن ما ارتويت برضه يوم قطع السباطة يحلالي.

«شاعر مجهول»

***

ذلك الوجع الذي يسكن الروح هل يُهذبها؟

هل يُطهرها؟

هل يُحررها؟

فدروس الألم غاية في القسوة، لا تتركنا حتى تحفر أخاديد الجِراح في الذاكرة وتنحت دروب الوجع في القلوب.

وتترك العقل مُنهكاً.

***

تخلل الصمت شهقاتها المتقطعة ونهناتها المُتعثِّرة ودموع كانت تحرق فؤاده قبل عيونها،

الجميع ينتظر في بهو الانتظار.

يحيى الذي تمالك نفسه وسار من غرفته حتى وصل للرُدهة المُقابلة لغرفتها، يريد أن يطمئن عليها فتصله أنفاسها عبر فرجة باب يفصله عنها.

وِصال التي تُتَمتم بأذكار وأدعية.

حُسنة التي انكمشت في مقعدها يعلو جبهتها أسى وأسف.

فاطمة التي خرجت للتو من عندها بمُصاحبة الطبيب المُعالج.

وبفعل مهدأ حُقِن بوريدها كانت ساكنة داخل الفراش.

هموم طالت، وأحزان صالت، ومآسٍ جالت.

استأذن الطبيب ليُلقي عليها نظرة من بعيد،

وكان يمسك جُرحه النازف بقوة غير مبالٍ بالوجع.

فأذِن له، على أن يعود بعدها إلى فراشه ويستريح.

سار ببطء حتى اقترب من جسدها المُمَدّد، لقد كادت أن تفقد جنينها. اجتاحت وجهه صدمة عنيفة وهو يرى شُحوبها، نزفت كثيراً المسكينة.

أمسك بأطراف أناملها، قبض عليها برفق وهو يُتمتم:

- سامحيني يا جميلة ما عرفتش أحميكِ من الديابة، كنت أضعف من أني أكون سندك وأمانك.

وأردف بصوت مُتحشرِج:

- لو جرالك حاجة مش هسامح نفسي العمر كله.

ظل ممسكاً بأصابعها قليلاً حتى تقدمت منه فاطمة تربت على كتفه وترجوه أن يذهب ليستريح.

أفلت أصابعها من بين يديه وتحرّك يجر أقدامه جراً، مرّ بعمته وصال فنال منها دعوات مباركات، أما حُسنة فكانت تدفن رأسها بين كفيها، لا تغادر عيونها أرضية المكان، يغمرها خزي كمن ناء بإثم عظيم.

احتضنتها وصال تواسيها فالجميع ينظر لها بلوم ويُحمّلها مسئولية ما حدث، لتبثها كلمات مطمئنات لفؤادها مهدئات من روعها:

-استعيني بالله يا خيتي وارمي حمولك عليه إن شاء الله جميلة هتقوم بالسلامة وترجع تنور دار البغدادي.

وخزتها الكلمة.

«البغدادي»

الأبّ الذي مات بحسرته وحزنه، بل وخزيه مما حدث.

الأب الذي رحل ولم يسامحها ولم يعفُ عنها.

الأب الذي لم يمنحها الزمن فرصة لإرضائه.

مات قبل أن يرى تغيُّرها ورجوعها إلى طريق الصواب.

همهمت بحزن:

-البغدادي مات وهو غضبان عليا يا وصال، مش قادرة أنسى نظرته ليا قبل ما يموت كان خزيان من اللي سمعه، نظرة كلها تأنيب وعتاب، كأنه بيقوللي ليه عملتي فيا أكديه ليه حملتيني عارك وأنا حي ولحد ما أموت.

وانخرطت تبكيه على ذكر الموت، مسّدت وِصال رأسها بحنو:

-لا يا حُسنة بيدك تخليه مرتاح ف تربته وراضي عنك، لما تتغيري وترجعي لربك تطلبي منه التوبة والعفو، تردي الحقوق لأصحابها وتكفّري عن ذنوبك وظلمك للي حواليكِ، صدقيني لازم تسامحي نفسك وتتصالحي معاها عشان اللي حواليكِ يسامحوكِ وأبوكِ يرضى عليكِ.

تنهدت حُسنة بزفرة راحة مشروطة كانت تريد أن ترتاح ولو باعترافها بالإثم. بدت حشرجتها منطقية وهي تحاول التشبث بالأمل. كلما أرادت النطق عجزت، وكلما تمسكت بكلمة خانتها لتخرج مُبعثرة مُبهمة لا معنى لها، فبدا كلامها هذياً.

مسحت جفونها بقسوة وكأنها تجلد ذاتها جزءً جزءً. احمر وجهها وكادت تفقد أنفاسها، فأشارت لوصال أنها تُريد هواء.

صرخت وِصال تطلب الطبيب فهرع الجميع نحوهما.

الممرضة وفاطمة التي لم تكن غادرت المكان بعد، ويحيى الذي لم يكد يصل إلى فراشه حتى سمع صرخة وصال فظنّها تستغيث لجميلة.

جهاز التنفس الصناعي وجرعة دواء تضبط ضغطها، وغُرفة باردة، ووجوه تُطالعها، كانت ضائعة تبحث عن أمان.

تائهة تبحث عن طريق.

اعتدلت بهستيرية تطالبهم بالبقاء.

فلديها ما تقول...

على بُعد خطوات وفي نفس المبنى، امرأتان باعدت بينهما السنوات والمسافات وفرقتّهما الأحداث والحكايات ليلتقيا ذات رحمة ولطف من الله.

سندس ووالدتها التي أقسمت ألا تتركها مرة أخرى فطلبت من الطبيب مرافقتها وضمّ الصغيرة «عُلا» بغرفة مجاورة، بعد أن اكتشفت فاطمة أن أحمد

المحامي قام بخدعة وارتدى ثياب طبيب ليحصل على توقيع سندس على أوراق كثيرة.

وضعت إمضائها ولم تقرأ حرفاً.

ورقة توكيل لمكتبه بالتصرّف في ميراثها.

ورقة تنازلها عن نصيبها من التركة.

ورقة توكيل عام له بالتصرف في ممتلكاتها.

ثم ورقة تضم توقيع شقيقاتها لرفع قضية حجر على والدتهم!

المرضة التي شكّت فيه أبلغت الطبيب بارتيابها وما كاد الطبيب يصل، حتى كان أحمد خارج أسوار المشفى كله ومعه أوراقه.

أبلغ الطبيب فاطمة بما حدث، ومن ثم عرفت السيدة دلال أن ابنتها أصبحت مُستهدفة فخافت عليها وقررت البقاء معها بغرفتها.

كانت تُحدّثها طويلاً ولا تتلقى أي رد.

إيماءة برأسها بالنفي أو بالإيجاب.

ابتسامة باهتة لا تملك غيرها

وفقط.

- ماتخافيش يا حبيبتي هفضل جنبك ومحدش هيقدر يهوب منك، ولا يهمك تغور الفلوس وتغور الأملاك يا ريتهم ماجم وكنا عشنا العمر كله

سوا وماكنتش اتحرم منك ولا اشوف اليوم اللي إخواتك يعملوا فيا كده، باعوني بالساهل عشان الفلوس الله يقطع الفلوس ويقطع سيرتها.

***

كان مشهد عبث وكأنها تحكي عن قصة خرافية..

حكت وحكت وحكت.

كل تفصيلة وجع، كل حدث مُفجع.

فقط لتهدأ، لتزيح ذاك الثقل الجاثم فوق صدرها.

كامرأة تأتي من الأدغال تأكل البشر تبتلعهم أحياء بجرعة دماء، الدماء تقطر من كلماتها تكاد تنزف من بين شفتيها، يديها التي تُغرقها الدماء، كانت نبرتها تقترب من اليأس تستحلفهم أن يصغوا لها، كل هذا وأكثر من بشاعة ما تحكيه، كيف دبرت لقتل رضيع، كيف خططت لتُعذِّب أمه وتحرمها منه، كيف كانت لا تُفكِر إلا بالمال والأملاك والأرض والشركات، السطوة والنفوذ وعبق القوة الذي لا يُقاوم.

كيف استأجرت من يقتله بعد أن كبر وتزوج ابنتها، كيف ساومت لتستولي على أموال عائلة والدته، كيف ضحّت بإنسانيتها مقابل بعض وعود زائفة وأحلام مستحيلة.

كانت كلماتها تركض وبين جملة وأخرى، تيه لا يُدرك منتهاه.

دقيقة كاملة مرّت بعدما صمتت، لا أحد يملك رداً على ما قيل.

أنفاسها التي تسارعت بدأت تهدأ بينما ظلّ الجميع يرمقها بنظرات تختلط بين لوم وعتاب، عطف وشفقة، غضب وكراهية.

***

وجهها باهت رغم ما يملأه من مساحيق باهظة الثمن.

أتاها صوته خشِناً فأجفلت.

تريد السيطرة على كل شيء، تخطط، تقرر، تأمر،

وعليه التنفيذ.

زينة مبالغ فيها وحُلي تغطي صدرها وتملأ ذراعيها وأصابعها بشكل مّفرِط.

كل شيء في علاقتهما زائف، السعادة زائفة، الفرحة زائفة، حتى الشغف زائف.

لكن العجيب، أن يكون النقاش والحوار زائف أيضًا!

أوكلما ازداد المرء سوءً في أعماقه، كلما حاول تجميل ظاهره، وتبرج في إبراز مفاتنه حتى يُداري القبح الذي بجوفه!؟

ضحكة ساخرة أعقبتها بسؤال مُتهكِّم:

- وإيه قيمة الورق اللي دفعت فيه كل دا للمحامي أحمد؟

زفر بغيظ ولم يُجب.

- احنا كنا نقدر نضغط عليهم بحاجات أهم من كدا.

أمسك ذراعها بخشونة مُمرراً حنقه ونفاذ صبره:

- أي نقطة ضعف لازم نلعب عليها ومانسيبهاش.

صمت قصير حصل عليه للحظات قبل أن يصله ردها البارد:

- مافتكرش دي حاجة تستاهل.

أطلق شهقة ساخرة وازت نبرته المُهدِّدة:

- يا سلام وعرفتيها لوحدك؟ يا إيناس ارحميني الله لا يسيئك وسيبيني أشوف مصالحي.

ازدردت ريقها ببطء وتمتمت ببرود مميت:

-أما نشوف.

قرر «سعد» التوجه إلى المشفى ليعرف ما يجري.

بين أروقة المشفى كان يبحث عنهم حتى عثر على يحيى، وكانت المواجهة:

- مرحب يا واد عمي.

- مرحب بيك يا يحيى حمدالله على سلامتك وسلامة جميلة.

- الله يكرمك يا خوي.

عيناه تراقبانه بحذر وهمس بخفوت:

- ماتفوتك من دا كه يا واد عمي وتسيب الجمل بما حمل وتنفد بجلدك.

- كيف يعني يا سعد؟

- هشتري منك البيعة كلها الأرض باللي عليها واكتب الرقم اللي ما تحلمش بيه.

ذُهِل يحيى مما يسمعه ولم يجب، فأردف سعد:

- دي شركة كبيرة ليها فروع ف كل العالم وبتعمل منتجعات وقرى سياحية في الأماكن المميزة والواحات، مفيش أجمل منها.

- واخواتي وامي وعيلتنا هنروح فين ونسيبوا أرضنا وحالنا ومالنا!؟

كان يحيى مبهوتًا مما يسمع، ألهذا عُدت يا سعد؟، ليتك ما عدت.

نظر إليه لثوانٍ ولم يُعقِّب، وبدون تعليق أو حتى إيماءة تركه ورحل.

***

حين تعرّت الحقيقة وفضحت الجميع؛

جرائم ...ضياع ...واقع قاسٍ،

وصراع بين ماضٍ ملأه الحقد والشر،

وحاضر يسيطر عليه القلق والحذر،

ومستقبل غامض لا وضوح لرؤية فيه،

بل كل شيء مشوش؛

الأفكار.. الحقائق.. الحلول.. النتائج.

تعثر هارباً يكتنفه وازاه تمتمة بها مزيج متوازن من الضعف واليأس:

-لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

ظل يرددها حتى هدأت نفسه واستكانت روحه.

هرع إلى المسجد ليؤدي فريضة الصلاة، يسجد بين يدي مولاه، يدعوه أن يلهمه الصواب ويهبه الثبات ويرزقه حسن التصرف، فليس لها من دون الله كاشفة.

غادر المسجد والمشفى، يسير بخطوات رتيبة هائماً على وجهه وفي طيّات قلبه جزع ووهن لا يعلمه إلا الله.

توقفت خطواته أمام بيت عمه الشيخ شيخون، كان مُتردداً في طرق الباب، فهل يلتجئ إلى من يُكبله؟

سعد الذي فند أوراقه وكشف عن خططه، ولم يترك له فرصة اختيار.

هو الآن بباب والده، فهل من مَخرج؟

كان فكره مُذبذب وعقله مُشتّت، يبحث عن حل لمعضلة وضعه فيها العائد منتظراً ردة فعله.

تغضن جبين وصال حين رأته بحالته المُزرية بادياً على وجهه الإعياء وملامحه كساها الأرق، وجهه صار شاحباً، يحمل تحت عينيه هالات سوداء من قلة النوم.

تراجعت قليلاً لتجبره على الدخول. فقد كان رافضاً وبشدة.

- تعالي يا عمة نتحدث في الهوا أنا مخنوق.

- ادخل بس يا ولدي طُس وشك بشوية ماية واتوضى وصلي لحد ما أجهزلك لقمة ونقعد نتكلم، شكلك تعبان وما كلتش.

الرد لم يُناسب حنانها، بل صرخ بقهر:

- سعد هنا ولا مشي؟

- لا سعد مش موجود هو اتحدت معاك؟

أشاح ببصره وغصة تملأ حلقه ليهز رأسه بايماءة عاجزة.

صوته اقتحم المكان، ليجذب يحيى نحو الدار ويُدخله عنوة:

- اتفضل يا عم يحيى أدخل هو أنت غريب؟

جرّه أكثر وأردف:

- عشان نكمل كلامنا يا ريس.

ابتسامته اللزجة ودجنة عيناه مررت غموضاً عرفه يحيى ولاحظته وصال قبل أن تهم لتترك لهم ساحة النقاش.

- هعملكم كوبايتين شاي عقبال ما الغدا يجهز لأني مش فاهمة حاجة.

واجهه سعد بتحفز.

- ها فكرت؟

نظراته السامة نحو يحيى تُمزق الهواء بينهما، عيناه يترقبان بعنف لا يخلو من صدمة.

- فكرت ف إيه يا سعد؟ على جثتي يتباع قيراط واحد من الأرض.

- مغفل.

هدر بها سعد ساخطاً بنبرة حملت كل معاني القسوة والجبروت، أخرج لُفافة تبغ ووضعها بين شفتيه بمكر وازاه استهجان.

- شوف يا يحيى سواء وافقت ولا رفضت هناخد الأرض وهنعمل المشروع.

ثم أردف بنبرة مُهددة:

- فخليك لطيف كدا وحلو ومشّي المصلحة دي وكله هيتعشي ويبقى تمام التمام.

كاد يحيى أن ينفجر، واشتعل سعير غضبه:

- دا ف أحلامك يا باشا ويا أنا يا أنت.

- طب لمعلوماتك، أوراق تركة والدتك وعيلتها معايا وتوكيل عام وطلب قضية حجر على الست دلال وكل الورق اللي كان مع المحامي بقى معايا.

استدار يحيى في مواجهته ليصرخ في وجهه:

- حيوان.

-تؤ تؤ تؤ إيه الألفاظ السوقية دي؟ شوف بجرة قلم ممكن أبيع كل حاجة وأحجر على الحجة الكبيرة.

اجتاحت وجهه صدمة ولم يستطع الرد فأردف سعد:

- على كيفك يا واد عمي لو حبيت تدخل معانا شريك بالأرض أنا تحت أمرك.

كانت أنامله تفرك جبهته بتوتر لكنه لم يردّ، فاستغل سعد الفرصة وأكمل:

- حمايا عضو مؤسس في الشركة واختيار الواحة كان بناء على تقارير وتوصيات ودراسات جدوى كتيرة المكسب مضمون صدقني ومعانا هتبقى كسبان كسبان.

ثم ضيّق عينيه بخبث واضح ليصدح صوته من جديد:

- أما لو حبيت تقف في وشنا فسامحني.

وقلص ما بينهما بخطوة واحدة ليقترب منه أكثر ويضيف:

- هيتنفذ مهما عملت.

أمسك يحيى بكتفه وضغط عليه في تحذير شديد اللهجة:

- دا تهديد صريح بقا يا واد عمي.

أومأ موافقاً بتحفز دون مواراة.

-اعتبره نصيحة أخ أكبر بلاش تقف ف وش الريح يا شاطر هتقلعك.

تحفز يحيى وكأنما يستعد لمعركة لا سبيل فيها سوى لنصر، فالهزيمة غير متاحة.

هتف بعد صمت وقد حرر زفرة حارة:

- كتر خيرك يا خوي بس نصيحتك مرفوضة وتهديدك الرد عليه هيوصلك قريب قوي.

دمدم سعد بغضب:

-غبي غبي غبي.

غبي زي الباقين للأسف مافيش حد ذكي في العيلة دي أبداً.

وقبل أن يتركه اختتم المشهد بصفعة قوية على شكل جملة صغيرة:

-كفاية تكون أنت أذكى أخواتك.

كان زعيقه حاداً يصُم الآذان، لتهرول وصال نحوهما بهلع وخوف من اشتباك محتمل ومُشاحنة أخذت منعطفاً خطيرًا.

سعد كانت عيناه مظلمة كقبر لا حياة فيه، كل ما فيه بارد جامد قميء، ونظرات يحيى تحمل ازدراء، استدار عنه ليوليه ظهره. تركه ورحل ليفند الأمر خلال طريقه إلى البيت.

فحصول سعد على كل أوراق اللعبة كارثة لا حل لها إلا فرج المولى، كان كمن يُحرك رماد الأمس، فغافله بجذوة فاشتعل.

***

الأيام طاحونة الحياة، تدور بنا بلا كلل ولا ملل.

وحديقة الشوك ورودها سوداء قاتمة لا حياة فيها.

لا ثمار ولا أزهار، كلما مرّ أحدهم بها أودعها أحزانه،

وكلما كثرت الأحزان؛ كلما زادت رقعتها.

***

ارتجفت شفتاها رغماً عنها.

تقدمت خطوة منها وهمسٌ متهدِّج بنشيج باكٍ لم تستطع الإقلاع عنه حتى أدمنته،نبرتها التي بُحّت وتاهت في غياهب الحزن، لا تسعفها الكلمات، همست:

- بتي.

قبضت أناملها على بطنها تتوسله الصمود، فهو آخر ما تبقى لها.

خلف غلالة الدموع كانت نظراتها جامدة، لتردف مرة أخرى من قلب أمّ:

- سامحيني يا بتي، سامحيني عشان أقدر أسامح نفسي.

لم تكن تملك صبرًا للاستماع إلى المزيد من هذرها، ضمّت رأسها بين كفيها ولم تردّ.

خرجت حُسنة تجرّ أذيال خيبتها، وأدركت أن المعركة طويلة.

أما جميلة؛ فكانت ترى بين هذيانها، صورة والدها والدماء تغطّي جسده ووالدتها تقف من بعيد بابتسامة شامتة.

جدها يقف باكياً، يفتح ذراعيه لها فتركض باتجاهه، تقترب منه، وعندما تلمسه... تجده سراب!

***

ويصدح مجدداً صوت «هلال» المجذوب

وبعد الغياب والعذاب

راجع ليه يا خسيس

جاي ف فرح وهنا

ولا جاي تبيع الرخيص

والغالي مالو ثمن

والنور يدوبك بصيص.

-٢١-

هل تُرانا نلتقي

عَلَّ لقيانا قدر

أفلا تُرى أنَّا

كُنا هُنا

بذاتِ يومٍ مقدرًا

هل وُجدنا ذا أثر

أم أننا...

قد نلتقي أو نندثِرْ

هل تُرَانا نلتقي

بعد الغياب... بعد الذي

قد صار منا فيما مضى

أم أننا...

قد نكتمل أو ننشطِرْ

هل تُرَانا نلتقي

رُغْمَ الضباب...

أم أننا...

قد نُصْبِحْ سراب

هل تُرَانا نلتقي...

ف عندما يَحِنْ اللقاء

عندها يدنو الأمل

وَتعاهدنا

عَلَّ

الغيوم قد تختفي

وَيَحِل بعد الغيم صيبًا

ترتوي منه القلوب وتزدهِرْ

عَلَّ

الخريف قد ينجلي

وَيهب بعد الريحَ ربيعًا

تزهر معه السنين

والعمر قد نَضَرْ

عَلَّ

الليل قد ينطلي

ويضيء بعد العَتْمِ نورًا

ينتشر

ويصير ضوء الشمسِ سرمدًا

هل تُرانا نلتقي

«ألفت سلام»

***

عندما نحب نخاف، وعندما نخاف؛ نتصرف بحماقة. وبين الخوف والحماقة تضيع المشاعر لنسقط في متاهة، ليس خوفاً من درب مُوحِش ولا نهاية مُظلمة، لكنه الرعب من طريق خاطئ ودرب مُضِلّ.

***

وقفت في شرفتها تراقب البوابة تنتظر قدومه، انتصف الليل ولم يعد ككل ليلة، يتأخر، يهرب من الجميع.

التمعت عينيها بوهج حنان دافق وهي تلمح سيارته تمر عبر البوابة الحديدية.

هبطت الدرج نحوه بمزيج من قلق ولهفة، فبادرها مستنكراً استيقاظها لوقت متأخر كهذا:

- هاجر؟إيه اللي مصحيكِ لحد دلوقت؟

فركت كفيها بارتباك وتوتر:

-قلقانة عليك يا يحيى!

-ليه؟ هو أنا عيل صغير.

دمدم بها من بين أسنانه كأنما يقطع عليها طريق النصح، تابعت خطواته قليلاً ثم توقفت وقررت ألا تتركه.

- أنت راجل يا خوي وطول عمرك مراعينا وجه الوقت اللي لازم نقف جنبك ومانتخلاش عنك.

- أنا زين يا هاجر خلي بالك أنتِ من نفسك ومن أخواتك.

-عمرنا ما هنبقى كويسين وإحنا بعاد عن بعض وهيا دي الفرصة اللي مستنيها واحد زي سعد عشان يدمرنا.

بُهت يحيى فلم يكن يعلم أنهم عرفوا ما جاء به سعد، هزّت رأسها إيجاباً وكأنما قرأت أفكاره.

- البلد كلها مالهاش سيرة غير الموضوع دا.

- والله؟ ورأيهم ايه؟

- المهم رأيك أنت.

تنهد بألم وزفر زفرة حارقة.

- والله يا خيتي مانا عارف أبيع وأشتري راحة بالي، ولا أحارب وأقعد لحد ما أفوز على شرهم.

سارعت تطمئنه:

- لازم تحارب يا خوي وكلنا معاك أوعاك تتنازل ولا تستسلم، والحرب دي ماينفعش تكون فيها وحدك لازمن كلنا نكون معاك.

- كيف؟

- هقولك، لازم سعد وغيره يحس بقوتنا وإننا يد واحدة ماهيقدرش علينا.

ابتسم لها موافقاً:

- صح.

فأردفت:

- روح هات جميلة وعمتي حُسنة وسندس وجدتك، هاتهم كلهم أهنيه في دار البغدادي.

- حاضر يا هاجر.

وقبل أن ترحل سألها:

- طمنيني على اخواتك وثومة أخبارها إيه؟

ابتسمت بحنان.

- كلنا بخير يا خوي اطمن، أما ثومة بقا فانسى يا عم دي بقت مؤلفة وكاتبة، تخيل بتكتب رواية سميتها «البغدادلي».

ارتفع حاجباه بدهشة للحظة قبل أن ينفجر ضاحكاً:

- الله يرضى عليكم يا حبايبي، على فكرة الواد أيمن دا أمه داعية له.

واقترب يربت على كتفها واستطرد:

- كفاية إنه هيتجوز واحدة زيك قمر البغدادية كولاتهم.

ابتسمت خجلاً ونظرت إلى الأرض تُواري حُمرة خديها.

- لساكِ خدودك عتحمر يا هاجر.

ضحكا كثيراً ثم توجه كلٌ منهما إلى غرفته.

رفع عينيه إلى السماء وهو يفتح نافذته وقد زينت صفحتها بعض النجوم المُتلألأة وكأنها لوحة عبقرية من صنع الخالق عز وجل.

***

لا تُخذل قلباً طالما وثق بك.

***

أفكارها تتصارع، لا تكاد تهدأ حتى تتشعب في متاهات عديدة، لا تفعل شيئاً سوى التحديق بسقف الغرفة.

خطت نحوها بتردد وتعثر وهمست بصوت متخاذل بضعف أمّ:

- جميلة.

وتمد يدها تحاوطها بين ذراعيها تربت عليها، نظراتها مغمورة بالأسى والأسف، تُبدي ندماً وتسحق ماضٍ كان القاسم الأعظم فيه للشر والكراهية.

التفتت إليها بنظرة ملأتها الحسرة، لتهمس بنبرة مختنقة:

- سامحيني يا بتي.

ولّتها ظهرها لكنها كررت العزم كما قررت التوبة، كانت تتخبط كطير ذبيح يتشبث بالحياة قبل أن تغادره الروح ويُنتزع منه الوجود، ولا يكاد يقوى على الصمود.

أنفاسها المتلاحقة خذلتها لكنها تماسكت، دمعت عيناها بقوة وأكملت:

- سامحيني عشان ربنا يسامحني.

لم تكد تُكمل جملتها حتى انخرطت جميلة في بكاء حاد وهتافها وسط شهقاتها الباكية يخلع القلوب خلعاً.

- أسامحك على إيه ولا إيه ولا إيه؟ أنتِ ما سيبتليش فرصة واحدة عشان أسامحك.

كانت دقات قلبها الهادرة تصُم الآذان.

فأي جُرمٍ ستغفره؟!

وأي خطيئة ستعفو عنها؟!

وأي ذنب ستتجاوزه؟!

ازدردت ريقها ببطء وهي تتذكر تفاصيل مأساتها لتضيف بنبرة باردة:

- فات الآوان.

لكن أمها هتفت من بين دموعها:

- جيبتي منين القسوة دي كولاتها يا بت بطني!؟

وما كادت تنهي كلمتها حتى اشتعل غضب الأخرى لينفجر شلال هادر فقدت كل تعقل وصرخت زاعقة:

- بت بطنك؟

وهناك أسئلة لا يجوز معها إلا الصمت.

أجفلتها لترتد الأخيرة مبتعدة بعد اقتراب، تحاول النظر إليها ولا تراها، توسلتها بعِشرة، بقرب، بحب، برابطة دمّ، برحم حملها.

توسلتها هذه المرة أن تصفح عنها بعد ما خذلتها.

خذلتها بكل ما تحويه الكلمة من ألم ووجع.

من انهيار وسقوط.

من قهر وذل.

أمها خذلتها. اعترافها بخطاياها كان مُباغتاً.

راحة ضمير ربما ....هداية بعد ضلال ...عودة بعد تيه.. نجاة من جُبٍّ عميق، أو مُناورة؟

أيعقل أن تكون .....

لا لا لا نفضت الفكرة من رأسها.

شردت جميلة تحاول البحث عن سبب تفند الأدلة وتبحث فيها، تدحض البراهين ،وبالنهاية هي مُنهكة ولا جواب.

استدارت في مواجهتها بحزم صارم، هتفت:

-ماينفعش.

حسمها بتر كل شيء، لم تلن ملامحها بل انعقد حاجباها بقسوة تناقض طبيعتها الرقيقة،

أما الأخرى فدارت بها الأرض، انهيارها بات وشيكاً بل مُحتّماً بعد ما سمعت ورأت

ابنتها ترفضها.

أمومة منحورة، وتوبة غير مقبولة.

***

لكل معركة جنودها، ولكل حرب ضحاياها، ولكل نزال خسائره.

الصراع يدور، لكن العواطف لا تقبل المساومة، الخيارات التي نضعها دائماً نصب أعيننا قد لا تكون بإرادة منا، قد يسيطر عليها القلب. أما إذا تدخل العقل فنحن إذاً في ورطة قد تنتهي بخسارة فادحة.

***

جلست شاردة أمام طاولة زينتها، صفّفت شعرها على مَهَل، غمرت جسدها بعطرها المُفضّل، تحاول لملمة أشلاء عقلها وتُحكم السيطرة على ما تبقى من فُرص متاحة.

وقف أمامها يكتف ذراعيه بحنق، هو اختار طريق الضلال، ومعها لا سبيل لتراجع ولا مجال لاعتراض، طريق ذو اتجاه واحد لا عودة منه.

تريد استئجار قاتل محترف يقضي على يحيى فيتخلصا من كابوسه المزعج ويخلو لهما المجال لفعل كل شيء وأي شيء.

لكنه لن يتورطّ في الدماء، كفاه ما ناله من شؤم معاصٍ وذنوب أوجعته.

فلا يزال به بقية من ضمير ينبض، وهي تريد وأده.

- وبعدين؟

هزت كتفيها بعدم اكتراث:

- ولا قبلين يا سعد هو لازم كل تصرف يكون له تفسيراته وتبريراته؟

كتف ذراعيه بغضب.

- طبعا والا ماتبقيش إيناس المسيري.

كان ينظر إلى عينيها بثبات يحاول أن يبحث فيهما عن أي شيء حقيقي ولا يجد غير الزيف،

فحيح أفكارها السوداء يكاد يصل إليه دون أن تنطق.

وهدير عقله الذي كان يروّضه بالحيل والألاعيب بدأ يتمرد ويعاود الصراخ أن كفى.

توجه ناحية الحمّام المُلحق بالغرفة ليضع رأسه تحت شلال مياه بارد، ثم استقام ينفض رأسه من الأفكار القاتمة التي تكتظ بها قبل أن ينفض قطرات المياه.

هرولت إيناس ناحيته بعاطفة مشبوبة وحنان متكلف، وفي قفزة واحدة كانت أمامه قاطعة المسافة التي تفصلهما في خطوة واحدة.

سحبت منشفة كبيرة لفت بها رأسه وبدأت تُجفف شعره رويدًا رويداً وهي تقول:

- زمان ماكنتش بتبص لي البصة دي كنت دايما مبهور بدماغي.

نظرة استخفاف رمقها بها من بين طيّات منشفتها أعقبتها ضحكة ساخرة.

- مبهور حتة واحدة.

همست بتشتت:

- للدرجة دي ماكنتش فاهماك؟

اتسعت ابتسامته بسخرية أكبر.

-لا العفو بس جايز فعلا كنت مبهور بشيطانك.

سحب رأسه بعنف مبعداً أناملها عنه وبسرعة كور المنشفة وألقاها أرضاً.

نظر لها بثبات عظيم ودهس المنشفة بقدمه كأنما يطحن عقب سيجارة منتهية، صرخت بانهيار بعد طول تظاهر بثبات وهي تلوح بذراعيها وهديرها العاصف يشق أركان المكان:

- ماتنساش نفسك يا سعد وماتنساش أنت كنت إيه وبقيت إيه؟

صمت مطبق وجسدان متجمدان وأنفاس متلاحقة، بينما العيون مشتعلة.

رجل وامرأة استحوذ عليهما الشيطان نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

خرج صافقاً الباب خلفه بعنف بعد أن أرسل لها جملة واحدة صريحة واضحة كالشمس:

- مش هتورط في دم يا إيناس ولو فيها موتي يا بنت المسيري.

تركها وابتعد بخطوات غاضبة بينما هي تحاول كبح دموعها ففشلت لتنزف الدمع بلا توقف.

***

نصمت إن ضاقت بالصدور حروف الكلام. إن علمنا أنه لا طائل من وراءه ولا أمل في تغيير.

يكون الصمت لِزاماً علينا إن أيقنّا أنه لن يفي، بل لميعدُد يكفي.

***

وإذا أحببت فانتظر الألم، حبتها بضمّة وقُبلة دافئة وأراحت رأسها فوق صدرها.

أوجعها قلبها عليها، كل ما فيها واهن لا يكاد يُقيم أود فؤادها.

الفؤاد الذي بات مُكبلًا بالماضي، مُعضلة كبيرة لا مُساومة فيها تنفع ولا مفاوضة معها تشفع.

كل دموعها لم تسعفها الآن، سوى دمعة فرت من سجن أجفانها لتستقر على جانب شفتيها، لحظة دخول يحيى لتمتد أنامله تمحوها برقة.

همست جدته:

- كويس إنك جيت يا ابني كنت عايزة أتكلم معاك.

قبّل رأس جدته وانحنى يلتقط يديها ليقبلهما بعطف وحنان.

- تحت أمرك يا جدة اتفضلي.

- دلوقتي يا ابني والدتك لازم تاخد فلوسها وميراثها ونعوضها العذاب اللي شافته.

نظر إليها مذهولاً فهو يعلم أن المحامي استولى على كافة أوراق التركة.

تابعت جدته بثقة:

- ماتخافش يا حبيبي أنا لسه مصحصحة ما عجزتش.

ابتسم مداعبًا:

- سلامتك يا جدة ربنا يبارك في عمرك بس أنا مش فاهم.

- شوف يا يحيى ميراث سندس وعُلا أنا كنت مخبية عن الكل أني أمنته لهم، حولته لفلوس سايلة وحطيته وديعة باسمهم في البنك ومفيش مخلوق يعرف حاجة عن الكلام دا لأني كنت خايفة عليهم من طمع أخواتهم.

ضحكة رائقة من السيدة دلال لطفت الأجواء المشحونة.

ويزداد اتساع دهشة سندس مما سمعت فجيعتها في أخوتها لا تقل عن فجيعتها في أهل زوجها.

نظر لها يحيى نظرة مشفقة ليربت على وجنتها ويقول بلطف:

- ها يا سندسة هتاخدي الفلوس وتبقي غنية ومحدش هيعرف يحدتك بعد إكديه.

نفت ما قاله بهزات رأسها المتتالية وهي تشير لوالدتها بالرفض!

نعم، لقد رفضت سندس ميراثها الذي تقاتل عليه الجميع! أشارت برأسها لأختها عُلا المريضة بما يعني أنها تركته لها.

حاولت والدتها أن تتحدث لكن يحيى قطع عليها الطريق قائلاً:

- يا جدة أمي ما عيزاش فلوس تعوضها اللي راح، أمي محتاجة حب ودفا واهتمام اتحرمت منه العمر كله.

واستطرد يُمازحها:

- وبعدين دا غلط كبير قوي ف حقنا أحنا حدانا اللي يكفينا وزيادة ولا مستقلين بالبغدادية؟

ضحكت جدته وشدت على يديه بامتنان بينما جذبته سندس إلى حضنها وضمّته بقوة وكأنها تحييه وتشكره على ما عبر به من كلمات ودّت لو نطقتها.

حاول ترطيب القلوب الملتهبة والمشاعر المُشتغلة مُمازحاً:

- يلا بقا نستعد كلنا، سندستي وجدتي وعلا عشان هنروح دار البغدادي.

أهدته صبر الكلمات بين صدق نظراتها وحروف عجزت عن النطق بها، نظرات مستفهمة من الجميع، رد عليها بحزم وحسم:

- ما قادرش تبعدوا عني أكتر من إكديه هاروح اتكلم مع الدكاترة عشان نخلص الإجراءات ونظبط المتابعة المستمرة ما تقلقوش.

ورحل مخلفاً عاصفة من بركة ورحمات تترى وقلوب تدعو له بصلاح الحال وراحة البال.

***

إن اخترت بمِلأ إرادتك الحياة فلتسعى للنجاح.

***

دار بعينيه متفحصاً وجوه الجميع حتى استقرت على عيني سعد اللتين بادلها العداء،بينما سعد يضيّق عيونه بنظرة متوعدة قابلها يحيى باستهانة وعدم اكتراث.

- مفيش بيع ومفيش مشاريع يا سعد ووجودك بصراحة مش مرغوب فيه.

زفرته الساخطة تلاها صمت طويل قبل أن يصرخ سعد بغضب ويهتف حانقاً:

- وأنت بقا اللي هتمنعني يا حيلة أمك؟

مطّ شفتيه باستياء وهو يشير إلى الحضور:

- إسألهم.

كانت عيناه تتسعان بترقب مشوب بالقلق، يتأمل الجميع بنظرات غامضة، نظراته المُشتتة بينهم كانت منتشية بقسوة، ليعاود امتلاك زمام الأمور مرة أخرى.

***

-٢٢-

«ضاقت ولما استحكمت حلقاتها فُرجت،

وكنت أظنها لا تُفرجُ.»

***

مجلس كبير انعقد في مكان فسيح ليضم الجميع.

مُفاوضات وثَرثرات، وصوت باهت ركيك

بل ماكر داهية خبيث... تعددت المسميات واللقب «بغدادي صغير»

ضاقت عيناه بشراسة وهو يزعق بها

-ها قولتوا ايه يا رجالة؟ أنا أضمنلكم أعلى سعر واللي يحب يستنى ويتشارك معانا أهلا وسهلا ومرحبة به

-يعني انت شايف ان دا الصح يا سعد؟ نبيعوا أرضنا وبيوتنا ونسيبوا بلادنا ونهجوا خلق الله لأرض الله اكديه؟

-أيوا يا يحيى أنا شايف كدا وبموافقتكم أو غصب عنكم المشروع عيتنفذ فخلوها جمايل يا واد عمي.

قالها سعد وهو يقف بثبات وكأنها يقر واقع قد حدث بالفعل:

-وماعارفش انت يا واد عمي ان عندينا اللي يبيع أرضه كانه فرّط في عرضه؟

ماعارفش ان البيوت والشوارع والحواري مش بس طوب وحجارة دي عمر وذكريات ومستقبل وأحلام؟ وإن اللي يفوتهم كانه بيفوت روحه.

ولا الغربة والجواز ونسايبك نسوك عوايدنا اللي اتربينا عليها؟

-ياعم بلاش الكلام الكبير دا انت بتهري في ايه أصلاً بقولك اللي هيبيع عيتراضى ومبقولش قرشين وخلاص دا ملايين تجيب قِلل وقصور مش شوية بيوت كحيانة، انتو ماعيزنيش تقبوا على وش الدنيا وتفوتوا الفقر والهم دا!

التمعت عينا سعد وهو يبرز لهم ذهب المعز ولم يئن الأوان لسيفه بعد.

-احنا ماعيزينش ياعم ملايينك فوتنا لحالنا الله لا يسيئك

زفر بها حانقاً يحيى، ليجد سعد في مواجهته مباشرة وقد بدأت ملامحه تتقلص بعُنف.

-اتكلم عن نفسك لوحدك يا عم المهم، ولا هما عينوك شيخ القبيلة وأنا مش واخد بالي؟

طافت عيون يحيى بوجوه الجميع يبحث فيها عن سند حتى استقرت نظرته فوق صفحة وجه عمه الشيخ شيخون الذي بدا عليه الإعياء، فما زالت وفاة أخيه تأكل حشايا فؤاده، لكن يحيى يستنجد به ولن يخذله.

-ورأي حضرتك ايه يا عم الشيخ؟

-كلمني أنا ومالكش صالح بعمك الشيخ.

انتهى من جملته وهو يسحب ذراع يحيى يعيده في مواجهته، ليهمّ يحيى بتخليص ذراعه بقوة مستديراً له وقبل أن ينطق استقام الشيخ شيخون وأصبح هو في مواجهة ولده.

_اسكت ساكت يا واد وبكفاية حديت ماسخ، انت عتمد يدك على واد عمك قدامي يا واطي؟

ماعاملش اعتبار لشيبة أبوك ولا للرجالة اللي قاعدة؟

وقبل أن يتم جملته صفعه بقوة وأكمل:

- يا خسارة تربيتي فيك، صحيح إنك زرعة فاسدة ولازمن نجذرها.

تهاوت يد الشيخ شيخون ليُسارع يحيى بإمساكه قبل أن يلفظ يد سعد التي سبقتها ليكون الرد عليه حاسماً:

_طُب ساكت. ماعيزنكش يا جالوس الطين، غور من اهنيه وريحنا من شرك محدش هيبيع قيراط واحد من أرضه يا واكل ناسك.

كانت معركته صعبة، لكن هزيمته مستحيلة.

تُغلفهم حالة من الصمت المهيب.

رمق مُحادِثه بنظرة بها من القسوة ما يُعادل الانتقام،

مطّ شفتيه بجفاء ثم استدار في مواجهة يحيى.

تصلبت عضلات فكّه وهو يحاول السيطرة على مشاعره.

استدار باتجاه والده مواجهة ولد عاق بوالد مفجوع في ولده، مواجهة بائسة ويائسة.

زفر باحتراق ويده لا تزال تتحسس موضع الصفعة، الصفعة التي تلقاها أمام الجميع.

كان يرمقهم بنظرة ضبابية تحمل من القسوة في رماديتها الكثير والكثير،

لا تدري أهو انتقام أم كراهية؟ ظلم أم غدر؟

صعد الدَّرَج ....الدَّرَج الذي يحمل ذكرياته هنا في بيت البغدادي؛ يحمل ذكريات طفولته وشبابه.

يحمل ذكريات عائلته وشقيقاته.

تنهد وهو يخطو خطواتٍ ثقيلة، بعد أن كانت قبضته تحتضن سور الدرج وكأنه يمسك عمره؛ عمره الذي ضاع، ولا يريد أن يُفلت ما تبقى منه.

عمره الذي تاه بين نقطتين من حسن إلى حسين.

عمره الذي تخبط بين: عم بصبغة أب، وأب رحل بلا وِداع، وجريمة دُبِّرت بليل.

أغمض عينيه متحاشياً التفاصيل فهي قاتلة.

لم يستطع أن يدلف الى شقته فانتظر أمام باب شقيقاته مستشعراً بعض الحرج، أيطرق الباب؟ أم يتركه ويرحل؟

أيعتذر لهم كونه لم يعد أماناً لهم وقد صار غريباً عنهم؟

كونه أتى هكذا بلا موعد أو استئذان وهو ما يتوجب عليه، كونه ليس محرماً لهُن.

بضع خطوات كان مبتعداً نحو النافذة، ليطالع الواحة وإمبراطورية البغدادي الشاسعة التي امتدت أطرافها من أول الواحة حتى آخرها.

من أراض ومزارع ومشاتل ومصانع ومخازن،

مملكة صنعها جده البغدادي ......توشك أن تضيع!

***

استقر أمام حاسوبه في يده اليُمنى قدح قهوته ويده اليسرى تُحرك مؤشر البحث في جوجل عن تلك الشركة العملاقة التي تريد السطو على الواحة.

يمرر سبابته فوق الأزرار فتنكشف الكثير من الأسرار.

تفاصيل رهيبة عرفها في لحظات لم يتصورها أبداً، عيناه تتحركان بسرعة فوق الأرقام فيعقد المقارنات ويدرس الإحصائيات ليقف عند بعضها مذهولاً فينقر مجدداً فوق لوحة المفاتيح للمتابعة فتفجعه التفاصيل. صاح فجأة:

- باه باه باه!!

إنها مافيا عالمية!

قالها يحيى بعد أن فغر فاه خلف الشاشة.

مؤسسة عملاقة مدعومة مالياً من عدة أثرياء ورجال أعمال ومن ورائهم بعض رجال المافيا وتُجار السلاح والمخدرات.

يحتمون بتلك الواجهة العملاقة لغسيل أموال يتم بطريقة أقذر مما جُمعت به تلك الأموال.

في عُرف الحكايا هي مجرد قصة، وفي عرف الحياة؛ شخوص لكل ممنهم لحظة خاصّة يريدنا أن نعرفها، نتسلل إليه منها.

كي نستمع له وتبدأ الرواية...

وهنا لحظة زائفة لبشر كاذبون،

حكايتهم تُخبرنا أننا أصبحنا في غابة، يأكل القوي فيها الضعيف، والمواجهة امرأة!

***

ابتسامة حقود ساخرة تلقّاها منها،

فأباحت له انفعالاً مفرط العصبية، فتملكت ملامحه جذوة من لهيب مشتعل كاد أن يحرق الهواء بينهما.

بنبرة خشنة وقبضة قسوة أمسك بذراعها.

-انتي ايه اللي عملتيه دا من ورايا يا زفتة الطين؟ حيّة وسِمّك ناقع يا بعيدة.

ضمّت حاجبيها بقسوة، وتأوهت وهي تحاول انتزاع ذراعها من قبضته المُحكَمة، لترد بسخرية باردة:

-أنت متعصب عشان أنا عملت الشغل اللي المفروض أنت تعمله؟

انتفضت وهو يتقدم منها لتحتل أصابعه خصلاتها بشراسة فيلفها بقوة لينخلع قلبها قبل شعرها، ويسقط قلبها في قاع أسود، ارتجّ جسدها كله، وقد اشتعلت عينيه بلهيب قاسٍ:

-أنا حذرتك ميت مرة يا بنت المسيري ومفيش فايدة فيكي مش هتغيري اسلوبك القذر دا أبدا.

توجعت متأوهة بغلظة وعصبية تناقض ما ستطلبه:

-ممكن تهدى عشان نتفاهم!؟

واشتدت أنامله فوق خصلاتها أكثر وهو يجذبها للخلف بعنف حتى كادت تغادر رأسها بين أصابعه.

نظرتها مُشتتة بتاريخ امرأة ورجل بينهما عقد زواج وبيعة،

تفاصيل مرفوضة وموصومة.

هي امرأة قوية اختارته دون مشاعر، رأته ساعِد والدها الأيمن والصفقة الرابحة لتستحوذ على كل شيء.

صمت أسود ساد المكان وطواحين أفكار تدور في رأسيهما، بينما أنفاسه عاصفة تكاد أن تقتلعها من على الأرض ليرمقها بعينين مستعرتين.

أما عينيها؛ فسوداويتان كليل مظلم لا نهار فيه.

رمقته بذات السوداوية التي تظلم المكان كله وتطبق عليه، لكنها تراجعت واستلت سلاحاً آخر تملكه، سلاح الغواية، وهذه المرة بالنفوذ والسلطة.

جلست أمامه وثبّتت عينيها في عينيه وقالت:

-هخليك شريك في المجموعة بنصيبك ونصيبي.

تجاهل عرضها وأشاح ببصره بعيداً عنها، فزفرت بضيق لعناده.

-وبعدين معاك يا سعد! انت عايز ايه بالظبط؟

استدار بانفعال صارخ فاستقامت مواجهة له مرة أخرى كأنها لا تُريد أن تفلته، تلاقت عيناهما للحظة، كان بريق عينيها أسودًا مميتاً وسواد عينيه له لمعة مختلفة.

بينما نبضة قلب كانت بينهما حياة في يوماً ما؛ هي الآن موت!

هو زهدها وهي انتهت منه، شراكة آثمة وشُركاء سوء.

***

النهايات تنقصها نقطة،

فالبدايات حاضرة أما النهايات؛ مؤجلة تنتظر خاتمة.

***

بيت البغدادلي كانت جدرانه ترقص فرحة، الآن تئن.. تصرخ.. بل تنزف ألماً ووجعاً، لتشقى خيبة وبؤساً.

عادوا من المشفى بعد أن حملهم يحيى جميعاً إلى بيت البغدادلي الكبير واستقروا فيه.

حتى دلال وابنتها عُلا، جهّز لهما يحيى غرفتين في الطابق الأول وحرص على راحتهما، فأرفقهما بحمام خاص، ووضع في الشُرفة أُرجوحة وبعض الألعاب لتقضي عُلا وقتها باستمتاع.

كما مهّد لهما كل سُبل الراحة التي اعتادتا عليها.

أما سندسته الغالية، فقد جاورتهما في غرفة أخرى لا تقل أناقة ورفاهية عن سابقتيها، فهل يستطيع وان فعل أضعاف ما قام به أن يعوضها مِثقال ذرةٍ مما عانته من ذُلٍّ وقهر؟

***

من بعيد كانت هناك، كانت حُسنة التي تبدلت.

تعابير وجهها، صوتها.

تائهة عمن حولها، غائبة عن العالم.

تنسحب من الحياة بكامل إرادتها.

***

ماذا لو أعطتنا الحياة وقتاً مُستقطعا؟ هُدنة صغيرة، استراحة محارب، لنتعافى من الأوجاع ثم نعاود الطحن مرة أخرى.

***

الأحداثُ تمرّ برأسها تحرق صدرها.

رفعت رأسها مبغوتة عن هاتفها، تبحث في صندوق رسائلها القديمة عن رسائله.

نقرات خفيفة على باب حجرتها كانت كفيلة بتوترها وإخراجها من بوتقة أفكارها.

أشارت لشقيقتها بالدخول.

- قلت اشُق عليكي تكوني عايزة حاجة يا خيتي.

ابتسمت فاطمة لحنان أختها البالغ، كأم رؤوم كانت لها دائماً.

- تسلميلي يا هاجر ماتحرمش منك واصل يا نوارة البغدادلي.

غامت عيناها بشرود في بيت البغدادلي وما آل إليه حاله وحالها.

***

فاطمة وفارسها غامض، بل مختلف.

شاب مُلتزِم دينياً على خلفية نشأته في بيت الشيخ شيخون، جاد في كل شيء.

يؤمن بضرورة التغيير، وتغييره ثورة تقتلع في وجهها الأخضر واليابس، ليس عنفاً، بل مواجهة وفكراً.

لا يؤمن بحمل السلاح، بل بحمل العقيدة الصحيحة.

هو حقًا مختلف.

واثق في نفسه قدر ثقته في عدالة الكون وعدالة قضيته، وضرورة التغيير نحو الأفضل،لذا آثر أن يكون قدوة.

هو الثائر في تفاصيل الحياة، الثائر في كل وقت وحين.

وها هي تعيد اكتشافه وقرائته من جديد.

فتقرأ رسائله القديمة مرات ومرات، لتكتشف مع كل مرة شيئاً جديداً مختلفاً،وكان اللقاء معه مرة أخرى.

***

كافتيريا مستشفى قنا العام

عيناه تتجول في تفاصيلها كنكهة النُعناعِ التي تخترق أنفه من كوبِ شايٍ تمتد به يدها، كانت تتغلغل فيه.

تتسرّب بين مسام جلده.

في بداية استيعابه كان يُقاوم، كان يقاوم نظرتها المُختلفة، ابتسامتها الخجلى، يقاوم كل شيء فيها.

بل كان يقاوم نفسه كي لا يغرق فيها، ولا نجاة.

فلا يحق له أن يغرق الآن؛ فهو الصديق، القريب، السند.

أخذ على نفسه عهداً بالحفاظ عليها بل عليهن جميعاً فهُنّ بنات عمه.

كانت فاطمة ترمقه من فوق عويناتها بنظرة جديدة، فهو الشاطئ الذي استقرت عنده أمواجها.

هو نصفها الذي كانت تبحث عنه بين حروف رسائله.

قطع أفكارها بسؤال:

- سندس عاملة ايه دلوقتي، طمنيني على صحتها؟

- الحمد لله بخير وماشيين على العلاج والڤيتامينات

- وجدتي وأبوي طمنيني عليهم يا فاطمة.

- كلهم بخير يا فارس اطمن المهم أنت مش هترجع بقا؟ أنا تعبت ولازم وجودك عشان تتصرف مع سعد.

كزّ على أسنانه، فتلك مُعضلة لا يعلم أحد متى تنفك عقدها إلا الله.

- هو دا اللي بفكر فيه والله،

البني ادم دا لازم نقف كلنا في وشه ونبقى ايد واحده قصاد خططه.

ارتاحت لحماسته فهذا ما توقعته منذ حكت له ما يحدث وموقف إبراهيم السلبي الذي زاد الطين بلّة.

لحظات مضت بلا كلمات...

عيناها وعيناه

وفقط..

لا، بل والعديد من الوعود المُوثّقة بالقلوب، بلا أقلام ولا أحبار.

اربط حـــزام الأمان هجرك يابوي واجع

الغربـــة مهما تطـول لابـــد يـــوم راجع

بلـدالحبايـب زيـــنة وبلدي كلها مواجع

***

صدح بها «هلال» المجذوب لترتد في أذنه فتخترقها.

الشيخ شيخون

بين الحياة والموت كان برزخه.

ولده سعد، الخُدعة الأولى والأخيرة في حياته.

المرار الذي علق بحلقه فغُصّ به في شيخوخته بعد أن كان عسلاً مصفى في صِغره وشبابه.

ولده الذي رسب في اختبار الحياة بلحظة ضعف، لمال، لسطوة نفوذ، لسلطة.

***

التجارب مُرهِقة.

***

قالتها وأغلقت هاتفها، لترميه أمامها على الطاولة، وعندما حاول إعادة الاتصال بها؛ كانت:

«هذا الهاتف ربما يكون مغلقًا أو خارج نطاق الخدمة، من فضلك حاول الاتصال في وقت لاحق» هو الردّ.

كانت تهرب من كل شيء، منه، من حياتها، من نفسها، من ذكرياتها، من ماضيها وحاضرها.

تهرب بالنوم .....لتحلم....ربما أحلام سيئة.

أحكمت حول نفسها الغطاء، كان هو رؤياها التي تمنّتها حُلماً.

لكن تحقيقها مشروط بقيود، بقائها في أرض تريد أن ترحل عنها، وجذور تبغي أن تقتلعها من أعماقها، واكتمال حلمها، هاجسها وكابوسها المُفزِع.

احتلّها الأرق، لتطير الأحلام من النافذة.

«رُقية»؛ كان يهتف بها في منامه.

كانت في أحلامه وفي رُآه.

واقعه وذكرياته.

شربة الماء التي سيموت ظمأً إن لم يرتشفها.

تِرياق السُّم الذي تجرعه وسرى في عروقه ولن يتناوله ليرحل بكامل إرادته.

فهل يتنازل ويتغاضي عن جرائم أخيه مقابل الفوز بها؟

ذلك كان شرطها .. أن يبيعا القضية ويقبضا الثمن ويرحلا .

ولِمَ لا؟

قالتها لنفسها.

هي لا تُريد أن يربطها أي شيء بتلك الواحة، لا تريد أن تتكرر مأساة كل النساء فيها.

ولا أن تمر بتلك التجارب التي رأتها وعانت منها، تريد الفرار؟

ولكن على حساب من؟

أهلها وشقيقاتها، أخوها الذي ظلمه الجميع وها هي تجهز عليه!

ها هي تطعنه بنصل خيانة مسموم سيُصيبها قبل أن يصيبه.

هي تقتحم قلبه ولا تهادن، تحتلّه بلا مقايضة.

التقته في الصباح؛ أومأت بابتسامة وعيناها ترتكزان على عينيه المتفختين من الأرق مثلها تمامًا، لم يناما الليل كلّه، ربما ضمير يصرخ ويتألم!

- أنت منمتش يا إبراهيم زيي بالظبط.

- مش قادر يا رقية اسكت اكتر من اكديه وما قادرش انفذ طلبك يا غالية.. على عيني أرفض لكن ....

أشارت إليه بالسكوت.

- حاسة بيك يا إبراهيم وصدقني مشركاك كل اللي قلته يا واد عمي بيتهيألي السكوت بعد اكديه يبقى جريمة.

انشرح صدره وكأن ثقلاً جسيماً انزاح عن عنقه فارتاح أخيرًا.

- الله يباركلك يا رقية.. يعني... خلاص؟

ابتسمت لتلعثمه، فأردف:

- والله غلاوتك زادت في قلبي أضعاف.

***

كلثوم

تُراقب نساء العائلة وقد اجتمعن.

لكل مِنهُن قصة، وخلف كل قصة رجل.

وكل القَصص ما هي إلا مـأساة، والسبب... رجل.

الفراغ الذي أحاط بحياتها كاد يقتلها، كان قبسه هواية اكتشفتها، اشتعلت فأضاءت لها حياتها كلها.

كانت تراقب بهلع وصدمة ما يحدث.

لهيب الحرائق يتصاعد من كل اتجاه!

نظرت حولها، صرخت، لم تجد مَن يُطمئنها، الجميع يركض، صراخ وعويل قادم من الشُرفات، وكأنه يوم الحشر، بل وكأنه الجحيم!

الأحداث المتلاحقة في الفترة الأخيرة جعلتها تفقد اتزانها وثباتها.

كهدير ريح عاتية أتاها صوته مُنادياً مُدارياً قلقه وخوفه عليها بمزيد مِن تشنّج:

- جميلة.

تَوالت نداءاته على كل من بالدار.

فزعت حينما رأته وكتمت شهقة بيدها وذهول اعتراها!

كان يُحارب الدنيا كلها، ينتصر للجميع ويخسر نفسه!

الهلع يسيطر على الجميع، الدموع تملأ عيون الصغار بينما حناجر النساء تشق عنان السماء؛ صُراخاً....ونوحًا...وندباً.

كلٌ يبحث عن حقه بالحياة الذي يحاولون سحقه، عن هويته التي يحاولون طمسها، عن جذوره التي يحاولون اقتلاعها، عن أصوله التي يحاولون السطو عليها.

ضمائر ميّتة ونفوسٍ عَفِنة!

أما هو؛ فكان بنصفِ عقلٍ وعين مشوشة.

صوت دخيل تهدر أنفاسه، اثنان بينهما فوهة بندقية وضمير ميِّت وصخب.

صاح يحيى:

- ايه اللي جابك هنا يا سليم وعايز ايه؟

- عايز أخد روحك يا واد عمي.

توتر ساد المكان بمن فيه، هرعت إليه جميلة تفتديه بنفسها.

_لا، لا أبوس يدك بعد السلاح دا إحنا أذيناك في ايه!؟

صخب وضجيج، الكل يحاول الاقتراب من المشهد عساه يمنعه أو يحول بينه وبين الحدوث.

وِصال أمسكت بمُقدمة البندقية تحاول زجر سليم وصده.

- بقولك ايه إحنا مخايفينش منك ولا من بندقتك ولا عنعملولك سعر يا واد الفرطوس.. روح للي باعتينك قوللهم البغدادية ما عيتهزوش ولا عيفوتوا أرضهم.

أمسك يحيى بذراع وصال خشية عليها من غضب سليم ورد فعله فأبقاها بأمان جواره.

بدأ صراخ البنات، وآخرهن كانت ثومة في الصعود إلى موقع الحدث.

استوقفتها على درجات السُلم حُسنة، عندما وصل إليها الضجيج ظنّته أولاً توابع الحريق الذي لم يُحرِك فيها ساكناً فقد ظلّت في غرفتها لم تتجاوز مصليتها ومسبحتها في يدها.

آثرت أن تموت بين يدي ربها علّها تلقاه بخاتمة حَسنة.

أما هذا الضجيج فمُختلِف استشعرت قلقاً وريبة، فخرجت تُنادي:

- ايه اللي بيحصل فوق يا بنات؟

ردّت عليها ثومة وكانت عند آخر درجات السلم:

- سليم رافع البدقية على يحيى يا عمة.

قفزت حُسنة وبكل ما أوتيت من قوة استجمعت شجاعتها لتصل في وقت مناسب..

الجميع مُتراصّ خلف يحيى وفي المواجهة سليم وبندقيته.

لمحها سليم بطرف عين وابتسم حين شاركته الصّف..

جاورته، فهنا ستقتسم الغنائم، هكذا ظن.

قال لها ونظره لا يحيد عن غريمه:

- يا مرحبة يا ست الكل اكديه انتي اخترتي الحصان الكسبان.

ابتسمت بلامبالاة وقالت:

-طبعا يا واد عمي لازمن اختار الحصان الكسبان بس انت ايه اللي معطلك؟ مستني ايه عشان تطخه؟

ذُهِل الجميع! وهو ابتسم ليُجيب:

- عايزين نمضوه امضا صغيرة قبل ما نودروه الحزين.

_طب هات البندقه وروح مضّيه يا سليم.

أعطاها البندقية بتردد وحذر، نصف عقل، ولا إدراك، لينتهي المشهد برصاصة في كتف سليم، أطلقتها بلا تردد وبمنتهى الحزم.

لكن الأخير استعاد توازنه في نفس اللحظة التي استعاد فيها سلاحه منها، ليرد طلقتها الخائبة بطلقة قاتلة.. وفي القلب مباشرة!

سقطت صريعة وسط ذهول الجميع! وتلاحق الأحداث لم يعطِ فرصة لأحد أن يتصرف.

اهتز السلاح في يد سليم بعد نزف شديد من جُرح كتفه ومحاولة إرغام يحيى على التوقيع، وكانت تلك هي اللحظة المناسبة التي يهجم فيها يحيى عليه وينتزع منه السلاح ويُبادره بضربة شديدة بمؤخرة البندقية أفقدته الوعي، فسقط في غيبوبة صغرى.

قام خلالها يحيى وإبراهيم الذي حضر مؤخرًا، بتقييد سليم حتى تصل الشرطة.

بينما يلتف الجميع حول حُسنة التي فاضت روحها وعيونها مثبّتة على وجه ابنتها جميلة دون أن تنطق بكلمة واحدة! عساها تكون كفرت بتضحيتها هذه عن جرائمها.

عساها أن تُسامحها وتغفر لها.

عساها تستعيد قلب ابنتها الذي فقدته وفرطت فيه بمحض إرادتها.

ها هي امرأة تبذل روحها فِداء لمن حاولت قتله بدل المرة مرات عديدة!

من سلبته الاسم والمال والماضي والحاضر، وحاولت طمس مستقبله!

من حاربته كل لحظة منذ يوم ولادته وفي صغره وشبابه ورجولته، من كدّرت عليه أيامه وأرقت لياليه.

من حاكت ضده المؤامرات ونسجت له شَراكاً وفخوخاً.

من وضعت له العراقيل ليفشل.

من دفعت الثمن لقاتل مأجور كي يتخلص منه.

من حاولت القضاء عليه!

ها هي تفتديه بنفسها، فلربما تلك الدماء التي سالت من عروقها تُطهر روحها.

ولربما تلك الروح التي فاضت إلى السماء ليعفو عنها أهل الأرض.

وضعت جميلة رأس أمها على حِجرها وافترشت الأرض وهي تقول:

-سامحيني يا اماي سامحيني

_مسمحاكي يا أماي بس ما تسيبنيش أوعي تفتكري إني كنت قادرة على صدك والله كنت عايزة اترمي في حضنك كنت عايزة استخبى جواكي من عيون الناس..كنت عايزة اخدك ونبعدوا بعيد نعيشوا في دنيا تانية مع ناس تانية في بلاد تانية.. بلاد مفيهاش قسوة ولا ظلم مفيهاش شر يا أماي.. ردي عليا يا أماااي ما تفوتنيش وحدي لضميري يعذبني ماتفوتنيش ألعن نفسي كل لحظة اني زعلتك ما تفوتنيش وانتي غضبانة عليا يا أمااااي.

كان جسدها مُمداً على الأرض والعيون حولها مُرتعِبة لا تعي تفاصيل ما حدث رغم أنهم جميعاً كانوا شهوداً!

امتدت يد وصال لجسد تحاول تحريكه بيأس وقد تسللت العبرات من مُقل الجميع بتتبعها عبرات.

همست بوجل تستحلفها أن ترد عليها، تلك التي شاركتها يقين توبتها ورأت بأم عينيها أوبتها.

لكن القنوط الذي استحوذ عليها جعلها تبتعد عن الجميع عدا وصال، كانت الوحيدة التي صدّقتها وآمنت بصدقها.

كانت نبرتها متوسّلة تتعشّم أن تعود للحياة لكنها كانت في بُعدٍ آخر.

***

الذين قضوا وقتاً طويلاً في البعاد، وقتاً طويلاً يشعرون دوماً أنهم ليسوا على استعداد لاستقبال الأحبة، فسجنوا أنفسهم في الشوق واعتنقوا الغربة.

ونسوا كيف يكون التلاقِ!؟

***

أعلن القاضي حكمه ...مذنب!

ضرب بمطرقته مرة، ثم مرة، وفي الثالثة ... مذنب.

ليصمت الجميع، ويصدح بها قاضيه: مذنب.

لكنّه صرخ بقوّة... بريء.

لتسقط كلمته في قاع الظلام المدقع في هُوة سحيقة، ويسقط هو معها كما سقط من قبل.

استيقظ مرتجفاً، يكاد حلقه يتشقق جَفافاً ويتصبب العرق من جبينه بغزارة.

_أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

لقد كان حلماً، بل كابوساً مزعجاً.

ابتلع غصته ببعض رشفات من كوب ماء بجانبه.

استعاد ذكرياته حين سافر تركيا للدراسة، وكيف التحق بالعمل في شركة «المسيري».. مؤسسة عالمية عملاقة، انبهر بكل شيء، وانصهر مع كل شيء، بل تماهى معهم.

شهر تلو شهر، عام تلو عام، يتدرب على يده.

اختبار تلو آخر، وفي كل مرة ينجح وبِجدارة. حتى تفوق على أستاذه وبدأ يُفكر ويرسم، ويخطط، بل وينفذ.

وها هو الآن يقف على البرزخ، بين بحر المعصية وشاطئ الفضيلة المنجية. فهل يستمر في دربه؟ أم يثوب إلى رشده، ويعود عن غيّه؟

***

مواجهة أخرى وهذه المرة مرآة.

مرآة تتفحص فيها ملامحها المنحوتة بجمال مصطنع.

أكذوبة تعيش فيها، وفقاعة تحتلها.

وهنا.. العواطف قابلة للتفاوض والحُكم آخر الجلسة.

مرّ لتوِّه جوارها فالتفتت بنصف عين ونصف قلب، وعقل كامل.

مررت له ابتسامة ماكرة تستنبط ما يدور بخلده.

نظر إليها وجه قاس،ركّز نظرته فتلعثمت، استقامت فتعثرت، ثم تحركت باضطراب على قدرٍ قوتها وقسوتها إلا أنها تعترف بجريمتها، أنها مَن دبّرت وخططت، وبذلت المال لمن يُنفّذ غرضها.

حريق كبير، ليس واحد فقط؛ بل حرائق متتالية!

في كل مكان، في مخازن الغِلال، في الشركة وفي منزل البغدادي نفسه.

ياالجبروتها! ويالقذارة اليد التي استخدمت!

مَن؟

إنه سليم!

فرّ من محبسه واستعان به أحمد المحامي وبعض المطاريد لتكتمل الجريمة.

-أيوا يا سعد كان لازم دا يحصل والأيد اللي مش هتمضي وتبيع نقطعها ونحرقها ونستريح.

تجاهلت صرخاته وصراخه فيها:

-انتي مجنونة!

اصطنعت الحزن وهي تردّ:

-غصب عني هما أجبرونا على كدا.

كتم أنفاسه في ضيق ثم هدر بصوت غاضب:

-غبية وشيطانة.

فخّ سقط فيه بكل حماقة، كان بين مستحيلين فماذا يفعل؟

يسلك درب الجريمة بكل ما فيه من معاصٍ وفِتن؟

أم يتوب ويعود لرشده ويعترف بجُرمه؟

***

هناك نهايات مُتأرجحة لا تأتي بسهولة ولا تمر بيسر،

تقلب الدنيا رأساً على عقب.

لا تستطيع أن تمتلكها، هي التي تستحوذ علينا وتبتلعنا.

ففيها لحظة فارقة لا عودة بعدها إلى الوراء.

فلا نملك حيالها سوى الانتظار..

***

كانت لحظة قاتلة، تلك التي وجد فيها نفسه أمامها

هدر بصوت مُزلزل:

-ايناااااس.

صفحة سماء قاتمة وقف يتطلعها وهو ينفث دخان سيجارته في الهواء.

اللعبة الآن في نهايتها،

إنها الخاتمة...

إماّا انتصار، وإمّا هزيمة.

كلَغَمٍ مُعَد للانفجار مُسبقاً في توقيت معلوم وعليه شهود؛

لم يرمش لها جفن وهي تنظر إليه!

رُمادية، قاتمة، مقيتة، غشيت عينيها.

لم تتحرك، لم تُحِدْ نظرات ثابتة وعيون تترجم كل احتقار الكون،

ما الذي يشفي غليلها؟

الشتائم؟ لا تكفي.

الضرب؟ لا يفي.

هل تقتله؟

نعم، إنه الحلُّ الأمثل.

فوجوده أصبح خطراً عليها وعلى أحلامها ونفوذها.

ابتسامة مُغتصبة احتوت شفتيها بتمكّن امرأة تُجيد ارتداء الأقنعة.

توحّشت نبرتها بصوتٍ خفيض:

-أنت خلاص يا سعد معادش ليك لازمة انت ورقة واتحرقت.

ضمّ قبضته بقسوة يحاول السيطرة على أعصابه، فتلك الفكرة الشيطانية التي التمعت في رأسه قرأتها في عينيه.

وهي نفس الفكرة التي قتلتها هي بحثاً في رأسها!

صاحت فجأة لتخرج الحروف مُتتابعة كسيلٍ جارِف:

-ايه يا سعد بتفكر في ايه؟ عايز تخلص مني؟ عايز تقتلني؟

أسند رأسه إلى الجدار ليُهمهم بيأس:

-يا ريتني كنت أقدر أعملها، أنا عايز أنضف بقا يا شيخة.

وأمسك برأسه يعتصرها بين راحتيه وكأنما يعتصر ما بها من أفكار، واستطرد:

-عايز أفوق ...عايز أفوق.

لكنه عاجز عن هذا الأمر.

ارتفع رنين الهاتف ومرّت ثوانٍ كأنها الدهر ليُمرِر صوتاً خشناً وكلمات حادّة ونبرة جامدة صلدة لا حياة فيهاً، كلها موت، حروفها موت، كان كتمثال قُدَّ من حجر لا يستوعب ما يسمعه، فقط يندهش، يستنكر، يستفهم!؟

مين؟

ليه؟

إمتى؟

وقد أبلغه الأمن بمحاولة قتل يحيى!

وسؤال واحد بعد أن أغلق الاتصال، سؤال من ثلاثة حروف، يُلهب حنجرته قبل أن يُرهب من يسمعه.

ليه؟

قسوة عينيها لم تسمح له بخيار، فكانت الإجابة فوهة مُسدس!

تُحاول التقاط أنفاسها بعسرٍ، أمّا هو؛ وإن كان لا يمتلك سلاحًا في يده، لكنه يمتلك السيطرة عليها.

_عايزة تقتليني يا بنت المسيري؟

أجابت بتردد لكنها كانت تمتلك من الصلف والجمود ما تعود به إلى خانة القيادة والسيطرة:

_ انت اللي اخترت يا سعد، صدقني انت اللي اخترت بس لسه في فرصة إنك تصلح الوضع وترجع تاني في المكان الصح.

برقت مقلتاها بعد صمتٍ حَذِر، فأردفت بنظرة من جحيم:

_كل خيوط اللعبة في ايدي، معايا أنت كسبان صدقني.

كقنبلة موقوتة وقد حان أوان انفجارها لا يكترث لتوابع الانفجار ولا لشظاياه هجم عليها، لتخرج رصاصة تستقر في كَتِفه!

اجتمع أهل الواحة عن بُكرةِ أبيهم، أدركوا أن السكوت نهاية وأنه بعد حرائق الواحة لا بد من الاتحاد للدفاع عن أرضهم وعرضهم.

لا بد من كسر حاجز الصمت والخوف.

الاستسلام يعني الموت، يعني ضياع كل شيء.

تلك اللعنة التي حلّت عليهم بمقدم سعد وزوجته، أتوا للاستيلاء على الواحة وسحق كل شيء أمامهم في سبيل الوصول لغرضهم.

وانتهوا بحرق الواحة ومحاولة قتل يحيى.

وبيد سليم الذي هرب من محبسه بمساعدة بعض البلطجية والمطاريد.

صاح أحدهم:

-ماعنسكتش على اللي بيحصل دا واصل وإن كانوا هما معاهم القوة إحنا معانا ربنا، معانا الحق والعدل.

احتشدت مجموعة من النسوة في الخلف..

استعداداً للمواجهة...

***

الشيطان الذي فاوضها ليربح المعركة ويقودها إلى التهلكة.

رغبتها العارمة في نيل كل شيء وبأي ثمن ولو كان حرق البلدة بأكملها،

ولو كان إزهاق الأرواح!

***

لتسقط في جُبِّ المعصية وتُصبح بجدارة: قاتلة مجرمة.

بترت أفكارها تُحاول لململة التفاصيل.

استقامت بخطوات حادة ونبرة لاهثة وهي تُحادثه عبر الهاتف، وخلف الخطوط كان الأبّ..

«المسيري»

تُحاول السيطرة على أعصابها وهي تشرح له تفاصيل ما حدث،

-قتلته وحرقت البلد كلها وسرقت الأوراق من عيلة البغدادي بس فشلت في ....

عاجلها بردّه

-في ايه؟

-مش وقته، شوفلي حل بسرعة.

باقتضاب مُرتبِك جاوبها:

-طب اهدي وفهميني ايه الوضع بالظبط؟

ثوانٍ مرت وهي تحاول أن تستجمع الهواء وتحبسه في صدرها علّ أنفاسها تنتظم من جديد.

فتلفظ حروفاً لا معنى لها، وكلمات لا سبيل لفهمها.

تخطّت الثواني عقارب الساعة تتلاحق لتنشد الدقائق وهو يفكر بحيرة، تيه وظلام يُحاوطه.

لا يعي ما تقوله ابنته!

كيف ؟ ولِمَ قتلت وحرقت ؟ وما الداعي ؟

وما هي إلا لحظات، وكانت الشرطة تُحاصر المبنى بأكمله وتُلقي القبض عليها، ووصلت سيّارة الإسعاف لنقل سعد إَلى المستشفى.

***

البداية

اجتمعت العائلة كلها على مائدة فطور صباحي مُعتاد، مشهد يبدو مُعتاداً مُكرراً

لكنه في مكنونه نعمة كبيرة، فاعتياد النّعم يفقدنا الشعور بها.

وإن حُرِمنا منها... وقتها سنشعر بقيمتها الحقيقية.

التقت العيون، وارتسمت الابتسامات فوق الشفاه،

وكانت تلك هي البداية.

بداية ملحمة يخوضها كل «بغدادي» في موقعه ليقتنص من الحياة ما يُريد.

الشمس التي أشرقت على أرض البغدادي نسجت خيوطها أشعة ذهبية، ليتوالى شروق وغروب.

ضوء وظلام.

نهار وليل.

عقل وقلب.

أواصر اتّحدت، وعهود أُبرِمت، ومواثيقٍ عُقِدَت.

قلوبٌ تنبض، وشفاهٌ تُسَبِّح بحمد ربها.

وكانت البداية...

«عائلة».

[تمّتْ بحمدِ الله]

حنان الشيمي